الرحلة المكية فى فكر الرحالين المسلمين.

أ.د/ محمد سالم إبراهيم سالم مقلد
أستاذ الجغرافيا البشرية بكلية التربية جامعة المنصورة

١٤٣٥هـ/٢٠١٤م

رقم الايداع بدار الكتب : ٢٧٠٥٨ / ٢٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

((وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩))) صدق الله العظيم

سورة الحج : ٢٧ – ٢٩

إهداء :

إلى كل الرحالين الذين عشنا معهم القرون المديدة .

الدليل

الموضوع	الصفحة
مقدمة:	٧
الفصل الأول :"فصل تمهيدى"	٩
الفصل الثانى : "الترحال إلى مكة المكرمة عبر البحر الأحمر"	٤١
الفصل الثالث : "طريق الحج العراقى"	٦٥
الفصل الرابع : "طرق الحج اليمنى والعُمانى – مكة المكرمة"	٨٣
الفصل الخامس : "طريق الحج المصرى"	١٠٣
الفصل السادس : "طريق الحج الشامى"	١٣٥
الفصل السابع : "مكة فى عيون الرحالين المسلمين"	١٥٥
الفصل الثامن : "أثر الرحلة المكية على الحياة العلمية والاجتماعية"	٢١٣
المصادر	٢٤٣

مقدمة:

مثلت مكة وتمثل قبلة الإسلام والمسلمين فى كافة أنحاء العالم ، ومثلت وتمثل الرحلة إليها مقصداً وركناً من أركان الإسلام وتهوى إلى بيت الله الحرام أفئدة المسلمين فى كل زمان ومكان .

وقد كان لانتشار الإسلام الفضل فى ازدهار الفكر الجغرافى بصفة عامة وازدهار الرحلة وأدبها بصفة خاصة ، خاصة الرحلة إلى مكة ، فهى مطلب كل المسلمين . فقد تولى الإسلام بالضرورة إثارة واستنفار الحاسة الجغرافية فى المسلمين ، وهم يواجهون التحدى من قبل كفار الجزيرة العربية وخارجها ، أو وهم يجوبون الأرض فى أنحاء الدولة الإسلامية ، أو وهم ينشرون الدعوة إلى الله على الصعيد العالمى ، فيما وراء الأرض الإسلامية ، وكان المطلوب من إثارة أو استنفار الحاسة الجغرافية ، أن يجنى المسلمون ثمرات نافعة ، من خلال الانفتاح على الأرض وعلى الناس فى كل مكان ، وكان المطلوب أيضاً أن تظهر الصفوة الممتازة من بين صفوف الرحالة والجغرافيين المسلمين ، وان تنكب هذه الصفوة على إحياء الفكر الجغرافى "الذى توقفت إبداعاته بعد اليونانيين" وأن نتولى الإضافة إليه وإثرائه بكل جديد ومبتكر لحساب الإنسان [١] .

وقد هدفت الدراسة إلى إبراز الرحلة إلى مكة المكرمة وأهميتها وإظهار مدى ثراء الفكر الجغرافى لدى الرحالين العرب خاصة تجاه مكة المكرمة .

---

[1] – صلاح الدين الشامى ، الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٩٩ ، ص ٢٠٣.

وقد ركزت الدراسة فى عدة نقاط مهمة ، ساهمت فى توضيح أهداف البحث وهى : إيضاح أثر الامتداد الإسلامى فى قارات العالم القديم على رواج الفكر الجغرافى بصفة عامة ، كذلك إظهار اهم العوامل التى جعلت مكة فى بؤرة الفكر عند الرحالين العرب والمسلمين على وجه الخصوص وجملة الرحالين على وجه العموم ، ثم إيضاح أهم الطرق التى توصل إلى مكة من الأرجاء المختلفة كالطريق العراقى ، والطريق المصرى ، والطريق اليمنى والطريق العُمانى ، والطريق الشامى ، بالإضافة إلى الطرق الأخرى المائية والبرية الموصلة بين مكة وأرجاء العالم القديم ، وكان من المهم لاكتمال الفكرة وتجميلها أن يشار فى إيضاح على النظرة الجغرافية لمكة المكرمة فى عيون الرحالين المسلمين ، من أمثال ابن جبير إذ أنه على الرغم من أن ابن جبير الذى قصد مكة من بلاد الأندلس ، إلا أنه أكثر الرحالين إقامة فى مكة ، وقد أمعن فيها النظر والملاحظة ، بل ومن أكثر الرحالين كتابة عنها فى دقة واضحة . وكذلك ابن بطوطة ورعيل من الرحالين الآخرين . كما لا يفوتنا التطرق إلى أثر الرحلة المكية على الحياة العلمية والاجتماعية لمكة المكرمة .

المؤلف

الفصل الأول

"فصل تمهيدى"

تمهيد :

انفتح العالم الإسلامى فأصبح دنيا فسيحة الأرجاء ، حتى أصبح يمتد نحو ١٤٠درجة طولية ، ابتداء من خط طول ١٢٠ شرق خط جرينتس ، الواقع شرقى إندونيسيا ، حتى خط طول ١٨غرب خط جرينتش حيث مصب نهر السنغال فى المحيط الأطلسى ، وهو يعد أقصى امتداد العالم الإسلامى فى الاتجاه الغربى ، كما يمتد هذا العالم بين نحو ٧٠ درجة عرضية : بداية من أعالى نهر الفولجا عند درجة عرض ٦٠ شمال خط الاستواء حتى درجة عرض ٦ جنوب خط الاستواء حيث جزيرة زنجبار على الساحل الإفريقى على المحيط الهندى .

وتلك مساحة هائلة ، أكبر مثلاً من مساحة كل القارة الإفريقية ، بل وأكبر من قارتى أوروبا وأمريكا الجنوبية مجتمعتين ، فهى تبلغ نحو اثنى عشر مليوناً من الأميال المربعة ، ولعلها تصل إلى نحو أربعة عشر مليوناً إذا أضفنا إليها المساحة التى تشغلها الأقليات المسلمة فى الدول غير المسلمة.

ومع هذا الاتساع الهائل كان من الضرورى أن ينمو الفكر الجغرافى ويزدهر ، فبدأ الفكر الجغرافى الإسلامى كعلم متلازماً مع التاريخ ، إذ كانا فى نظر العرب فرعان متلازمان من شجرة المعارف العامة التى كانت تسمى "الأدب" بصورة عامة ، فكما كان من الضرورة للعربى أن يعرف لغته ، نثرها ونظمها وشعرها وكتابها ، فكذلك كان لابد له أن يعرف أنساب العرب وأخبارهم وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الفتوحات وتواريخ الخلفاء والدول ، وكان لزاماً عليه أن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها والطرق إليها مع ما تيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم . ومن هنا كان من الصعب أن تفصل فى كثير من

الأحيان بين الجغرافى والمؤرخ والأديب فى عالم الفكر الإسلامى ، فلو تناولنا كتاباً أدبياً صرفاً كالبيان والتبيين للجاحظ مثلاً . ودرسناه دراسة دقيقة لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ، الأمر الذى يضع الأديب أبا عثمان عمرو بن بحر فى صفوف الجغرافيين والمؤرخين [٢] .

بعد ذلك أخذت الجغرافيا والفكر الجغرافى طريق الازدهار والمنهجة والتأليف ، فقد اتسعت الدولة الإسلامية وتنوعت بيئاتها وأعراقها وزادت الحاجة لمعرفة الكثير عن هذا العالم الشاسع ، عندئذ صدر التأليف فى الجغرافية عند المسلمين عن نزوع نحو المعرفة وتعدد الثقافات والثروات والدروب والمسالك والممالك الذى امتازت به أمم الإسلام فى عصر النهوض ، إذ انه مظهر من مظاهر الشعور بالعزة الذى يصاحب الأمم الصاعدة وازدهار العلم والمعرفة .

وفى ذلك يقول المقدسى فى مقدمة كتابه الشهير "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" : ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم ، فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه ، وانفرد بعض لم يذكروه إلا على الإحلال ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المغاور والبحار والبحيرات والأنهار .... وعلمت أنه باب لابد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه

---

[2] – ٣- للاستزادة أنظر : ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، القاهرة ، طبعة الساسى ، الجزء الأول ، ص ٢ وما يليها .

للصالحين والأخبار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء ، وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء [٣] .

ويقول ابن حوقل فى مقدمة "صورة الأرض" : "وكان مما حضنى على تأليفه وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه أننى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ، وتباينهم فى المذاهب والطرائق ... وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة المصفوفة ، فلم اقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب"[٤].

وساعد اتساع الدولة الإسلامية واحتكاكها بالشعوب والثقافات على وصول أراء الهنود والإيرانيين فى الفلك والجغرافيا إلى المسالكيين والجغرافيين من العرب ، فقد ترجم المسلمون كتابى السادهانتا "السند هند" و"أركاند" اللذين ألفهما براهما جوبتا حوالى ١٥٤هـ /٧٧١م ، وقام على ترجمته نفر من الهنود ورواد الفلك والجغرافيا المسلمين مثل إبراهيم بن حبيب الفزارى ويعقوب بن طارق وغيرهما ، وعن الهنود أخذ العرب المسلمون القول بالخط الذى يقسم القبة السماوية ويمر بموقع "أرين" أو العرين . ثم قسموا دائرة القبة بعد ذلك إلى ٣٦٠قسماً سمى كل قسم منها درجة ويمر بكل منها خط من خطوط الطول . وفى وقت لاحق

---

3 - شمس الدين ابو عبد الله المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٠٦ ، تحقيق / دى خويه ، الطبعة الثانية ، ص ١-٢ .

4 - للاستزادة أنظر : ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبى ، صورة الأرض ، تحقيق / ج . هـ . كرامرز ، لايدن ، الجزء الأول ، ص ٣ .

أخذ المسلمون العرب عن الإغريق من أمثال كلاوديوس وبطليموس السكندرى وترجموا لهم الكتب مثل كتاب المجسطى([5]) .

كما كان لاتساع العالم الإسلامى وتعدد فتوحاته كثرة الدروب والمسالك فكانت الرحلة التى تعد أهم جوانب الجغرافيا الإسلامية ، وقد سلك هذا الطريق الجغرافيون المسلمون بعد أن تأثر الكثير منهم بالأفكار اليونانية ، وظهر ما يعرف بالمسالكيين الجغرافيين ، إذ تعتمد أفكارهم واتجاهاتهم

---

5 – المجسطي : اشهر كتاب فى العصور الوسطى على الاطلاق اقترن اسمه بأسم مؤلفه كلوديوس بطليموس الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى . وصفه القفطي بقوله : وما اعلم أحدا بعده بطليموس تعرض لتاليف مثل كتابه المعروف بالمجسطي ولا تعاطى معارضته بل تناوله بعضهم بالشرح والتبيين. وقال أيضا:ولا يعرف كتاب ألف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم وأحاط باجزاء ذلك الفن غير ثلاثة كتب أحداها كتاب المجسطي هذا فى علم هيئة الفلك وحركات النجوم. وكان الكتاب مرجعا فلكيا عاما فى العالم العربى والإسلامى والأوروبى حتى عصر النهضة وقد اشبعوه ترجمات وتفسيرات وتعليقات وشروحا ونقودا ونقل الى اللغة العربية فى العصر العباسي أكثر من مرة. يحتوى هذا الكتاب على ثلاثة عشرة مقالة :محورها البرهان على مركزية الارض وثبوتها فى وسط الكون ودوران الأجرام حولها ويتحدث عن الكون ودوران الاجرام حولها ويتحدث عن الافلاك وميل فلك البروج وتعيين أوقات نزول الشمس فى نقطتى الاعتدال ونقطتى الإنقلاب وتعيين مقدار السنة الشمسية وحركات القمر والشمس وإجتماعهما وإستقبلاتهما وكسوفاتهما. ويتحدث أيضا عن الكواكب الثابتة (النجوم)ومواضعها فى الطول والعرض وفى حركات الكواكب السيارة (المتحيرة)وهناك موضوعات اخرى. انتهى أمر الكتاب بظهور نظرية مركزية الشمس التى فجرها كوبر نيكوس فى القرن السادس عشر. وصل الكتاب فى لغته الاصلية وفى عدة ترجمات عربية ومن الكتب المحررة عن المجسطي كتاب (تحرير المجسطي) لنصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢ هجرية وهو فى الحقيقة إعادة كتابة المجسطي باللغة العربية ومنه نسخ خطية عديدة فى مكتبات العالم. عن : عبد الأمير مؤمن ، قاموس دار العلم الفلكي ، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين ، ٢٠٠٦.

على الرحلة والمشاهدة وسؤال أهل البلاد وتحقيق مايدلون به من معلومات ومقارنات بغيرها ودراسة الكتب السابقة ومراجعتها [٦].

ويعتبر من رواد هذا الفكر الجغرافى القائم على الرحلة والمشاهدة هو : احمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، المعروف باليعقوبى "توفى بعد ٢٧٨هـ / ٨٩١م" وهو الواضع أول تاريخ للعالم عند المسلمين ، قد بين فى فاتحة كتاب "البلدان" فقال : "إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى "بعلم أخبار البلدان" والمسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومقره ، وإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده وبلدته ما هى وزرعه ما هو ، وساكنيه من هم : عرب أم عجم ؟ ... شرب أهله حتى اسأل عن لباسهم ... وديانتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمترأسين فيه ... وما مسافة ذلك البلد ، وما يقرب منه من البلدان ... ثم اثبت كل ما يخبرنى به من ما أثق بصدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالم من الناس فى الموسم ، وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب . وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلداً بلداً ، وجند مصراً مصراً من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه وما يرتفع من أماله ، فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهراً طويلاً ، وأضيف

---

6 – حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، ص ٧-٨ .

كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته ..." (٧) .

وتعددت الرحلة عند المسلمين ؛ إذ فيهم الرسول الذى ترسله الدولة إلى ناحية من النواحى للكشف عن مسألة علمية مثل "سلاَّم" الذى أرسله الخليفة الواثق عام "٢٢٧هـ / ٨٤٢م – ٢٣٢هـ / ٨٤٧م" ليستطلع أمر سد يأجوج ومأجوج ، وفيهم صاحب البريد الذى يتولى نقل مراسلات الدولة ورسلها كأبى الفرج قدامة بن جعفر "المتوفى بعد سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م" ، فقد كتب موسوعة شاملة لكل ما يحتاج إليه كتاب الدولة من المعارف وأسماه "كتاب صناعة الكتابة" وفيهم المغامر فى رحلته كالمقدسى ، وفيهم السفير الذى يندبه الخليفة للسفارة إلى بلد غريب مثل احمد بن فضلان ، الذى أرسل إلى ملك البلغار فى حوض الفولجا ، وفيهم التاجر الذى قطع آلاف الأميال فى برار وقفار ومخاطر ثم يسجل ذكرياته ومشاهداته ، مثل سليمان التاجر "نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى" وقد وصف فى كتابه "سلسلة التواريخ" الرحلة بالبر إلى الصين والهند عن طريق فارس[8] ، وفيهم الرحالة الملاحين أمثال احمد بن ماجد وسليمان المهرى الذين تركوا كتاباتهم عن الملاحة وعلوم البحار .

ووسط هذه الظروف التى شهدت عنفوان الدولة الإسلامية ازدهر علم الجغرافيا كسائر العلوم الأخرى كعلم فن الخرائط التى أبدع فيها الجغرافيون المسلمون وتجلى هذا الفن فى خريطة الإدريسى كأول

---

7 – للاستزادة أنظر : احمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، كتاب البلدان ، تحقيق / ميخائيل يانوس دي خويه ، ليدن ، ١٨٦٠ ، ص ص ٢-٣ .

8 – حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٨-١١ .

خريطة حقيقية لصورة الأرض والتى جسدها فى هيئة كرة لتوحى للغرب بعد ذلك بكروية الأرض ، والتى كانت سبباً مباشراً فى حركة الكشوف الجغرافية ، التى أسفرت عن اكتشاف الأمريكتين وباقى العالم الجديد ومن ثم باقى أجزاء العالم قاطبة ، وساعد فى هذه الحركة التاريخية فن الملاحة الإسلامية التى وفرت الأدوات والأسفار المعينة على ذلك ، كما ترك المسلمون من الجغرافيين من أخبار الرحلات والمسالك ما وطد فيما بعد حركة الكشوف وتوكيدها فى كافة العالمين القديم والجديد معاً .

وجدير بالذكر أن الدولة الإسلامية قد بلغت أوج عزها ومنعتها فى قرون قليلة عقب ظهور الإسلام وهو زمن قصير نسبياً ، تغلبت فيه على دول ذات تاريخ وحضارة وامتد ملك المسلمين خلاله من أطراف الصين شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسى غرباً وجابت رحالوهم وعلماؤهم أبواب أوروبا تقريباً.

وسوف يزول العجب إذا عرفنا أن مرد ذلك كان لوحدة الأمة وتمسكها بما نشأت عليه من تربية إسلامية سامية تلك التى تحض على الجهاد والاجتهاد والاتحاد ونبذ الأحقاد وكبح هوى النفس والتضحية بكل نفيس وغال ، لرفع شأن كلمة الحق والدين والشرف ، وحين دبت الفرقة بين المسلمين تقطع ملكهم إلى دويلات وصاروا لقمة سائغة لأعدائهم .
وصدق الله تعالى حيث قال : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [٩] . وفى آية أخرى قال تعالى : {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ}[١٠].

---

[9] – سورة الأنبياء: ٩٢ .

[10] – سورة المؤمنون : ٥٢ .

وازدهرت الرحلة فى الإسلام بصورة واسعة وذلك للأسباب الآتية :

١- المساحة الشاسعة للدولة الإسلامية وعدم القدرة على تحقيق وحدة سياسة واحدة ، والتى امتدت حتى منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ولكن روابط الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع بين سكان الدولة الإسلامية ، فكانوا يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية إسلامية بعيدة الأطراف ، وقد كانت تلك الروابط قوية فى العصور الوسطى ، ولم تكن القوميات الإقليمية قد عظم شأنها بعد ، وكانت أنحاء هذا الملك الواسع الذى أسسه المسلمون تتطلب الدراسة والوصف ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة ، وتسهيلاً لمهمة الولاة فسافر القوم لدراسة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخراجها وما إلى ذلك ، مما لابد منه للتأليف فى علم تقويم البلدان ، وطبيعياً أن تكون الرحلات والأسفار من أول السبل لطلب العلم فى تلك العصور فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العلمية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات التى تزدحم بها خزانات الكتب الخاصة والعامة . وفضلاً عن ذلك فقد تعددت مراكز الثقافة فى ديار المسلمين وكان رجال العلم يتناقلون فى طلبه من إقليم إلى آخر ، يدرسون على مشاهير الأساتذة ، ويلتقون بأعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين ، والأطباء والفلاسفة والرياضيين[١١].

وتأكيداً لدور الرحلة فى التراث الجغرافى للعرب والمسلمين . يؤكد عبد الله محمد احمد المقدسى ، أحد أقطاب التراث الجغرافى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أهمية رحلاته فى أنحاء العالم الإسلامى من

---

11 - محمد زكى مبارك ، ذكريات باريس ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣١ ، ص ص ٦-٧ .

أجل المعاينة ، وجمع المادة العلمية التى سجلها فى كتابه الشهير (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) فيقول فى مقدمة كتابه : نحن لم نبق إقليماً إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وغيره . وما بقيت خزانة تلك إلا وقد لزمتها ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ولا مذكرو بلد وقد شهدتهم حتى لى ما ابتغيته فى هذا الباب [١٢] .

٢- كان الحج من أهم العوامل التى دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال ، فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوق إلى أدائها كافة الناس ، وليس علماؤهم أو فقهاؤهم فقط ، نتيجة ذلك اكتسبت رحلة الحج صفة تراثية شعبية ، كما أن العديد من الحكام والسلاطين قد أقاموا على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج ، وعهدوا إلى الجنود تأمين طريق الحج وحماية سالكيه ، كما ان النحجاج كانوا يتجمعون فى قوافل تبدأ صغيرة ثم تنمو كلما تقدم بها الطريق ، بما ينضم إليها من وفود ، حتى يصبح فى النهاية للعراق حجيجه ، وللشام حجيجه ، ولإفريقيا حجيجها ، وتسير القافلة فى ألفة ونظام وتعاطف شامل ، يحميها جنود الحكام ، ويرحب بها سكان المدن والقرى فى معظم

---

12 – شمس الدين أبو عبد الله المقدسى ، مرجع سبق ذكره ، المقدمة والجزء الأول .

الأحيان ، ويزداد الترحيب كلما زاد فى القافلة عدد العلماء ورجال الدين[١٣] .

٣- كانت التجارة عاملاً هاماً يقتضى القيام بالرحلة والسفر البعيد ، ومع أن تجارة المسلمين فى العصر الذهبى للدولة الإسلامية كانت قد بلغت شأناً لم تبلغه أى أمة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الأوروبية الحديثة ، إلا أن الاجتهاد العربى كان قد أفلح من زمن بعيد فى اختراق حاجز المسافة ناحية الشرق ، وفى انتظام الرحلة العربية الإسلامية فى المحيط الهندى[١٤] ، ولعل من أشهر الرحلات البحرية التجارية فى المحيط الهندى التى تمت خلال النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى هى رحلة التاجر سليمان السيرافى . ومن التجار الرحالة الذين جاءوا فى عصر لاحق نذكر منهم مثلاً ياقوت الحموى ، الذى كانت رحلاته للتجارة أساساً ، إلا أن مؤلفه الجغرافى (معجم البلدان) قد اكتسب شهرة كبيرة .

٤- التكليف من قبل الحكام ، إذ كانت هناك رحلات تكليفية بمهام رسمية كالتى بعثها الواثق بالله إلى حصون جبال القوقاز عام ٢٢٧هـ ، ويدخل فى باب التكليف بالرحلة للحاجة إلى المعلومات والبيانات للأغراض الاقتصادية أو الدينية أو العلمية ، مثل هذا النوع تقوم الدولة بتمويلها . غير هذا النوع من الرحلات كانت الرحلة الإسلامية بصفة عامة جهداً ذاتياً واجتهاداً شخصياً خالصاً [١٥].

---

13 – محمد محمود الصياد ، رحلة ابن بطوطة ، مجلة تراث الإنسانية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، المجلد الثالث ، مقال ابن بطوطة .

14 – صلاح الدين الشامى ، الرحلة العربية فى المحيط الهندى ودورها فى خدمة المعرفة الجغرافية ، الكويت ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث عشر ، العدد الرابع ، ١٩٨٣ ، ص ص ١٠٠-١٠٦ .

15 – صلاح الدين الشامى ، الإسلام والفكر الجغرافى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ .

٥- التقدير البالغ للرحالة فى كافة أمـصار العـالم الإسـلامى ، إذ أن الرحالة المسلمين قد ركزوا أسفارهم داخل نطاق العالم الإسلامى واسـع الأرجاء ، والممتد من المغرب العربى والأندلس إلـى أقـصى الـشرق والهند وحتى الصين وقد كانت الرحلة خارج هذا النطاق محدودة وغيـر واردة على نطاق واسع ، وقد سهل الاتصال البرى الانتقال فـى ربـوع البلاد شرقاً وغرباً ، علاوة على توفير الكثير مـن التـسهيلات لإيـواء المسافرين جنباً إلى جنب ، وإلى ماحظى به الرحالة أيـضاً مـن كـرم وضيافة العلماء والحكام الوافدين إليهم ، ولولا ذلك لربما تعـزر علـى الرحالة أبن بطوطة مثلاً أن يقطع آلاف الأميال متنقلاً فى ربوع الـبلاد مقيماً سنوات فى بعضها أو زائراً للبعض الآخر لمدة قصيرة . فقطع ابن بطوطة هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ، ووجد فى كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم له الطعام ، لا على سبيل التكرم والتفضل ، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمـة ، وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة : ذلك هو نظـام الزوايـا والمدارس والرُبط (جمع رباط) وهى دور ضيافة ينشئها رجال الطـرق الصوفية أو بعض أهل الخير أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخـاص ، وقد تنشئها الجماعة نفسها ، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها من أموال تجمع لهذا الغرض (١٦) .

---

16 – ابن بطوطة (أبو عبد الله) : رحلة ابن بطوطة ، تقديم / كرم البستانى ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٠.

العوامل التى جعلت مكة فى بؤرة الفكر للرحالين :

كانت مكة دائماً فى فكر الرحالين والجغرافيين المسلمين والعرب بل وغير المسلمين ، وكانت الرحلة إليها مطلباً ومراداً على طول الدوام ، وقد ساعد على ذلك عدة عوامل وتنحصر أهم هذه العوامل فى الآتى :

أ- اختصاص مكة المكرمة بقدسية ربانية لا تتوفر لغيرها في أى بقعة من بقاع الأرض :

فقد كان العرب فى مختلف عصورهم قبل الإسلام يقدسون مكة ، حيث بيت الله الحرام ، فيقومون بتأدية العبادات الدينية الممعنة فى القدم على صورة تناسب فطرتهم وتتمشى فى ذات الوقت مع جاهليتهم [١١] . وذلك كما يلى :

* كانت في شبه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام عدد من المدن المستقلة التي كانت في كل منها تنظيمات خاصة ومن أشهر هذه المدن مكة ، ومكة لها اهمية كبيرة في تاريخ العرب والإسلام ، إذ أنها كانت من اكبر المراكز الدينية في الجزيرة يؤمها عدد كبير من العرب من مختلف ارجاء الجزيرة للحج وزيارة الكعبة كما كانت مركزاً تجارياً كبيراً وقد أسهم أهلها في التجارة وهذا مما ساعد أهلها على الاطلاع على أحوال البلاد الاخرى ووسع أفق نظرهم كما أدى الى ظهور مؤسسات أدارية فيها.

* تدعمت أهمية مكة بفضل وجود الكعبة فيها وهي بيت الله الحرام الذي ورد ذكره في عدة ايات قرآنية فقال تعالى (أن اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه ايات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان امناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً)[١٧].

---

17 - سورة آل عمران : ٩٦_٩٧ .

وتبين من آيات القرآن ان ابراهيم الخليل هو اول من اتخذ مقامه في مكة وهو الذي رفع قواعد البيت فصار ما حوله بلداً امناً ومركز يحج أليه الناس ، والواقع أن أعداد من العرب كانت سنوياً ترحل الى مكة للحج وزيارة بيت الله الحرام وبالنظر لمكانة الكعبة وأهميتها فقد عنى بها أهل مكة وأعاد بناءها قبيل البعثة النبوية ، وكانوا يشرفون على عمارة البيت كما عنى اهل مكة بأمر الحج فاعتبروا الاشهر التي يتم فيها الحج مقدسة ولا يجوز القتال فيها وذلك لكي يؤمّنوا مجيء الحجاج كما إنهم كانوا يوفرون الماء والطعام للحجاج ويشترطون على الحجاج ان يرتدوا ألبسة خاصة عند الحج وكان الحجاج يطوفون الكعبة ويقفون عند عرفة ويضحون عند منى ثم يحتفلون بعد إتمام الحج بحلق رؤوسهم وأخذ زينتهم.

* اهتم المكيّون بالتجارة وساهموا فيها وشجعهم على ذلك قدسية مكة وأقبال الناس عليها للحج وكذلك التداخل بين اليمن وبلاد الشام وفلسطين وكانت منذ أقدم الازمنة من المحطات الكبرى للقوافل وقد أزدادت اهمية مكة منذ القرن الخامس الميلادي عندما نشبت حروب حامية بين الساسانين والروم فتعرقل نقل سلع بلاد الصين والهند عن طريق العراق وأخذ الروم يجلبون تلك السلع عن طريق اليمن حيث كانت تنقل منها بدأً الى الشمال وتمر بمكة ومنها الى فلسطين والشام ولم يكتف اهل مكة بأن تكون مدينتهم محطة للقوافل بل كانوا يقومون بأنفسهم بالتجارة وقد ساهم معظم أهل مكة بالتجارة وشارك الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوافلها بتجارة أم المؤمنين (خديجة) ولم تكن تجارتهم محصورة بمنطقة واحدة بل امتدت الى عدة اقطار وبخاصة العراق والحبشة واليمن وبلاد الشام فالعراق كانت تجارتهم بصورة خاصة مع الحيرة التي ذهب اليها

عدد غير قليل من اهل مكة للتجارة كما كان المناذرة وهم ملوك الحيرة يرسلون قوافلهم التجارية لتحمل لهم المسك والمنسوجات الى الاسواق الرئيسية التي كانت في مكة وفي عكاظ وذي المجاز وهم سوقان قريبان من مكة كما مارسوا القوافل التجارية سكان ضاحية كربلاء الساكنين في قصر الاخيضر والقصور المحيطة به.

* تروي المصادر العربية ان السيادة في مكة كانت قديماً لقبيلة جدهم ثم انتزعها منهم خزاعة ثم انتزع قصي السيادة في مكة من خزاعة وجعلها لقريش وقد قسم قصي قريش الى عشائر و أوطنَ هذه العشائر في اطراف مكة وهي تسمى (قريش الظواهر) وأوطن بعضها الاخر في داخل مكة وهي التي تسمى (قريش البطاح) وأهمُّ بطون قريش البطاح هم: بنو عبد مناف - بنو عبد الدار - بنو زهرة - بنو تميم - بنو سهم - بنو مخزوم

وكانت هذه البطون تتولى ادارة مكة وتساهم في النشاط التجاري والاقتصادي وقد استوطن في مكة ايضاً بعض العرب من غير قريش لأغراض تجارية أو دينية وأصبح بعضهم حلفاء لأهل مكة كما كان فيها عدد من العبيد(١٨).

لقد ادى اجتماع الناس في مكة واستقرارهم فيها الى ايجاد تنظيمات سياسية لتنسيق ادارتها وتأمين مصالح أهلها فمثل اهل مكة يشتركون جميعاً في مناقشة القضاية الرئيسية التي تهم البلد كما كان لمكة سيد

---

18 - للاستزادة فى المعرفة الحج عند العرب قبل الإسلام ، أنظر : الزرقى ، أخبار مكة ، الجزء الأول ، ص ١٧٩ وما بعدها .

يشرف على سيد الامور العامة ولكل عشيرة ينظر في امورها شيخاً وهناك نادي أو مجلس تجري فيه المناقشات والمسامرات.

دار الندوة: كان في مكة دار الندوة يجتمع فيها الملأ وهم اولاً قصي وممثلون عن كل عشيرة ويجتمعون لبحث ومناقشة الامور المهمة كعقد المعاهدات وتجهيز القوافل والاعداد للحروب والاشتراك فيها غير إنه لم تكن في مكة سلطة عليها لتنفيذ القرارات وكان يترك لكل فرد حرية تطبيقها.

تنظيم الحج: مكة مركز دينياً يحج اليه عدد كبير من الناس فقد طلب ذلك تنظيم الحج وشأن فيها عدة وظائف لتنظيم امور الحج وادارة مكة وأهم هذه الوظائف هي:

١- الاجازة والافاضة القائم فيها مسؤول عن اجازة الحجيج في عرفة وأفاضتهم في منى أي تعيين مواعيدها.

٢- النسيء وهو تقرير أشهر الحرم وتنظيم مواعيد الحج.

الوظائف التي حددها قصي:١- الحجابة والقائم بها يمتلك مفاتيح الكعبة ويأذن للناس في دخولها.

٢- عمارة المسجد الحرام

٣- السقاية وهي توفير الماء للحجاج

٤- الرفادة وهي توفير الطعام للحجاج.

* كان النظام القبلي يسود في انحاء جزيرة العرب وإن اغلبية سكانها من القبائل تسيطر كل قبيلة منها على منطقة محددة.

نظام القبيلة: تتكون القبيلة من عدد من الافراد ويجمعهم نسب واحد ويعيشون سوية في موطنهم وترحا لهم ويشتركون في واجب القتال وفي دفع الدية وتختلف القبائل في عدد افرادها.

التكوين الاجتماعي للقبيلة: تتكون القبيلة من العرب الصلبية والحلفاء والعبيد فأما الصلبية فهم الافراد العرب الذين ينحدرون من الجد الاعلى للقبيلة مثل بني اسد ومطير وطي وشمر وكلب وبكر وتغلب وشيبان وغزة وعتيبة وحرب وربيعة وغيرها وكل فرد منهم يعتبر بشخصية وفرديته ومكانته في القبيلة وأما الحلفاء فهم افراد من القبائل اخرى يلجأون الى القبيلة ويصنعون انفسهم تحت تصرفها أما العبيد فهم مصدر للشراء أو أولاد أب عبد أو الدني أو القمار ولكن اغلبهم من أسرى الحروب(١٩).

وكان الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة ، ركن الإسلام الخامس ، الذى يعد فى ذاته من أقدم العبادات السماوية والتى عرفتها البشرية بعد أن دعا إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام فجاء فى قوله تعالى : {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ} (٢٠) ، وقد أسس إبراهيم الخليل عليه السلام الكعبة لتكون أول بيت وضع لعبادة الله تعالى فى الأرض (٢١) . بل وأسس عليه السلام أول بيت مبارك لغاية مقصودة ، وهى الترحال لمكة وبيت الله الحرام فقال تعالى : {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ} (٢٢) .

---

19 – شبكة النبأ المعلوماتية ، مكّة قبل الاسلام.. رؤية تاريخية عامة ، تحقيق: حسين كاظم العرادي ، نقلاً عن : – الاصفهاني: حمزة بن الحسن الاصفهاني– تاريخ سني ملوك الارض والانبياء + الموسوعة العربية التاريخية– الجزء الرابع الجزء الرابع الشيخ مهنا رباط المطيري.

20 – آل عمران : ٩٦ .

21 – تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، الجزء السابع ، ص ١٩ – ٢٦ .

22 – سورة الحج: ٢٧ .

وعندما جاء الإسلام وفرض شعيرة الحج على معتنقيه دخلت تلك الشعيرة الدينية التاريخ من أوسع أبوابه ، بل أصبحت عنصراً عظيم الأهمية من عناصر التاريخ الإسلامى . فشدت لها الرحال فقطعت لذلك المسافات الشاسعة المقفرة لتأدية تلك الفريضة الدينية تيمناً بسنن الأنبياء(٢٣).

ب- فاعلية مكة فى الربط بين عوالمها المحيطة :

ظهرت مكة كأبرز المدن بالحجاز بل وشبه الجزيرة العربية قاطبة حتى قبل الإسلام وعززت بعد ذلك بالإسلام وتميزت ببعض مظاهر الحضارة نتيجة أوضاعها الاقتصادية والسياسية ، حيث بيت الله الحرام ، وإشراف قبيلة قريش على الكعبة وحركة التجارة من خلال رحلتى الشتاء والصيف بين الشام واليمن (٢٤) . لتكون مكة على الدوام مقصداً للرحالة والتجارة على طول الدوام . ولتلعب مكة وطرقها دور الربط بين أقاليم العالم المحيطة بها . وقد عزز ذلك بآيات القرآن الكريم فقال تعالى : {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * } (٢٥) . وروى ابن بحيح عن مجاهد قال : لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف مِنّة منه على قريش . وقال الهروى وغيره : وكان أصحاب الإيلاف أربعة أخوة : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل بنو عبد مناف . فأما هاشم ؛ فإنه كان يؤلف ملك الشام ؛ أى أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به فى تجارته إلى الشام

---

23 ١٥- احمد عمر الزيلعى ، مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ - ٤٨٧هـ ، الرياض ، عمارة شئون المكتبات - جامعة الرياض ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ٨١ .

24 - محمد سالم إبراهيم مقلد ، الوطن العربى دراسة فى الواقع والمشكلات ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٢ ، ص ٨٤ .

25 - سورة قريش : (١ : ٣) .

. وأخوه عبد شمس كان يؤلف على الحبشة . والمطلب إلى اليمن . ونوفل إلى فارس . فكان هؤلاء الأخوة يسمون المجيرين . فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الأخوة ، فلا يتعرض لهم . قال الأزهرى : الإيلاف : شبه الإجارة بالخفارة يقال : آلف يؤلف : إذا أجار الحمائل بالخفارة . والحمائل : جمع حمولة قال : والتأويل : أن قريش كانوا سكان الحرم ، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع ، وكانوا يميرون فى الشتاء والصيف آمنين ، والناس يتخطفون من حولهم ، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله . فلا يتعرض الناس لهم [٢٦] .

وقد ساعد فى الارتحال لمكة المكرمة ازدهار تجارتها المرافقة للحجيج وطلاب العلم طوال تاريخها عبر العصور الإسلامية ، وقد ساعد على ذلك . موقع مكة الجغرافى الفريد على تخوم جبال السراة ، وعلى أطراف تهامة جعلها فى بيئة جغرافية مميزة ، وإمكانية توفر ماء الشرب فيها ، ولاسيما بعض المشاريع التى أجريت لها خلال العصور الإسلامية المختلفة – ونشاط سوقها التجارى ، وتوفر الميرة فيه جعلها ملتقى طرق القوافل البرية التى تجوب شبه الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً وشرقاً ، حيث يتوفر إلى جانب الماء الصالح ما تحتاجه القوافل من المؤن والأرزاق اللازمة لمواصلة الرحلة إلى الجهات التى تقصدها ، فضلاً عن تبادل تلك المتاجر مع تجارة مكة [٢٧] .

كما ساعد على الارتحال لمكة المكرمة قربها من البحر الأحمر ، وامتلاكها بعض الموانى التجارية على شاطئه الشرقى كجدة والسرين ، كما فى الشكل (١) .. أما عن جدة ، فقد كانت واجهة مكة البحرية ،

---

26 – تفسير القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء ١٩ – ٢٠ ، الآية .

27 – حاطوم ، يقظة القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨ .

وعتبتها على البحر ، وكانت المراكب تأمها من مصر واليمن وغيرها من البقاع ، فما تكاد تنتهى إلى جدة حتى تسير منها المتاجر مثل عمان واليمامة وعدن وصنعاء ودمشق والبصرة وبغداد والفسطاط والقلزم وعيذاب وغيرها (٢٨) . أما عن ميناء السرين ، فقد وصفها المقدسى بأنها معدن الحبوب والخيرات والتمور .. والعسل الكثير . وقد أسهمت السرين كجدة فى تجارة مكة فبالإضافة إلى خيرات السروات التى كانت تلقى طريقها عبر هذا الميناء إلى جدة ثم مكة ، كانت تجلب إلى السرين مختلف الحبوب من عثر وجودة ، وغيرها ، وكانت بالمدينة سوق نشط يقوم على تجارة واسعة محلية وخارجية ، وكان لها تجارة واسعة خاصة مع الحبشة ، وقد أسهم ميناء جدة إلى جانب السرين فى تمكين مكة من تجارة البر والبحر معاً مع الراحلين إليها والخارجين منها (٢٩).

ج- حضور مكة المستمر فى خاطر الجغرافيين والرحالين العرب والمسلمين :

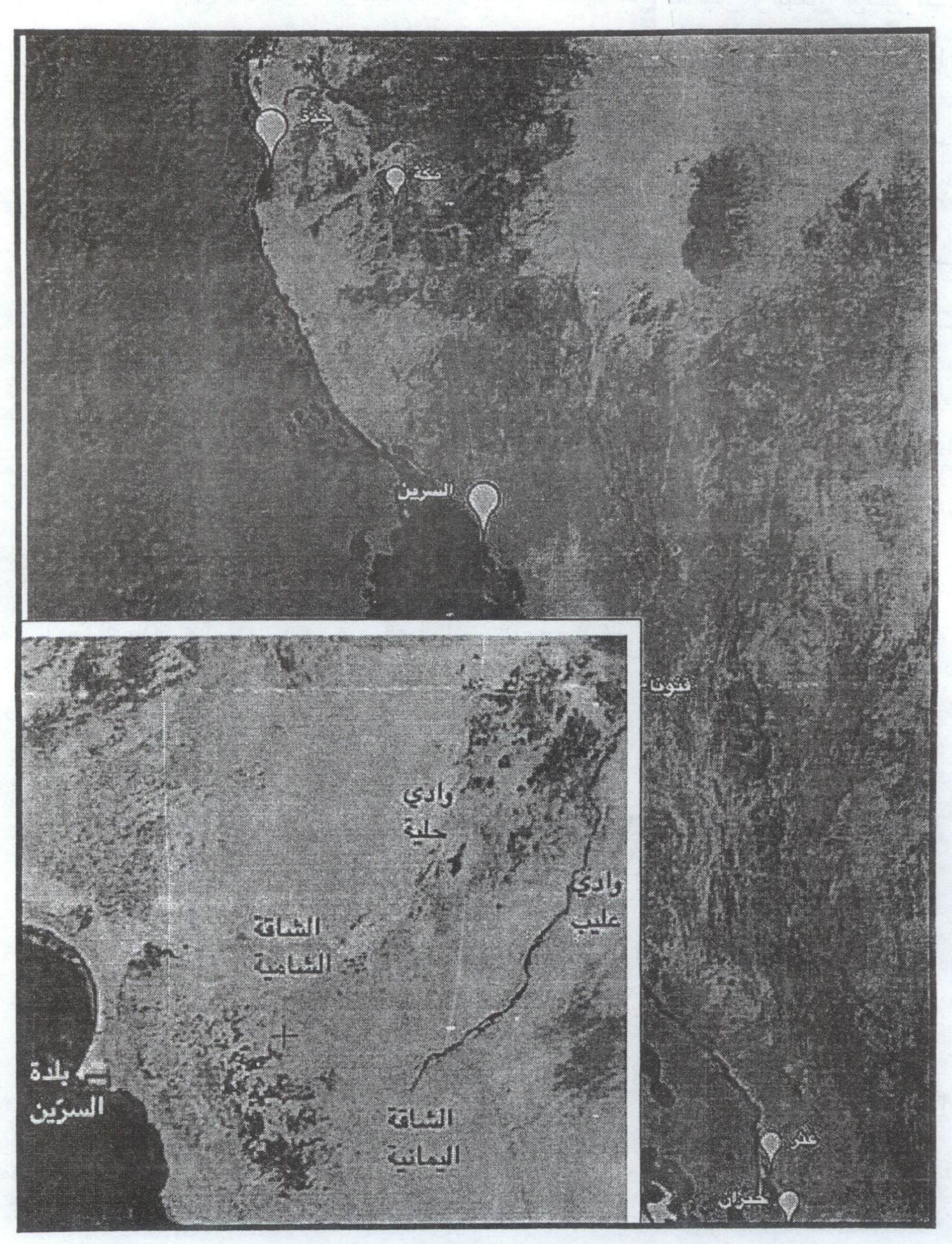
كانت مكة المكرمة دائماً فى فكر الرحالين والجغرافيين على الدوام ويتضح ذلك فى إنتاجهم الفكرى من خلال كتاباتهم وخرائطهم التى أخرجوها ، ويتمثل ذلك بوضع الجنوب بأعلى الخريطة عكس ما نراه اليوم من خرائط ، وهذه ظاهرة حاول العديد من الباحثين تفسيرها ، ففسرها البعض بان لهذا الأمر مغذى دينياً ، ذلك أن جميع العواصم الإسلامية فى ذلك الوقت تقريباً

...

---

28 – Geyd . W . Histoive Du Commerce Lavent Au Moyen Age . Leipzig , 1925 , I . pp . 24 – 26 .

29 – احمد عمر الزيلعى / مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٦ .



شكل (١) ميناء السرين القديم

كانت تقع شمال مكة المكرمة ، مثل المدينة المنورة ، والكوفة ، ودمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، ومعنى ذلك أن الخليفة كان يتجه فى صلاته صوب الجنوب ، أى صوب الكعبة ، لذلك كان لابد أن يوضع الاتجاه الجنوبى فى اعلى الخريطة ، لأن الاتجاه الجنوبى يعنى الاتجاه صوب القبلة ، وهى اشرف بقعة يتجه إليها المسلمون ، كما كان متبعاً من ذى قبل فى حالة الخرائط الرومانية فى العصر المسيحى ، حيث كان الشرق "Orient" فى أعلى الخريطة لأن الشرق بيت المقدس ، وما زالت كلمة "Orientation" التى تعنى توجيه الخرائط تشير إلى الأصل التى اشتقت منه وهو "Orient " يوم كان اتجاه الشرق فى أعلى الخريطة ، حيث الأماكن المقدسة المسيحية [٣٠] .

كما أبدع الرحالة فى رسم الخرائط الدينية التى تتوسطها مكة حيث الكعبة المشرفة ، والتى توضح اتجاه القبلة وطرق الحج ، وقد تجلت فى ذلك خريطة الصفاقصى كما هو موضح فى الشكل (٢) .

د- نظرة الإسلام المشجعة على الرحلة :

ينظر الإسلام إلى نشاط الرحلات والدعوة إليها نظرة تحفيز وتشجيع وتنشيط ، ويذكر صلاح الدين الشامى صاحب كتاب (الرحلة عين الجغرافيا المبصرة فى الميدان) أنه : لأن الإسلام دين حضارى متنور ، ودولة متفتحة ، ولأن التحضر أو التفتح يكفل التقدم ويؤمن حركة الحياة ويدعمها ويبشر بحياة أفضل ، فلقد أمسك المسلمون بزمام الرحلة وتحمسوا لها ، بل والتهب نشاط الرحلة الإسلامية فى إطار اهتمام رشيد مطمئن وتحولات تبشر بحياة أفضل وحصاد وفير.

---

30 -محمد محمود محمدين ، التراث الجغرافى الإسلامى ، الرياض ، دال العلوم ، ١٩٩٣ ، ص ٢٢٨ .


صورة البلاد الإسلامية
بالنسبة إلى مكة المكرمة
للصفاقسي ٩٥٨هـ - ١٥٥١م

شكل (٢)

وهكذا نالت الرحلة الإسلامية حقها الكامل من الاهتمام والأمان من ناحية ، واستحقاقها الفعال من قوة الدفع والحوافز على الطريق فى البر والبحر من ناحية أخرى ، ووصل نفر نشيط من المسلمين أصحاب الخبرة فى الرحلة أداء دورهم الوظيفى والخروج فى الرحلة لإنجاز المهام (المهارات) المنوطة بهم فى كل رحلة فى البر وفى البحر على حد سواء(٣١).

ويقول احد شيوخ الأزهر السابقين ، محمد الخضر حسين – التونسى الأصل – إن الإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقى إلا نبه عليها ، وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه فى الرحلة ، فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية منها : طلب العلم والتفقه فى الدين ، والمعرفة بأحوال الأمم الحاضرة(٣٢) .

وفى أسترشادة لأهمية الرحلة ، ودعوة الإسلام إليها بدأ الرحالة محمد السنوسى(٣٣) كتابه (الرحلة الحجازية) بما سماه (نموذج السفر) ، وأورد

---

31 – صلاح الدين الشامى ، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة ، فى الدراسة الميدانية ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ٩١ .

32 – محمد الخضر حسين ، الرحلات (جمعه وحققه / على الرضا التونسى) ، بيروت ، المطبعة التعاونية ، ١٩٦٧ ، ص ٨ .

33 – محمد السنوسي (١٢٦٧ – ١٣١٨ هـ = ١٨٥٠ – ١٩٠٠ م) هو : محمد بن عثمان بن محمد السنوسي، أبو عبد الله ، أديب، له اشتغال بالتاريخ، ونظم.مولده ووفاته بتونس. كان يحرر جريدة (الرائد التونسي) الرسمية.وعين حاكما في القسم الجنائي بمحكمة الوزارة بتونس، ومدرسا بالجامع الباشي فيها.له (مجمع الدواوين التونسية) جمع به دواوين الشعراء التونسيين المتأخرين، في عدة مجلدات، طبع أحدها وهو (ديوان محمود قبادو) و) مسامرة الظريف بحسن التعريف) وهو تاريخ لقضاة تونس وأئمة جامعها والمفتين، و (مطلع الدراري – ط) شرح به القانون العقاري، و (الرحلة الحجازية) في المكتبة الخلدونية بتونس (العدد ٣٣٤٦) و (الاستطلاعات الباريسية) رحلة إلى باريس. وزار بيروت فاجتمع بمؤلفي (دائرة

فيه من الآيات القرآنية الكريمة ما ينبه إلى فضيلة السفر والدعوة إليه . كتب يقول : لا يخفى أن الله جلت حكمته لم يجمع منافع الدنيا فى أرض واحدة ، بل فرق المنافع والجهات أحوج بعضها إلى بعض ، ولذلك كانت الأسفار مما تزيدنا علماً بقدرة الله وحكمته وتدعونا إلى شكر نعمته ، والمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب . وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تنبه على فضيلة السفر وتدعو إليها ، قال تعالى : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ } (٣٤) وقال تعالى {وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ} (٣٥) وقال تعالى {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (٣٦) وقال تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٣٧) وقال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ } (٣٨) وقال تعالى {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ

المعارف) البستانية، فطلبوا منه أن يكتب لهم تاريخ أمراء الدولة (الحسينية) بتونس، فأملاه، وأدرجوه بنصه. وهو والد (زين العابدين التونسي) صاحب كتاب (الأدب التونسي في القرن الرابع عشر).

[34] – سورة الملك: ١٥ .

[35] – سورة يـس : ٤١ .

[36] – سورة الإسراء: ٧٠.

[37] – سورة العنكبوت: ٢٠.

[38] – سورة آل عمران: ١٣٧.

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [٣٩] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة [٤٠] .

وقد عرفت البيئة العربية السفر ومارست الترحال فى شبه الجزيرة العربية والبلدان المتأخمة ، وقاموا برحلتى الشتاء إلى بلاد الشام والصيف إلى بلاد اليمن ، وأبحرت سفنهم قبيل مجيئ الإسلام فى مياه المحيط الهندى ، حيث اتجهوا شرقاً نحو المحيط الهندى وغرباً إلى جنوب إفريقيا ، كما أن رحلات العرب فى الجاهلية أدت إلى أن يعرفوا الطرق البحرية فى مناطق متعددة ، كما أنها نمت إلى ما نسميه اليوم بالتبادل التجارى للسلع ، وأدت إلى ظهور طبقة من الرأسماليين الذين كانوا ينمون أموالهم بهذه الرحلات [٤١] .

وتجدر الإشارة إلى أن الرحلات التكليفية كانت قد بدأت فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، إلا أنها كانت محدودة كرحلة تميم الدارى – وهو صحابى ولاه النبى (صلى الله عليه وسام) أرضاً قرب الخليل ، ورحلة عبادة بن الصامت التى قام بها بتكليف من أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) – قاصداً ملك الروم يدعوه للإسلام . ولم يترك أثراً لهاتين الرحلتين سوى بعض الأخبار عنهما فى كتب الأدب والتاريخ [٤٢]

.

---

39 – سورة الروم: ٩.

40 – محمد السنوسى ، الرحلة الحجازية ، تحقيق /على الشنوفى ، الشرة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦ ، ص ٤٥ .

41 – على محسن مال الله ، أدب الرحلات عند العرب فى المشرق : نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٧٨ ، ص ١٢ .

42 – محمد محمود محمدين ، التراث الجغرافى الإسلامى ، دار الطباعة للعلوم والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٥-١٧ .

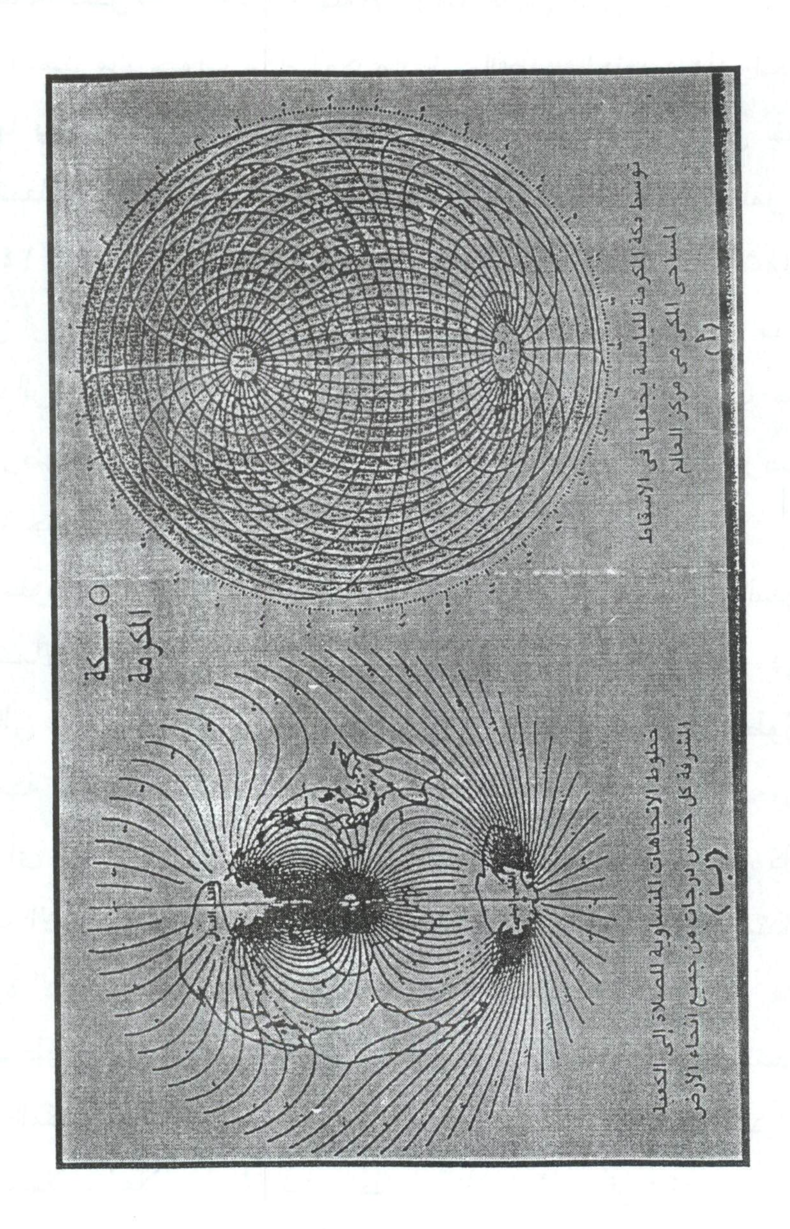
هـ- الاعتقاد عند الكثيرين من الرحالين الجغرافيين في مركزية مكة في الكون : اهتم علماء المسلمين بخطوط الطول نظراً لارتباطها بالتوقيت للصلاة ، وكانت نقطة الخلاف بينهم هى موقع خط الطول الرئيسى ، فقد اتفق البتانى وأبو الفدا مع بطليموس على أنه يمر بجزر كناريا "جزر الخالدات" بينما وضع جغرافيون آخرون مثل المسعودى هذا الخط بحيث يسير ما بين الساحل الشرقى لإفريقيا وجزيرة زنجبار على الساحل الشرقى الإفريقى والتى أطلقوا عليها اسم "قبة الأرض" .

والمثير فى هذا الأمر ، هو اختيار المسعودى ومشاركيه فى هذا الرأى خط الطول الرئيسى الذى يسير مع قبة الأرض هذا ، فهذا الخط يكاد يمر أيضاً بمكة المكرمة ، الأمر الذى يجعل خط طول مكة المكرمة هو خط الطول الرئيسى للكرة الأرضية وليس خط جرينتش ، وهذا ما أثبتته الدراسات الحديثة لمجتهدين مخلصين ، ففى محاولة جادة لتحديد الاتجاهات الدقيقة إلى القبلة "أى إلى الكعبة المشرفة" من المدن الرئيسية فى العالم باستخدام الحواسب لوحظ تمركز مكة المكرمة فى قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات أى أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً ، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزاً لليابسة كما فى شكل رقم (٣ "أ") [٤٣] .

---

43 - حسين كمال الدين ، إسقاط الكرة ألرضية بالنسبة لمكة المكرمة ، مجلة البحوث الإسلامية ، العدد الثانى ، المجلد الأول ، الرياض ، ١٣٩٥ / ١٣٩٦هـ - ١٩٧٥/١٩٧٦م ، صفحات مختلفة .

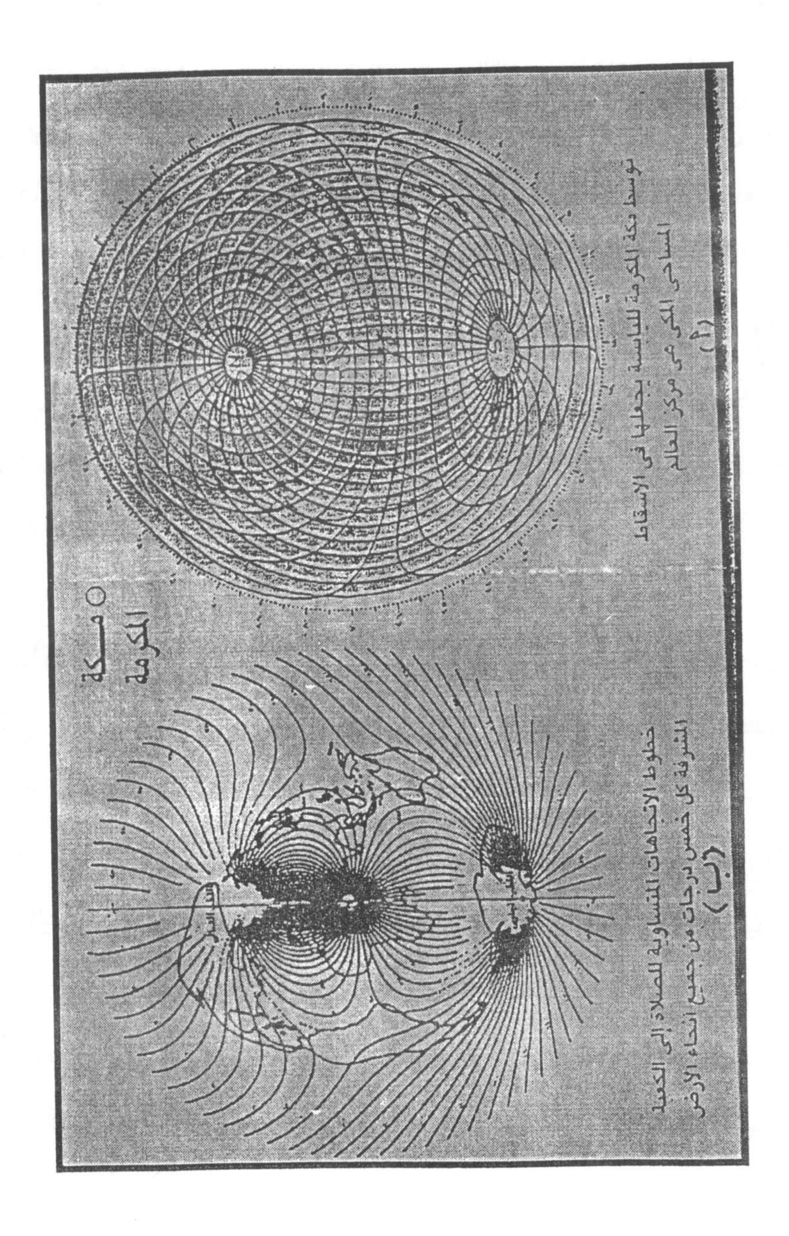
وقد أضاف البحث العلمى أن الأماكن التى تشترك مع مكة المكرمة فى نفس خط الطول "٣٩,٨١٧ شرقاً" تقع جميعها فى هذا الإسقاط على خط مستقيم وهو خط الشمال الجنوب الجغرافى المار بها أى أن المدن



التى تشترك مع مدينة مكة المكرمة فى خط طول يكون اتجاه الصلاة فيها إلى الشمال أو الجنوب الجغرافى تماماً ، والمدن التى تتجه فى الصلاة إلى الجنوب الجغرافى تبدأ من القطب الشمالى للأرض إلى خط عرض مكة المكرمة "٢١,٤٣٧ شمالاً" وأما المدن التى تقع على خط العرض الممتد من جنوب مكة المكرمة إلى القطب الجنوبى فإن اتجاه القبلة فيها يكون ناحية الشمال الجغرافى تماماً وكذلك الحال على خط الطول المقابل لخط طول مكة المكرمة ، وهو خط الطول المرقم "١٤٠,١٨٣ غرباً" فإن المدن الواقعة عليه تصح الصلاة فيها نحو الشمال الجغرافى أو الجنوب الجغرافى تماماً حسب موقع دائرة عرض كل منها بالنسبة لدائرة عرض مكة المكرمة ، فالمدن الواقعة إلى الجنوب من دائرة العرض المقابلة لدائرة عرض أم القرى ، أى من دائرة عرض "٢١,٤٣٧ جنوباً" إلى

القطب الجنوبى تتجه فى صلاتها إلى الجنوب الجغرافى تماماً ، والمدن الواقعة شمالاً من دائرة العرض ذلك إلى القطب الشمالى تتجه فى صلاتها إلى الشمال الجغرافى تماماً . أما المدن الواقعة على خط الطول المقابل لمكة المكرمة تماماً وعلى دائرة عرضها تماماً فإن الصلاة تجوز فيها نحو أى من الشمال أو الجنوب الجغرافيين تماماً . كما تجوز فى كل الاتجاهات الأخرى شرقاً وغرباً ، وذلك لوقوع تلك المدينة على امتداد قطر الكرة الأرضية المار بمكة المكرمة كما فى الشكل (٣ ب) ومن هنا يكون خط طول مكة المكرمة خط الأساس للكرة الأرضية ، أى بالنسبة إلى مكة المكرمة لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهلاً ، بدلاً من خط جرينتش الذى فرضته الهيمنة البريطانية على العالم فى العقود ألاخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى

وقد أضاف البحث العلمى أن الأماكن التى تشترك مع مكة المكرمة فى نفس خط الطول "٣٩,٨١٧ شرقاً" تقع جميعها فى هذا الإسقاط على خط مستقيم وهو خط الشمال الجنوب الجغرافى المار بها أى أن المدن



الفصل الثانى

"الترحال إلى مكة المكرمة عبر البحر الأحمر"

الرحلة إلى مكة :

ساعدت الأهمية الدينية والجغرافية على ازدهار الرحلة من كافة أنحـــاء العالم خلال العصور المختلفة ، وتنوعت الرحلة إلى مكة بحـــراً وبـــراً وتتمثل كما تحدث عنها الحالة والجغرافيين كما يلى :

الرحلات المكية عبر البحر الحمر :

البحر تعددت أسماؤه عند المـــؤرخين المـــسلمين لعـــل أهمهـــا بحـــر الحجاز(٤٥) ، ذلك الزراع الممتد بين العالمين الأسيوى والأفريقى . وكان

---

45 – البحر الأحمر هي ترجمة مباشرة للكلمة اليونانية إريثرا ثالاسا – Ερυθρ□ Θάλασσα واللاتينية مير روبروم – Mare Rubrum (بدلاً من الكلمة سينوس ارابيكوس Arabicus Sinus، التي تعني حرفياً "الخليج العربي") وعند العرب قديماً (بحر القلزم)، والصومالية بدّا عَس – Badda Cas وقد تكون تسمية البحر مأخوذة من خرائط البرتغلية نظراً إلى خطر الدخول به– erythraeum Trichodesmium – الموسمية الحمراء اللون القريبة من سطح الماء. وهناك فرضية أخرى هي أن الاسم قد أتي من قبيلة حمير التي كانت تقطن في اليمن. وأيضاً أيد بعض العلماء العصريين نظرية أن الأحمر هو اسم يشير إلى اتجاه الجنوب، كما البحر الأسود قد يشير إلى الشمال. وعلى أساس هذه النظرية بعض اللغات الآسيوية تستخدم أسماء الألوان للإشارة إلى الاتجاهات السماوية. وقد كان هيرودوت في المناسبة الواحدة يستخدم كلمة البحر الأحمر وبحر الجنوب بشكل متبادل. ونظرية أخرى للتسمية لأن حدود البحر الأحمر على الصحراء المصرية، والتي كان القدماء المصريين يسمونها Dashret أو "الأرض الحمراء" قد ارتبط البحر الأحمر مع الكتاب المقدس عند عبور الإسرائيليين له قديماً في عهد موسى، وقد وضحت في ترجمة السبعونية في سفر الخروج من العبرية إلى الكوينه اليونانية في القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً في هذا الإصدار، وقد ترجمت (يام صوف – ים סוף – العبرية) لـــ(إرثرا ثالاسا – أي البحر الأحمر). والبحر الأحمر أحد الأربعة بحار المسماة باللغة الإنكليزية بعد توحيد أسماء الألوان—والأخرى التي في البحر الأسود، البحر الأبيض والبحر الأصفر. وتشير كلمة (Erythra thalassa – إرثرا ثالاسا) اليونانية وبالاتينية (Erythraeum Mare – مير إرثريوم)en() وهي تشير إلى الجزء الشمال الغربي من المحيط الهندي، وكذلك إلى منطقة على سطح المريخ.

التجار والبحارة من العرب والمسلمين فيما بعد على دراية بطبيعة البحر الأحمر ، الذى كان خاضعاً لهبوب الرياح الموسمية الجنوبيـة ولريـاح البحر المتوسط الشمالية ، وقد ذكر ابن ماجد أن خير أوقات الخروج من باب المندب وعدن هو اول مايو من كل عام . حيث الريـاح الموسـمية الجنوبية(٤٦) .

وللبحر الأحمر شهرة سيئة لدى العرب القدماء ، بسبب ما كان يكتنفه من شعاب صخرية وحواجز مرجانية ، ومـا يحـدث فيـه مـن الزوابـع والاعاصير وخاصة فى الجزء الشمالى منه ، كما كان العرب يخـشون الملاحة عند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة سيناء بسبب اصطفاق الرياح القادمة من شعبتيه الشماليتين ، لا سيما بالقرب من جزائر تيـران عنـد مدخل خليج العقبة ، وعند مدخل خليج السويس ، ولهذا ظلت الملاحة فى هذا البحر محفوفه بالمخاطر ، وكان التجار يلجئون للملاحة فيه نهـارا فقط ، حيث تسير السفن بقرب سواحله فإذا جن الليل أرست فى مواقـع معروفة منزوية بين الحواجز المرجانية ، إلى جانـب هـذه المخـاطر الطبيعية فقد هددت الرحلة عبر البحر الأحمر القراصنة الـذين مـلأوا البحر طوال العصور الوسطى (٤٧) . وقد خدم الرحالة إلى مكة المـوانى الواقعة على البحر الأحمر ولعل أهم هذه الموانى على الإطـلاق ميـنـاء جدة وميناء السرين .

---

46 – أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٢٨٧هـ ، الجزء الثانى ، ص ٣٥ ، ٣٧ .

47 – عطية القوصى ، تجارة مصر فى البحر الأحمر حتى سقوط الدولة العباسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب القاهرة ، رقم ١١٤٩ ، ص ١٢ .

* فعن ميناء جدة : فهو الميناء الرسمى لمكة المكرمة منذ القدم وتقع إلى الغرب منها وتفصلهما مسافة أربعون ميلاً ، وكانت تستغرق مرحلتين بوسائل النقل المعهودة آنذاك.

يقال أن جدة قد بناها الفرس ، وتواضعت مكانتها ووصفت بانها كانت قبل الإسلام قرية صغيرة من قرى الحجاز وقد اتخذت جدة ثغراً لمكة سنة ٢٦ من الهجرة فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ويذكر أن الميناء الذى كانت تعتمد عليه مكة قبل ذلك هو الشعيبة[48] كما هو موضح بالشكل (١) وهو يمثل خور عظيم يقع إلى الجنوب من جدة عند مصب وادى يسمى وادى المحرم .

أخذت جدة فى الازدهار وأصبحت الميناء الرسمى لمكة المكرمة لقربها منها والأقرب من المناطق الجنوبية بشبه الجزيرة العربية خاصة ميناء عدن الذى يوصل جدة بموانى الهند ، ومن جهة ثانية قربها من موانى مصر كعيذاب وقوص اللذين ازدهرا فى العصر الفاطمى وأسهما بشدة فى التجارة الدولية آنذاك[49] .

فقد أسهم ميناء جدة فى التجارة الدولية بين مكة وجنوب شرق آسيا ، عن طريق ميناء عدن ، وعدن من الموانى القديمة ، ولكن ازدهارها

---

48 – ميناء الشعيبة: تشير الكتب والمصادر التاريخية انه قبيل ظهور الاسلام اضمحلت التجارة المنقولة بحراً بين موانئ الحجاز وموانئ البحر الاحمر الاخرى بسبب الظروف الاقتصادية المتدهورة آنذاك. ورغم ذلك كان سكان مكة والمدينة يستخدمون في بعض الاحيان، الموانئ القريبة منهم للتصدير والاستيراد فقد استخدم اهل مكة ميناء الشعيبة في تجارتهم مع شرق افريقيا وبخاصة الحبشة.

49 – على بن حسين السليمان ، النشاط التجارى فى الجزيرة العربية فى العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، رقم ١٣٣٥ ، ص ٩٧ .

بدأ فى عهد الأسرة الزيادية(٥٠) ، حين تحولت تجارة الشرق من الخليج العربى حيث
"طريق الخليج العربى فبلاد الرافدين ثم البحر الأحمر" فعادت ثانية حركة التجارة إلى البحر الحمر ، فقد كانت التجارة قبل ذلك مزدهرة فى البحر الأحمر فى صدر الإسلام وفى العصر الأموى ، وعندما قامت الخلافة العباسية ببغداد عمل العباسيون على تحويل التجارة إلى الخليج العربى فأصاب التجارة فى البحر الأحمر شئ من الركود ، وعندما شبت فتنة

---

[50] – الدولة الزيادية ٢٠٣ ــ ٤٠٢ هــ/ ٨١٨ ــ ١٠١١م تنسب هذه الدولة لمحمد بن عبد الله بن زياد الذي قدم إلى اليمن عاملاً للمأمون كما سبق، وأناط به تأديب العصاة من القبائل المتمردة، فأذعنت له معظم بلدان اليمن، واختط مدينة زبيد التي أصبحت عاصمة له ولأفراد أسرته من بعده .وقد بلغ عدد ملوك هذه الأسرة خمسة، آخرهم أبو الجيش ابن إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد. وفي عهد هذه الدولة قدم إلى اليمن الإمام الزيدي الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب واستقر في صعدة سنة ٢٨٤هــ /٨٩٧م، وبايعه اليمنيون في الشمال إماماً على اليمن. وقد استمرت الإمامة في أبنائه وأحفاده وذريتهم، وكان الأئمة الزيديون طوال مدة الإمامة في حالة حرب دائمة مع جميع الدويلات التي شهدتها الساحة اليمنية حتى زوال نظامها مطلع ستينيات القرن الماضي . وفي مدة الدولة الزيادية أيضاً تعرضت اليمن لما يعرف بفتنة علي بن الفضل القرمطي الذي قدم إلى اليمن مع منصور بن حسن الكوفي، وعمل الاثنان على نشر مذهب الباطنية، واستباحا العديد من مدن اليمن، غير أن هذه الفتنة انتهت بمقتل علي بن الفضل سنة ٣٠٣هــ/٩١٥م والمنصور سنة ٣٣١هــ/٩٤٢م. وقد امتد نفوذ هذه الدولة ليشمل تهامة وحضرموت حتى إن بعض المصادر أشارت إلى اتساع نطاقها إلى جبال عسير وبعض الحجاز. ومن مآثر بني زياد إنشاء مدينة المذيخرة في العدين ومدينة الكدرا في وادي سهام، ولهم في هذه المدن كثير من المآثر العمرانية كالمساجد التي لايزال بعض معالمها قائماً إلى اليوم. وبعد وفاة إسحاق بن إبراهيم تمزقت دولتهم، وقام على أنقاضها دولة بني نجاح على نحو ما سيرد .

الزنج(٥١) ، ثم القرامطة(٥٢) ، فيما بعد كسدت التجارة في الخليج العربي وتحولت إلى البحر الحمر (٥٣) . ومنذ ذلك الحين أصبحت عدن محط

---

51 – حركة الزنج: (٢٥٥ ــ ٢٧٠هـ/ ٨٦٩ ــ ٨٨٣م):يُشار إلى أن مدينة البصرة شهدت في منتصف القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ما عرف بـ"ثورة الزنج"، الذين ثاروا على المالكين وأسسوا حكومة لهم كان مقرها مدينة المختارة (جنوب البصرة) قبل أن تنهار حركتهم بعد أقل من عقدين، وذلك عندما جندت الدولة العباسية كل إمكاناتها، فكانت أطول ثورات العصر العباسي وأخطرها.

52 – بعد وفاة الامام جعفر الصادق الامام السادس للشيعة حدث انشقاق في الصف الشيعي فهناك من أعتبر إسماعيل بن جعفر هو الامام وعرفوا فيما بعد بالإسماعيلية وهناك من أعتبر موسى بن جعفر الامام السابع وهم يمثلون الأغلبية الساحقة للشيعة اليوم ويسمون بالاثنا عشرية لتمييزهم عن الإسماعيلية. بايع الإسماعيليون محمد بن إسماعيل أماما لهم ونتيجة لملاحقة الدولة العباسية له اضطر للخروج من الحجاز وأختفى لتبدأ حملة سرية وواسعة لنشر العقيدة الإسماعيلية وكانت الدعوة تجري باسم محمد بن إسماعيل الغائب والذي قيل انه هو المهدي المنتظر وعند عودته سوف تملأ الأرض عدلا. في عام ٨٧٣ م وحين كانت الدولة العباسية قد بدأت بالتفكك والضعف ظهرت أعداد كبيرة من الدعاة في اليمن والعراق وشرقي شبه الجزيرة العربية ، وأجزاء من بلاد فارس ينشرون المذهب الإسماعيلي مما أثار غضب الدولة العباسية وحسد الشيعة الاثنا العشرية لهذا الانتشار المفاجئ. وكانت الدعوة الإسماعيلة في العراق تقاد من قبل حمدان قرمط الذي تمكن من تحقيق نجاح كبير واجتذاب الكثير للدعوة الإسماعيلية في العراق.وقد بعث حمدان بابي سعيد الجنابي إلى البحرين لنشر الدعوة هناك لتنتشر هناك بشكل كبير.كما نتشرت الدعوة في اليمن والمغرب ووسط وشمال فارس. لقد مثلت الإسماعيلية في الفترة من منتصف القرن التاسع حتى عام ٨٩٩ م حركة موحده تدعو إلى محمد بن إسماعيل على انه امام غائب سيعود وكانت القيادة المركزية للدعوة تقيم في سلمية /سورية وكانت هوية القادة المركزيين سرية. في عام ٨٩٩م أعلن عبيد الله المهدي – الخليفة الفاطمي فيما بعد- بأنه امام وانه يتناسل من سلاله محمد بن إسماعيل والذي لم يكن المهدي المنتظر وانما اشاع الإسماعيليين ذلك خشية النيل من أبناءه وسلالته التي استمرت وهم (الوافي أحمد بن محمد بن إسماعيل ثم التقي محمد بن احمد المستور ثم الزكي عبد الله بن محمد) والذي لم يعلنوا انفسهم كائمة بشكل علني خشية بطش الدولة العباسية. وبالتالي اعلن عبيد الله المهدي انه الامام الحادي عشر للمسلمين وأمر جميع الدعاة في مختلف

رحال التجار ، وأهم موانى العالم بسبب ما كان يرد عليها من المراكب الواصلة من الحجاز والهند والصين والحبشة ، على أن تجارتها مع الهند والصين بلغت الذروة ، فقد كانت مستقبلة للسفن القادمة من الهند والصين وعن طريقها تتجه إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة [٥٤] .

كما أسهم ميناء جدة فى التجارة عبر الرحلات بين مكة المكرمة من جهة ومصر وأوروبا والشام من جهة أخرى ، فقد كان لموقع جدة المتوسط وقربها من مكة ، حيث تقوم سوق نشطة فى موسم الحج والاعتمار اكبر الأثر فى أن تقوم على تجارة عريضة فى الموانئ العالمية فى حوض البحر المتوسط ، كما يتضح من طرق التجارة فى شكل (٤) ، فقد كانت البضائع تجلب من الموانئ الأوروبية متجهة إلى الإسكندرية والفرما (بور سعيد حالياً) ، ثم منها إلى الحجاز ، وكانت الفرما حلقة اتصال بين موانئ البحر المتوسط والبحر الحمر (محطة لتجار أوروبا وسورية) وكانت البضائع تحمل منها على الجمال إلى القلزم ومنها إلى الجار[٥٥] وجدة وغيرها من موانئ الشرق [٥٦] .

الأمصار باعلان ذلك ونشر الدعوة باسمه الخاص بدلا من مهدية محمد بن إسماعيل. إلا أن الإسماعيلية في العراق والبحرين وخرسان رفضوا الاعتراف بامامة عبيد الله وكان على راسهم حمدان قرمط وواصلوا تمسكهم بأيمانهم الأصلي بشأن مهدية محمد بن أسماعيل ليقيموا سنة ٨٩٩ م دولة في البحرين ويعلنوا عن قطع علاقتهم بعبيد الله فعرفوا فيما بعد ***بالقرامطة***. عن : خالد السعدون، مختصر التاريخ سياسي للخليج العربي من أقدم حضاراته حتى سنة ١٩٧١. جداول للنشر والتوزيع. ٢٠١٢، ص ٥٦ – ٦١.

[53] عطية القوصى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٤ .

[54] – احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨١ .

[55] – اهل المدينة كانوا يستخدمون ميناء الجار الذي كان يقع بالقرب من ميناء ينبع وهو ميناء المدينة المنورة منذ صدر الاسلام، ويقع الى الشمال من بلدة الرايس. وتتكون آثار الجار من مجموعة كبيرة من التلال يحيط بها من ثلاث جهات سور بني من الحجر الجيري وتحتوي

واستطاعت جدة أن تجذب التجارة الأندلسية والأوروبية وتجارة شمال إفريقيا ، إذ إن التجار القادمين من المغرب والأندلس اعتادوا بيع متاجرهم من الحرير والنحاس وغير ذلك من منسوجات بلادهم ، فى المدن الشامية والمصرية ، ولكن إذا حدث ولم يصادف هؤلاء التجار نجاحات تجارية لبضائعهم اتجهوا بمتاجرهم إلى ميناء جدة حيث يجدون سوقاً لتجارتهم فى جدة ومكة .

وقد وصف المقدسي جدة في القرن الرابع الهجري بأنها مدينة على البحر محصنة عامرة آهلة. أما في عهد ناصر خسرو الذي وفد إليها حاجاً في منتصف القرن الخامس الهجري فقد كانت كثيرة الخيرات، مزدهر بالتجارة، باسقة العمران. ووصف أسواقها بأنها نظيفة وجيدة، وقدر عدد سكانها بنحو خمسة آلاف نسمة (٥٧) ، وفي القرن السادس وصف الرحالة ابن جبير جدة بأن أهلها يعيشون في شظف من العيش، فبعد التجارة المزدهرة والنعيم المقيم رضوا بأن يستخدموا أنفسهم في كل مهنة لتحصيل لقمة العيش. وكان ذلك أمراً طبيعياً للحالة العامة التي يعيشها العالم الإسلامي في ظل الحروب الصليبية، واضطراب الحكم بين السلاجقة والأيوبيين. وبعد قرن من الزمان تقريباً يخبرنا مؤرخ عربي آخر وهو ابن المجاور بأن شيئاً من الازدهار قد صادف جدة في عهده. وفي العصر المملوكي بسط المماليك نفوذهم على جدة لتأمين طرق

هذه التلال على بقايا مدينة الجار. كما يمكن تمييز ارصفة الميناء التي يمتد بعضها الى داخل البحر، وفي مكان غير بعيد عن هذا الميناء هناك ميناء آخر يطلق عليه اسم ميناء رابغ ويقع على بعد ١٦٠ كيلاً شمال جدة.

56- Goitein , Jewsand Arabs , newyouk , 1955 , P 150 , Amed , soc . I . 214 .

57 – ناصر خسرو قبادىانى (١٠٠٤ – ١٠٨٨ م) ، سفر نامة ، مكتبة المصطفى الإلكترونية .

التجارة والحج، وحماية الحرمين، وعين السلطان المملوكي حاكماً عاماً لجدة أطلق عليه نائب جدة يطل مقر إقامته على الميناء ليشرف على حركته. ورغبة من السلاطين المماليك في تشجيع التجار على استخدام ميناء جدة اتخذوا إجراءات عدة، منها : تخفيض الرسوم الجمركية، ومنع تجار مصر والشام من النزول في ميناء عدن، ومضاعفة الرسوم الجمركية على التجار الذين يمرون على عدن قبل قدومهم إلى ميناء جدة. وفي القرن التاسع للهجرة داهم العالم الإسلامي خطر جديد وهو الغزو البرتغالي مما دفع السلطان المملوكي قنصوه الغوري إلى المبادرة بإقامة سور محصن على جدة زوده بالقلاع والأبراج والموانع المضادة للسفن الحربية، لكن الغزو المنتظر تأخر ثلث قرن من الزمان ؛ إذ تم بناء السور عام ٩١٥هـ وحصل الغزو عام ٩٤٨هـ في عهد العثمانين، حينما دفع البرتغاليون بحملتهم البحرية من الهند صوب جدة، ونجح السور في الدفاع عن جدة(٥٨).

<u>قوة العلاقة بين جدة والقلزم (السويس حالياً) :</u>

من أهم الموانئ المصرية ذات الصلة التجارية مع ميناء جدة والتى ازدهرت مع الفتح الإسلامى وأصبحت ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر ، وحينما فتح العرب مصر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب زادت الروابط بينها وبين الجزيرة العربية وثوقا ، وزادت أهمية البحر الأحمر ، وتوثقت العلاقات بين موانيه الشرقية والغربية . ولقد جذب اهتمام العرب فعملوا على استغلال هذا الموقع العالمى إلى اقصى حد ، لا سيما فيما يتعلق بطرق التجارة بين الشرق والغرب ، وغدا طريق البحر الأحمر أهم الطرق على الاطلاق ، بسبب قلة نفقاته ، وقلة

---

58 – عبد القدوس الأنصارى ، تاريخ مدينة جدة ، ١٩٨٢ ، ص ص ٧٧- ٨٨ .

صعوباته بالنسبة للطرق البرية . وتجلى اهتمام العرب بتجارة البحر الأحمر فى اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب بإعادة حفر القناة النيلية ، التى كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر سنة ٢٣ هـ (٦٤٣ م) ، والتى كانت تبدأ شمال مصر القديمة بقليل وتنتهي إلى قرب مدينة القلزم ، بغية تسهيل سير السفن بين البحر الأحمر والنيل .

وليس من شك أن هذه القناة قد أفادت تجارة البحر الأحمر كثيرا إذ تدفقت السفن منها إلى موانى الحجاز واليمن وعبرت باب المندب إلى الهند . على ان فكرة توصيل البحر الأحمر بالبحر المتوسط بواسطة قناة ، لإنعاش التجارة ، وتسهيل التبادل التجارى بين الشرق والغرب ، نبتت فى عقول العرب فى هذا العصر فيقال أن عمرو بن العاص فكر فى ذلك ، لولا معارضة الخليفة عمر ، ويذكر أن الخليفة هارون الرشيد فكر أيضا فى هذا المشروع ، لولا أن أثناه البعض ، وحذروه من إمكان توغل سفن الروم وتهديد الحجاز .وظلت تجارة البحر الأحمر عن طريق القلزم وبرزخ السويس منتعشة فى القرون الأولى للهجرة ، تشهد بذلك أقوال الرحالة والجغرافيين المعاصرين الذين ذكروا استمرار سفر التجار بين الشرق والغرب عن طريق البحر الأحمر ومصر جالبين معهم من الغرب الجلود والفراء والخز والديباج و والسيوف والخدم و الغلمان والجوارى من فرنسا ، حيث يصلون إلى الفرما ، ثم يحملون تجارتهم برا إلى القلزم ثم يركبون البحر الأحمر إلى الجار (ميناء) المدينة المنورة وجدة (ميناء) مكة المكرمة ، ثم يتابعون إبحارهم إلى الهند والصين ، ويعودون منها حاملين التوابل والمسك والكافور والعود ، ومن الفرما يركبون البحر المتوسط إما إلى القسطنطينية ، وإما إلى الغرب ، بصفة خاصة إلى فرنسا ، وكان هذا الطريق هو أكثر الطرق ارتيادا فى

هذه الفترة . لكن على الرغم من ذلك فقد ظل التجار والحجاج والمسافرين يتخذون بعض الطرق الأخرى بين النيل وموانى البحر الأحمر جنوبي القلزم ، لكن هذه الطرق البرية لم تحظ فى الحقيقة بالأهمية التي حظيت بها ابتداء من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، حين ازدهرت عيذاب من موانى البحر الأحمر وقوص من الموانى النيلية ، وحازتا شهرة فائقة بالنسبة لتجارة مصر والبحر الأحمر فى العصور الوسطى . ولم تكن هذه الطرق مهمله كلية فى تلك الفترة ، خاصة وان العلاقات بين مصر من ناحية وكل من اليمن والحبشة وأواسط أفريقيا من ناحية أخرى علاقات قديمة لعبت التجارة فيها دورا بارزا ، حيث كانت تجارة هذه الأقطار تنقل إلى مصر بطريق البحر الأحمر . كما أن هذه الطرق لم تكن مهملة أيضا، بسبب سهولة الملاحة فى الجزء الجنوني من البحر الأحمر عنها فى جزئه الشمالى . ولعب البحر الأحمر دورا هاما فى نقل الحجاج والبريد فى هذه الفترة أيضا ، نظرا لاهتمام الخلافة الإسلامية بتأمين سلامة الحجاج وعمارة الطرق التى يسلكونها وتوفير الراحة فيها .

وكان الحجاج يسيرون فى خليج أمير المؤمنين إلى القلزم ومنها يركبون البحر الأحمر إلى (الجار) ، أو يسيرون من القلزم إلى أيلة على طرف خليج العقبة مكان العقبة الحاليه ، حيث يواصلون السير إلى الحجاز . وعلى عهد الخلافة الفاطمية زاد الاهتمام بالطرق البرية الداخلية الواصلة بين النيل والبحر الأحمر ، لإنعاش تجارة مصر الخارجية ، فكان التجار والحجاج يقدون إلى موانى البحر الأحمر ، خاصة القصير وعيذاب وهذه الأخيرة كانت أهميتها آخذة فى الازدياد بعد تحول طرق التجارة إلى جنوب البحر الأحمر لاشتداد النزاع بين الفاطميين والسلاجقة ، فضلا

عن تعطل طريق أيلة على خليج العقبة بعد استيلاء الصليبيين على أيلـة ذاتها سنة ٥١٠هـ (١١١٦ م) .

وعلى الرغم من توالى اهمال خليج أمير المـؤمنين ، إلا أن الفـاطميين استأنفوا فتحه وتطهيره ، فغدا شريانا رئيسيا ، يصل النيل بالبحر الأحمر وبلاد العرب ، و ظلت مدينة القلزم مدينة تجارية هامة كما برزت مدينة سويس (السويس الحاليه) ، واخذت السفن تصل إلى القلزم حاملة تجارة الشرق ، من الحرير والقرفه والفلفل والبخور والنيلة وغيرها من منتجات الهند والحبشة واليمن ، كما ظلت سفن التجار وحجاج مـصر والغـرب تعبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة ، ثم تستأنف سيرها إلى موانى الهنـد والصين ، فتعود محملة بالمتاجر إلى القلزم وعيذاب ، التى مثلت الطريق الرئيسى للحجاج فى ذهابهم له وإيابهم لأكثر من مائتى عام مـن سـنة ٤٥٠ ب (١٠٥٨ م) إلى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١م) وظلت تجارة البحر الأحمر على عهد الدولة الأيوبية، تمثل عنصرا أساسيا ، وكان لابد مـن تأمين سلامة هذا البحر أمام السفن التجارية الإسلامية ، وحينمـا تجـرأ امير الكرك الصليبي ريجنالد شايتون (أرناط)([٥٩]) ، المعروف بعدائـه

---

[59] – أرناط أو رينالد من شايتون،(و يكتب أيضا رينالد Châtillon Renaud de بالفرنسية)، (١١٢٥ فرنسا – ٤ يونيو ١١٨٧ الجليل، فلسطين)، خدم أثناء الحملة الصليبية الثانية، وبقي فيها، وحكم إمارة انطاكية من ١١٥٣ – ١١٦٠. ثم بزواجه الثاني أصبح حاكما للأردن. ويعتبر أرناط شخصية مثيرة للجدل في حياته وبعد مماته. توجّه أرناط إلى الأرض المقدّسة، المسيحية، في ١١٤٧ ووضع نفسه أولا تحت إمرة الملك بالدوين الثالث في القدس وبعد ذلك تحت إمرة كونستانزا أميرة إنطاكية. وقد مات زوج كونستانزا في سنة ١١٤٩ ثم تزوجت أرناط في ١١٥٣، منجبا منها ابنته أغنس من شايتون Agnes de Châtillon، وبزواجه أصبح أمير إمارة انطاكية. رينالد كان شجاعا لكن عنيف؛ كان يعامل الأبرشية بوحشية لابتزاز المال. وبتحريض من الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس Manuel I

الشديد للإسلام والمسلمين ،وانزل مراكبه من ميناء أيلة إلى البحر الأحمر ، حيث قامت باعمال القرصنة ومهاجمة السفن التجارية الإسلامية وهددت بالاعتداء على الحرمين وقطع تجارة مصر مع الشرق الاقصى ، تلقى ارناط درسا قاسيا من البحرية المصرية التى دمرت كل سفنه بالبحر الأحمر وأعادت لهذا البحر هدوءه وسلامته .

وزادت أهمية البحر الأحمر بالنسبة للتجار والتجارة الدولية على عهد سلاطين المماليك ، بعد أن تعطلت طرق التجارة بين الشرق والغرب فى أعالى الفرات وشمال الشام و اسيا الصغرى و البحر الأسود وجنوب روسيا ، على أثر الغزو المغولى وسيطرة المغول على تلك الطرق ، كما قل اقبال السفن التجارية القادمة من الهند والصين والشرق الاقصى ، على دخول الخليج الفارسي بسبب كثرة أعمال القرصنة ، وأدى كل ذلك إلى تحول التجارة إلى البحر الأحمر[٦٠] .

<u>قوة العلاقة بين جدة وعيذاب :</u>

Comnenus، هاجم مملكة أرمينيا الصغرى (جنوب شرق الأناضول)، لكن بعد ذلك عقد اتفاق سلام مع ثوروس الثاني من سيلسيا وشاركه باجتياح جزيرة قبرص البيزنطية عام ١١٥٦. إلا أن مانويل انتقم في ١١٥٩ عندما أخضع أرناط كتابع له. بعد سنة أغار أرناط على سهل الفرات الأعلى فنهب قطعان الماشية والإبل والأفراس، فوقع في كمين نصبه له مجد الدين ابن الداية، فأرسل إلى حلب مع رجاله وسجن هناك في الفترة ما بين (١١٦٠ – ١١٧٦) في سوريا[1]. بعد السجن خرج ليجد أن زوجته توفت في عام ١١٦٣، تاركة الإمارة لبومند الثالث Bohemond III، ابن زوجها الأول. فقفل عائدا إلى القدس حيث قام الملك بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس في عام ١١٧٧، بتزويج رينالد من ستيفاني، أرملة لورد أوتره-جوردن (لورد منطقة شرق وجنوب البحر الميت)، هكذا أصبح أمير صحراء الكرك والشوبك.

60 – عطية القوصى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ .

لم يحظ أي طريق قديم من طرق الحج المصرية بمثل شهرة طريق عيذاب الذي كان يربط مدينة قوص التاريخية(بمحافظة قنا) وميناء عيذاب علي البحر الأحمر عبر الصحراء. وشهرة هذا الطريق لم تجعله في مرمي نظر مشاهير الرحالة أمثال ابن جبير وابن بطوطة أو المؤرخين كالمقريزي وياقوت الحموي والإدريسي وغيرهم بل أعظم مستشرقي العصور حتي عصرنا الحديث أمثال الفرنسي جان كلود جارسان، فتباري العشرات منهم في وصف كل شيء عن هذا الطريق الذي ظل في الصدارة أربعة قرون كاملة(من القرن الخامس حتي الثامن الهجري) والذي كان عاملا مؤثرا في إكساب مدينة قوص العريقة جزءا في غاية الأهمية من شهرتها العالمية آنذاك، ولم تتوقف شهرة الطريق عند الحج بل تجاوزته ليصبح طريق العلم إذ كان ملاذ المئات بل الآلاف من طلاب العلم والشعراء القادمين عبر البحار من جميع الأرجاء قاصدين قوص ، التي كانت تحتل مكانة الصدارة العلمية في قلب العالم الإسلامي فهي قلعة العلم وكعبة العلماء وكان لشهرة مدارسها الست عشرة فعل السحر لكل تواق للنهل من بحور جهابزتها، كما كانت من أشهر المراكز التجارية الجاذبة حتي للتجارة من بلاد الهند والشام والجزيرة العربية واليمن وغيرها.

ويصف المستشرق الفرنسي جان كلود جارسان عبر كتابه عن قوص ازدهار وانهيار حاضرة مصرية طريق عيذاب فيقول:- أهم مايبرز عيذاب هو أن كفالة تأمين هذا الطريق كان علي قمة المهام الموكل بها ولاة وحكام إقليم قوص من جانب السلطان، وكانت رحلة الحجاج تبدأ بتجمعهم بالمدينة التي كان بها فندق يتجمعون به يسمي خان السلطان شيده أشهر حكامه وهو الأمير مجد الدين اسماعيل بن اللمطي، وكذلك

فندق ابن العجمي بضاحية المنيا خارج المدينة، وكانت تنطلق القوافل من منطقة أو شارع الجمالة أو الجمالين نسبة للجمال التي تحمل الحجيج، ثم ينتقل الموكب إلي حاجر قوص ومنها إلي منطقة حجازة(والتي سميت بهذا الاسم نسبة للأراضي الحجازية والآن بها قبائل كثيرة تنتمي للأراضي الحجازية والجزيرة العربية) ومنها إلي قفط وضاربين في الصحراء وصولا لميناء عيذاب علي البحر الأحمر، ومنه بواسطة السفن للأراضي الحجازية، وكان لهذا الطريق أهميته الكبري علي الرغم من صعوبته إذ يسلكه الحجيج عبر الصحراء وصولا لعيذاب، وقد يتعرض الحجاج فيه لمخاطر كثيرة شأنه في ذلك شأن كافة الطرق الصحراوية المماثلة، وبالفعل رصد المؤرخون نهب قافلة كانت متجهة من قوص إلي عيذاب، وفي ذات زمان نهب القافلة وكأن الكوارث لاتأتي فرادي استولي القائد الفرنسي رينودي شاتو علي الحصون الأردنية بخليج العقبة ثم اتجه إلي جنوب البحر الأحمر(٥٧٨ هجرية) ووصل لميناء عيذاب وقام بنهبها وتمادي فأشعل النيران في ست عشرة سفينة به[٦١] .

وعن صعوبة الرحلة التي سلكها الرحالة ابن جبير في ذات التاريخ(٥٧٨ هجرية) وسجل أنها كانت مرعبة، وأكد أن اجتياز البحر من عيذاب إلي الحجاز لم يكن دون مخاطر، وتأكد ذلك بعد هذا التاريخ بعامين فقط بكارثة مروعة عندما غرقت أربع سفن جملة واحدة وأسفر الحادث عن وفاة ١٣٠٠ حاج، كما لم يذكر لنا أمرا يتعلق بالقرصنة أو الغزاة ومنهم الفرنسيون الذين لم يمض علي واقعة رينو دي شاتو سوي عامين فقط، ومن ناحية أخري ألمح جارسان أن الحاج كان لابد وأن يذعن لشروط

---

61 – جان- كلود جارسيان ، ازدهار وانهيار حاضرة مصرية (قوص) ، ١٩٦٥م ، ترجمة / بشير السباعى ، المركز القومى للترجمة ، القاهرة ، صفحات مختلفة .

أصحاب السفن، وهذا أمر طبيعي إذ أن الحجاج وبعد أن قطعوا تلك المسافات الطويلة في رحلة شاقة جدا عبر الصحراء ويموت منهم الكثير، ومن وصل لميناء عيذاب يشعر بالفعل أنه وصل للأراضي المقدسة بل وشارف علي أداء الفريضة فلابد وأن يستجيب لأي شروط لأصحاب السفن، كما ألمح أن أصحاب السفن قلما كانوا يحرصون علي أرواح المسافرين الأمر الذي جعله ودون شك سبب حوادث الغرق، وهذا تحليل قد يكون مقبولا في حدود ضيقة للغاية وهي أن كان ثمن تلك السفن أقل بكثير من العائد الذي يحصل عليه أصحاب السفن من نقل الحجاج في الرحلة الواحدة، أو أنهم دون قلوب حتي يلقوا بقاصدي بيت الله إلي التهلكة، وينتقل جارسان إلي الحديث عن القبيلة التي كانت تتحكم في إدارة الأماكن المقدسة بالأراضي الحجازية وتفرض سيطرتها عليه آنذاك، وقامت بتعيين موظفين مصريين بميناء عيذاب لفرض ضرائب علي الحجاج، ولهذا السبب طالب الناصر صلاح الدين الأيوبي عشائر الأشراف بالأراضي الحجازية بوقف ابتزاز الحجاج بإلغاء الضرائب المفروضة عليهم من جانب الموظفين المصريين بميناء عيذاب، ويذكر المؤرخ الشهير المقريزي أن هناك أمر صدر عام ٥٧٧ هجرية لخدمات قوص بالكف عن تحصيل الضرائب من الحجاج وكذلك عن سلع اليمن[٦٢] ، إلا أن ذلك لم يتم تنفيذه ويستشهد في ذلك بما تعرض له الرحالة الشهير ابن جبير شخصيا بخضوعه للاستجوابات والتفتيش من رجال الجمارك مما أثار غضبه وأعرب عن أمله في استعادة الطريق المباشر الذي يمر بالعقبة، ونصح بعدم استخدام طريق عيذاب واستبداله بطريق بغداد، وقد يري البعض أنه من الغريب أن تكون تلك العهود قد

---

62 – نفس المرجع السابق ، ص ٦٠ وما تلاها .

عرفت الجمارك وهي لم تتأثر بقرار صلاح الدين واستمر تحصيلها في جمارك الوادي بالمنيا وأخميم وقوص، ويفند جارسان غضب ابن جبير من اساءة موظفي الوادي وموظفي قوص خاصة بأنهم أساءوا إلي حد ما استغلال ضرورة مرور الحجاج والتجار بهم والمدينة تحيا علي عائد ذلك[٦٣] ، وعلي الرغم من أن عيذاب هو الطريق الذي تم به نقل جثماني نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٠ هجرية وعمه أسد الدين شريكوه عام ٥٨٣ هجرية من قوص لميناء عيذاب، إلا أن التاريخ يسجل للدولة الأيوبية أن وصولها لمصر كان السبب في القضاء علي أهمية هذا الطريق التاريخي، بل وانتهاء وضع أسهم اسهاما عظيما في ازدهار قوص، فهم من سمح للمسافرين القادمين من الغرب بأخذ طريق السويس العقبة القديم للحجاز واليمن بحجة تجنيبهم الطريق الصحراوي الشاق لعيذاب، وكأنه يجرد بهذا القرار قوص من أهم أدوارها الذي كانت تلعبه واكتسبت منه شعرتها العربية والإسلامية والإقليمية، ولم يتم ذلك بصورة قاطعة بل تدريجيا ولم يتخذ وضعه المؤثر سوي في عصر المماليك، ولم يهجر الطريق تماما بعد معاهدة ٥٨٨ هجرية، بل كانت هناك رحلات حج تتم عن طريق عيذاب ولعقود طويلة بعد هذا التاريخ وهذا ما يؤكده المقريزي في تسجله لعام٦٤٨ هجرية أي بعد أكثر من ثمانية عقود راصدا قافلة حج أحد الأمراء، وهذا تأكيد أن هناك أيضا قوافل حجاج من عامة الشعب والتجار كانت تستخدم نفس الطريق[٦٤] .

---

63 – نفس المرجع السابق ، ص ٧٠ وما تلاها .

64– إبراهيم شوكه ، ديار العرب من أنس المهج بلادريسى ، مجلة المجمع العراقى ، المجلد الحادى والعشرين ، ١٩٧١م ، ص ٦٠ .

وكأن ما حدث من تحول لبعض قوافل الحج عن عيذاب لموانئ الـــشمال لم يكن ليؤثر علي حالته إذ تأثر عدد الحجاج ولكن كان في المقابل طفرة هائلة في نوعية الحجاج والمارين عبره من التجار، بل أن التطور الهائل في تجارة الشرق الأقصي آن ذاك فتح مجالا جديدا ورائعا لرواج مدينة قوص وميناء عيذاب تحديدا، فاستعادا ما سجلوه من خسائر، ومن الجدير بالذكر هنا أن هذا الوضع الذي تم اكتسابه لعبت فيه الظروف الطارئـــة التي مرت بها المنطقة في هذا الوقت دورا أساسيا، فقد كان للذي اقترفه المغول من تدمير وتخريب ببلاد الرافدين ومـــن قـــبلهم الخوارزميـــون أكبرالأثر في الحد من التوجه لموانئ الشمال مما أعـــاد الـــسفن لمينـــاء عيذاب مرة أخري.

أهمية قوص وميناء عيذاب لا تقتصر علي دورهما كممـــرات للحجـــيج والتجارة، بل قلاع علم أيضا،كما كانت قـــوص إقلـــيم زراعـــي وتعـــد مستودعات للمنتجات الزراعية الغذائيـــة تـــزود الأراضـــي الحجازيـــة باحتياجاتها من القمح، وهذا كان بمثابة الخدمة الجليلة للسياسة المصرية بأرض الحجاز، وكانت الأقماح تجمع في قوص بكميات هائلة وترسـل عبر ميناء عيذاب بالسفن للموانئ الحجازية[٦٥].

* أما عن ميناء السرين : فهو ميناء قديم ، ذلك الميناء كان يخـــدم حالة مكة التجارية ، وكان بمثابة الميناء الداخلى لمكـــة المكرمـــة عـــن طريقه يتم تموين الشقة الجنوبية لإمارة مكة بالتجارة والأرزاق [٦٦] .

---

65 – راشد البراوى ، الرحلة الحجازية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨٩ .

66 – **احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٦ .**

يبدو ان ميناء السرين نشأ في القرن الثالث الهجري وبلغ ذروتـه فـي القرن الرابع والخامس ثم بدأ في الضعف عبر قرنين الى ان اضمحل مع القرن الثامن او التاسع ونامت السرين بعدها في زوايا التاريخ وجُهِلَت . ويبدو أن البلدة نسبت الى السرين أو الواديين (السر اسم مرادف للوادي ولازال بعض اهل السراة يسمون الوادي الضيق سر) نسبة الى واديـي حلية وعليب او الشاقتين (انظر الشكل (١)).

وأول نص لها ورد عند المقدسي في القرن الرابع ، حيث قال : وناحيـة عثر مدنها بيش، حلى، السرين....ثم وصف السرين بقوله: بلد صـغير، له حصن، الجامع فيه على باب البلد. مصنعة: وهو فرضة السـروات. السروات: معدن الحبوب والخيرات والتمور الردية والعسل الكثيـر، لا أدري هي مدن أم قرى لأني ما دخلتها. وتأخذ من مكة إلى يلملم مرحلة ثم إلى قرن مرحلة ثم إلى السرين مرحلة[٦٧].

وورد عنها فى كتاب منازل الحجاز للعـذري (ت ٤٧٨ هجـري) هـذا النص: طريق تهامة كثيرة المدن والخيرات والمخالف والرسائل المتصلة الا انه اكثر وباء وأحر هواء يسيرون من مكة نحو سبعة فراسـخ فـي حصى وبين الساحل جبال فينزلون على نخيل وبـساتين ثـم يرحلـون فيرتقون عقبة في الجبل فتفضي لانخفاض وحصى وأودية الـى منزلـة وآبار عذبة وآخر واراك ثم يسيرون في برية كالأولى نحو ثلاثة فراسخ الي يلملم من قرى مكة محرم الحجاج بها بناء وآبار وعيون ثم يسيرون في برية الى مدينة السرين عظيمة بسوق وجامع على البحر[٦٨] .

---

67 – أنظر فى ذلك : المقدسى ، مرجع سبق ذكره ، صفحات متفرقة .

68– جغرافية شبه جزيرة العرب، راجعه أحمد علي، الطبعة الثانية ، مكتبة النهضة الحديثة ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، مكة، ص ص١٢٩ـ١٣١.

ومن أهم النصوص قول مؤلف الروض المعطار[69]: سرين: مدينة عظيمة في طريق مكة من اليمن بمقربة من يلملم، وفيها أسواق ومسجد جامع، وسورها في البحر، وأكثر بنائها بالخشب والحشيش إلا المسجد الجامع فإنه مبني من المدر، والحمامات فيها من الحشيش والخشب، ولا يستعمل فيها وقود بل يسخن الماء خارجاً منها ويغتسل به داخلها، وماؤهم من السماء، وهي من عمل مكة، وفيها مزارع وشبه حظائر

---

69 – من تأليف عالم البلدان محمد بن عبد المنعم الحميري (ت. ٩٠٠ هـ / ١٤٩٥ م) ثمة خلاف يسير في اسمه بين تنكير كلمة «روض» أو تعريفها، وكذلك بين (خبر الأقطار) أو (أخبار الأقطار) أو (ذكر الأقطار) وتتفق المخطوطات التي اعتمدها إحسان عباس وليفي بروفنسال على أنه «الروض المعطار في خبر الأقطار». ولقد حرص الحميري على أن يجعل من كتابه معجماً جغرافياً تاريخياً قاصراً اهتمامه، غالباً على الأماكن المشهورة التي تتصل بها قصة أو حكمة طريفة وصولاً إلى الخبر العجيب أحياناً. وعلة اهتمامه بالأحداث التاريخية رغبته في تجاوز كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي ومع هذا فقد بقي ظل «نزهة المشتاق» واضحاً في كتابه. وقد رتب الحميري «روضه» على حروف المعجم حسب ترتيبها المشرقي، وساير الترتيب المغربي في داخل الحرف الواحد ومع حرصه الشديد على الإيجاز إلا أن اعتماده النقل بدلاً من التجربة الشخصية، جعلت قيمته لا تتعدى تكرار الموجود في المصادر السابقة عليه. ولكن بفقدان بعضها بقي (الروض) هو المعول عليه في بعض حوادث القرن السابع الهجري، إلى أن يتم العثور على بعض مصادره الأصلية. وجل الحوادث التي ذكرها الحميري في كتابه لا يتجاوز القرن السابع ما خلا حادثة واحدة في مادة (أيلة) تتجاوز المئة السابعة، إلى العاشرة. وفي ثبوت نسبتها إلى الحميري شك كبير، ولقد توفرت للكتاب طبعة علمية محققة قام بها إحسان عباس واستهلها بمقدمة تفصيلية عن المؤلف وعن الكتاب.

للمواشي، وأكثر زروعهم الذرة والسمسم، والميرة تجلب إليها من عثر وحردة وعثر منها على مسيرة عشرة أيام(٧٠).

بقيت السرين مزدهرة بل لعل قمة ازدهارها كان في القرن الخامس كما لمسنا من كثرة النضايب العائدة لذلك القرن . في القرن السادس يصفها الادريسي (ت ٥٦٠هجري) بقوله: وعلى الساحل مدينة السرين وبينها وبين حلي خمسة أيام في جهة الشمال والسرين حصن حصين حسن موضعه كثيرة مياهه ولواليه وجابيه شيء معلوم ورسم ملزوم على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن بالتجارات والمتاع والرقيق وجباياته المحصلة يصل نصفها إلى صاحب تهامة ونصفها الثاني يصل إلى الهاشمي بمكة وكذلك من السرين إلى ضنكان مرحلتان. ومن السرين إلى مرسى السقية(الشعيبة) ثلاث مراحل وهي قرية عامرة وبها مستراح للمراكب.ومنها إلى جدة على الساحل ثلاث مراحل(٧١) .

ثم ذكرها ياقوت في معجمه:سِرَين: بلفظ تثنية السر الذي هو الكتمان مجروراً أو منصوباً. بُلَيد قريب من مكة على ساحل البحر بينها وبين مكة أربعة أيام أو خمسة قرب جُدَة. ينسب إليها أبو هارون موسى بن محمد بن كثير السريني روى عن عبد الملك بن إبراهيم الجدي روى عنه الطبراني وغيره واستمرت السرين في حكم امراء مكة ميناءً ثانياً لها ويذكر المقريزي ان ملك اليمن سنة ٦١٩ هجري الملك المسعود يوسف

---

70 – محمد بن عبدالمنعم : الروض العطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، مكتبة لبنان، بيروت، ص١٦٣ــ١٦٤.

71 – الإدريسى(محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي) ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، سنة النشر: ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م ، م ٢ ، تاريخ إضافته: ٢١ / ١١ / ٢٠١٢ .

بن الكامل قدم من اليمن إلى مكة في ربيع الأول، وقد رحل عنها الشريف حسن بن قتادة، وقدم معه راجح بن قتادة إلى مكة...واستناب الملك المسعود بمكة الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول، ورتب معه ثلاثمائة فارس(٧٢) ...وولي الملك المسعود أيضاً راجح بن قتادة السرين وحلى ونصف المخلاف، وكانت السرين معروفة بهذا الاسم الى القرن الثامن فقد ذكر ابن فهد صاحب إتحاف الورى وقعة بين جيش المنصور ملك اليمن والعسكر المصري في الخريف ين بين مكة والسرين سنة ٧٤٦ وذكر ايضاً ان عجلان امير مكة أعطى اخويه مغامس ومبارك السرين ثم قال (اعني الموضع المعروف بالواديين). نلاحظ بداية استخدام الواديين بدل السرين ثم ان بلدة السرين هجرت ولا ندري متى تماماً ربما من القرن العاشر الهجري حيث زادت أهمية جدة وتحسنت وسائل الملاحة وبدأ ازدهار جدة ولعل هذا ساهم في هجر السرين التي تركت ونسي اسمها ولكن المنطقة تعرف بالواديين او الشاقتين اما بقايا البلدة فقد انهارت وأصبحت ركامات يسميها أهل المنطقة المصنعة(٧٣).

---

[72] أبو بكر ابن يعقوب بن عبدالله شهاب الدين البغدادي الحموي الرومي: معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ ــ ١٩٧٧م، ص ص ٢١٨ــ٢١٩.

[73] – النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد (ت:٨٨٥ هـ) ، اتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق ونسخ/ فهيم بن محمد شلتوت ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ، ج ٣ .

الفصل الثالث

"طريق الحج العراقى"

هو أول السلاطين اهتماماً بسلامة الحج وله عدة انجازات منها بناء القلاع وارسال الحاميات لحراسة الحج ثم استمر العثمانيون يقومون بعمل طيب في تسهيل درب الحج الشامي في عهدهم الذهبي ، ومع الوقت ضعفت الحكومة العثمانية وتزايد اهمال الولاة لواجباتهم فتم افساد كثير من المنجزات وخربت القلاع ونقص الجنود الحماة وتلاعب الباشوات بالصرر العائدة للقبائل ورد هؤلاء لضعف دينهم بنهب الحجيج فعاد كل هذا بالوبال على ضيوف الرحمن المساكين.

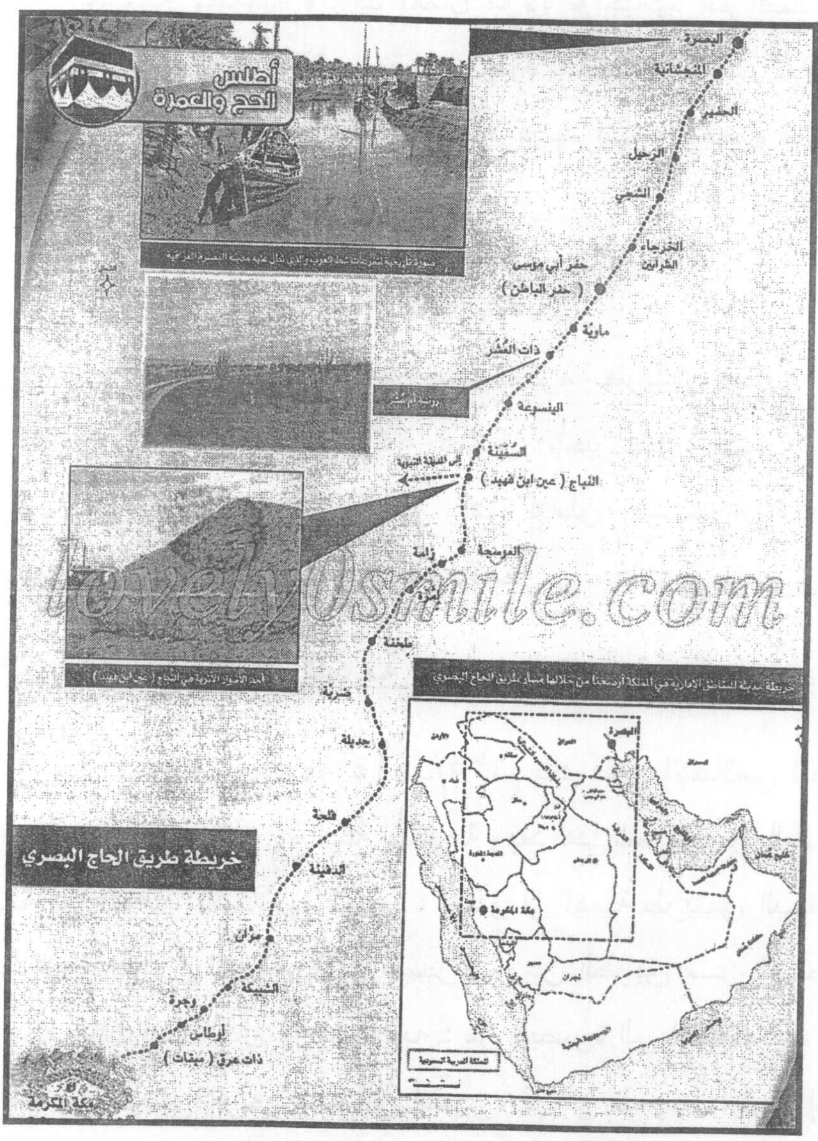
طريق الحج العراقي – مكة المكرمة :

كان للحجاج القادمين من العراق إلى مكة المكرمة طريقان : طريق يبدأ: من الكوفة، وآخر من البصرة، وكان الطريق الأخير يجتاز القسم الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة العربية عبر وادي الباطن وصحراء الدهناء والقصيم ليلتقي بعد ذلك مع طريق الكوفة مكة في ميقات (ذات عرق).

أولاً : طريق البصرة مكة المكرمة :

قد تأسست مدينة البصرة سنة ١٤هـ/٦٣٥م بعد الفتح الإسلامي للعراق وارتبطت بطريق مباشر مع مكة المكرمة ويعد هذا الطريق من الطرق المهمة في العصر الاسلامي المبكر ، ويبدو ان اهمية طريق البصرة تركزت في القرون الثلاثة الاولى للهجرة . وعن الطريق من البصرة إلى مكة شكل (٤) ، قال ابن خرداذبه : من البصرة إلى المنجشانية، ثم إلى الحُفَير، ثم إلى الرُّحَيل، ثم إلى الشَّجي، ثم إلى الخَرجاء، ثم إلى الحَفَر، ثم إلى ماويِّة، ثم إلى ذات العُشَر، ثم إلى اليَنسوعة، ثم إلى السُّميَنة، ثم إلى النِّباج، ثم إلى العوسجة، ثم إلى القريتين، ثم إلى رامة،

ثم إلى ضَرِيَّة، ثم إلى جديلة، ثم إلى فَلَجة، ثم إلى الدَّفينة، ثم إلى قُبّا، ثم إلى مَرّان، ثم إلى وَجرةَ، ثم إلى أوطاس، ثم إلى ذات عِرق، ثم إلى بستان بني عامر، ثم إلى مكة، فمن عدل من النبّاج فإلى النَّقرة(٧٥).



شكل (٤) طريق البصرة – مكة المكرمة .

---

75 – أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة (المتوفى: نحو ٢٨٠هـ) ، المسالك والممالك ، دار صادر أفست ليدن، بيروت ، ١٨٨٩ م ، ص ٨٠ وما تلاها .

ويلتقي طريق البصرة مع طريق الكوفة في ذات عرق ويلتقي الطريقان ايضا في معدن النقرة الذي يرتبط في هذه المحطة منطلقا من النباج.

ويلاحظ في كتابات الجغرافيين المسلمين قلة المعلومات التفصيلية عن طريق البصرة ولعل سبب ذلك ان معظمهم عاش في القرن الثالث الهجري وهي الفترة التي كان التركيز فيها على طريق الكوفة اكثر من طريق البصرة ، ومع ذلك لم يكن هذا الطريق بمنأى عن اهتمام الخلفاء المسلمين.

اما آثار الطريق فنشاهدها إلى اليوم في عدد من المواقع ففي الاسياج (عين ابن فهيد)[٧٦]، حبث توجد اطلال قصر كبير مبني بالحجارة وله بقايا عقود نصف دائرية وغرف الجلوس وبالقرب من اثار العيون والقنوات القديمة والبرك السدود وفي ضرية[٧٧] لا تزال اثار البلدة

[76] – الأسياح (النِّبَاج): زاد من شهرتها أنها كانت محطة هامة من محطات طريق الحاج البصري إلى مكة المكرمة، والمدينة النبوية؛ ومنها يفترق الطريقان الرئيسان إلى مكة، والمدينة، حيث كانت (النِّباج) ماء ترده القوافل، ثم اندثرت حتى ازدهرت مرة أخرى في عهد سلطان مارد، وبعد مقتل سلطان مارد اندثرت مرة ثالثة، حتى أعاد إحياءها (محمد الفهيد، من قبيلة عتيبة) في بداية القرن الثالث عشر الهجري، وتحديداً في العام ١٢٠١هـ؛ لذلك تسمى عين ابن فهيد، وهذه الصورة تمثل سد الأسياح، (النِّباج) التقطتها عام ١٤٢٥هـ، والذي كان الحاج البصري يتوقف عندها؛ للتزود بالمياه، وبعض الحوائج.

[77] – ضرية مدينة سعودية في منطقة القصيم الآن ، تقع على بعد ١٥٠ كيلو متر جنوبا من الرس ويبلغ عدد سكانها ٢٥،٠٠٠ نسمة وسميت ضرية بهذا الاسم نسبة إلى ضرية بنت ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، وفيها كان حمى ضرية الذي اختاره عمر بن الخطاب حمىً لإبل الدولة الإسلامية ثم صارت له شهرة أكثر لمرور طرق الحج عبره من العراق وهي مركز الخلافة إلى الحرمين الشريفين، قال حمد الجاسر : حمى ضرية ويسمى أيضاً حمى الشَّرَف، وهو أشرف الأحماء وأسيرها ذكراً، وكان حمى كليب بن ربيعة وبه كانت ترعى إبل

القديمة باقية لليوم بالإضافة للعيون والبرك وتشاهد اثار الاعلام (الرجوم) المتراكمة على امتداد الطريق خاصة في المناطق السهلية المستوية ويلاحظ ان بعض محطات الطريق استمر فيها او بالقرب منها الاستيطان الحضاري بسبب توفر المياه والمناطق الرعوية كما ان بعض المحطات اختفت معالمها تحت الكثبان الرملية.

ومن المحطات المهمة على طريق البصرة بركة الخرابة الواقعة عند التقاء الطريق مع طريق الكوفة بالقرب من ذات عرق وهي عبارة عن بركة دائرية مدرجة من اعلاها الى اسفلها وتجاورها بركة مربعة مدرجة ايضا بينهما على مستوى سطح الارض غرفة للمراقبة مقببة ولها ابواب ذات عقود نصف دائرية ويمر من تحت مستوى الغرفة قناتا تصريف للمياه من البركة المربعة (المصفاة) الى البركة الدائرية. وتصل المياه الى البركة بواسطة قناة أرضية مسقوفة تمتد من وادي العقيق لمسافة ١٥ كيلا تقريبا وبالقرب من هذه النقطة توجد بركة العقيق الواقعة في محطة غمرة المشهورة ، ولا نستبعد ان بركة الخرابة كانت تخدم المسافرين القادمين من البصرة والكوفة علي حد سواء. ويصل طول طريق البصرة مكة حوالي ١٢٠٠ كيلا ولا تزال بعض اسماء محطاته القديمة محتفظة باسمائها حتى يومنا هذا ومن هذه المواقع حفر ابي موسى في موضع

الملوك. ويقع هذا الحمى في كبد نجد غرب إقليم السر وجنوب القصيم وشمال العرض، يمر طريق الرياض – الحجاز (القديم) في طرفه الجنوبي بعد مجاوزة قرية القاعية التي تبعد عن بلدة الدوادمي ٩٥ كيلاً إلى قرب عفيف، ويخترق الطريق المتوجه من عفيف إلى القصيم وسطه.

حفر الباطن الان والعوسجة (الان العوسجية) وطخفة وضرية والسفينة[٧٨].

ثانياً : طريق الكوفة مكة المكرمة :

وهو ما أصطلح على تسميته بدرب زبيدة (زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد) فيبلغ طوله حوالي ١٤٠٠ كم، وهو يمر بمناطق مختلفة في طبيعتها متباينة في تضاريسها فتارة نراه مستوياً على أرض رملية أو طينية، وتارة آخرى منحوتاً وسط الصخور في المناطق الجبلية، ومره نراه موسعاً وخالياً من العوائق الخطرة في المناطق الوعرة. وطبقاً لما ورد عن علماء الجغرافيا المسلمين الأوائل فإنه يوجد على طول الطريق من الكوفة إلى مكة المكرمة حوالي أربع وخمسين محطة رئيسية، كما توجد محطات أخرى صغيرة فيما بينها. وكانت كافة المحطات الكبيرة منها والصغيرة على حد سواء مزودة بمصادر المياة حيث أمنت بشبكة على درجة كبيرة من الإتقان تتكون من : برك المياة وتشمل الخزانات والأحواض. والآبار على اختلاف أنواعها والقنوات. والسدود.

فقد كشفت لنا الأبحاث الأثرية التي تمت على هذا الطريق عما يقرب من خمسين بركة للمياه وهو تقريباً نفس العدد الذي ذكره علماء الجغرافيا المسلمون الأوائل، وقد وجد ما يزيد على اربعين من هذه البرك في داخل أراضي المملكة العربية السعودية وحدها، منها المستديرة، والمستطيلة، وكذلك المربعة. وطريق الكوفة مكة لا يستبعد ان يكون معروفا قبل العصر الاسلامي ، حيث كانت الحيرة عاصمة المناذرة بالقرب من

---

78 – عبد العزبز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص ١٥٢ وما يليها .

الموقع الذي قامت فيه الكوفة فيما بعد سنة ١٤هـ وربما كانت القوافل التجارية من مكة والمدينة تتجه الى الحيرة عبر هذا الطريق ، وكانت توجد على الطريق مناهل للمياه قبل الأسلام توقف في بعضها الجيش الاسلامي بقيادة سعد بن ابي وقاص قبل دخوله العراق.

غير ان الطريق انتظم استخدامه بعد فتح العراق وانتشار الاسلام في المشرق الاسلامي فتحولت مناهل المياه وأماكن الرعي والتعدين على الطريق الى محطات رئيسية وبدأ الطريق يزدهر بالتدريج منذ عصر الخلافة الراشدة وحتى العصر الاموي وبانتقال مركز الخلافة من الشام الى العراق في العصر العباسي اصبح الطريق حلقة اتصال مهمة بين عاصمة الخلافة في بغداد والحرمين الشريفين وبقية انحاء الجزيرة العربية وحتى اليمن ، وأعطى خلفاء بني العباس جل اهتمامهم بتأمين طرق المواصلات وبالأخص طريق الكوفة من مكة كما كان للأمراء والوزراء والقادة والوجهاء اصلاحات اخرى كثيرة على الطريق.

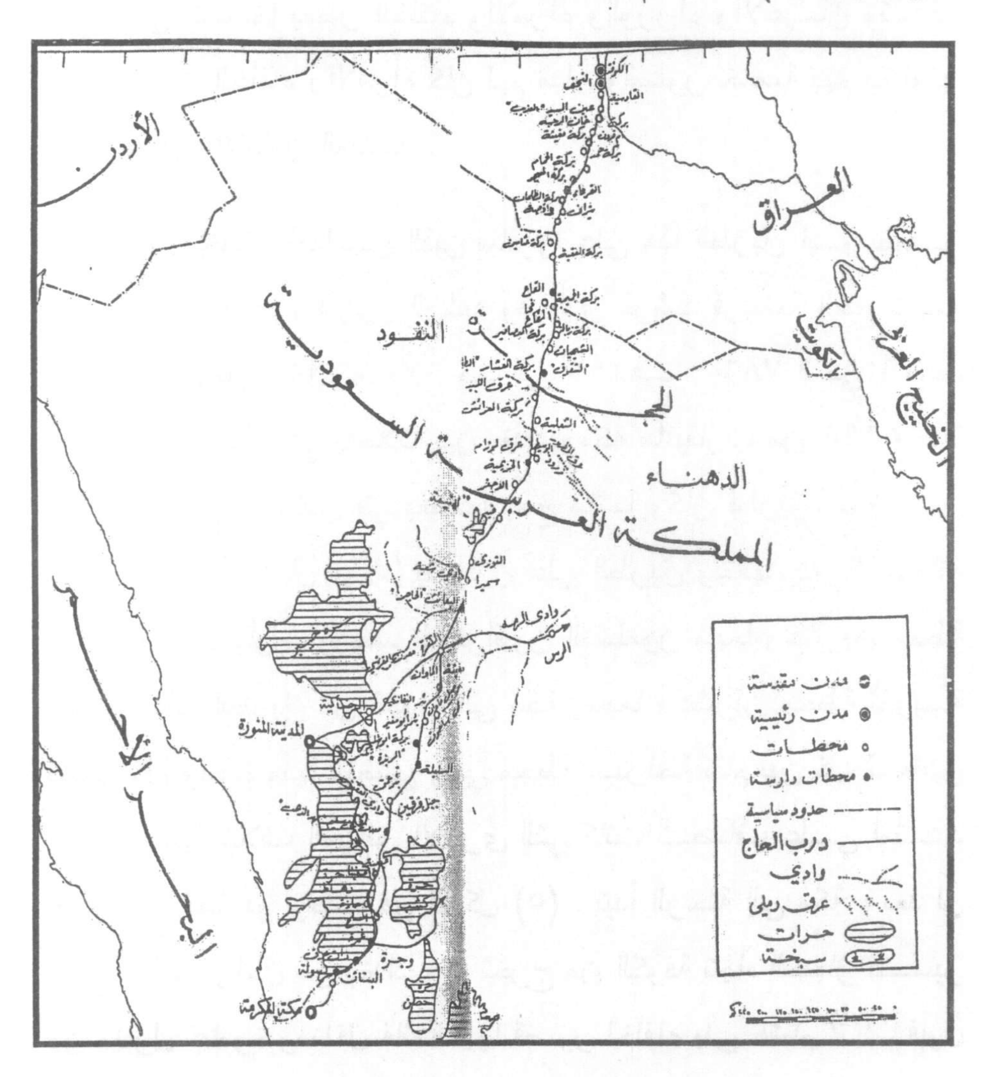
وفي ضوء المعلومات الواردة في المصادر التاريخية والجغرافية نجد ان طريق الحج العراقي (درب زبيدة) خُطط مساره بطريقة علمية وهندسية متميزة ، حيث حددت اتجاهاته واقيمت على امتداده المحطات والمنازل والاستراحات ورصفت ارضية الطريق بالحجارة في المناطق الرملية والموحلة ونظف الطريق من الجلاميد الصخرية والعوائق في المناطق الوعرة والصخرية وزود الطريق بالمرافق الضرورية من منشآت مائية كالسدود والآبار والبرك وأقيمت على امتداد الطريق العلامات التي توضح مسار الطريق كالأعلام والمنارات والأميال (احجار المسافة) والصوى والمشاعل والمواقيد ليهتدي بها المسافرون ليلا ونهارا.

واوردت المصادر الجغرافية المبكرة اشارات عديدة الى المواقع والمرافق التي تولى انشاءها بعض الخلفاء والأمراء والوزراء والأعيان وتذكر المصادر ان الخلفاء والأمراء كان لهم مبان وقصور خاصة بهم ينزلونها عند زيارتهم الاماكن المقدسة .

ومن ابرز الخلفاء العباسيين الذين سافروا على هذا الطريق ابو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد وقد أدى الرشيد فريضة الحج تسع مرات طوال فترة خلافته ١٧٠ هـ الى ١٩٣هـ - ٧٨٦ الى ٨٠٩م، بهذا يكون قد قطع في رحلاته بين بغداد ومكة ما يقارب من ٥٦٩٨ ميلا «٦,٩٦٨٦ كيلا» وكان في بعضها يحج ماشيا وكان لطريق الحج من الكوفة الى مكة عمال (ولاة) يشرفون على الطريق ويتعهدونه بالصيانة والاعمار اولا بأول. ورصد الجغرافيون المسلمون سبعا وعشرين محطة رئيسية على الطريق من الكوفة الى مكة وسبعا وعشرين محطة ثانوية تسمى كل واحدة منها متعشى وهي محطة استراحة تقام بين كل محطتين رئيستين هذا خلاف المرافق الاخرى التي كانت تضاف علي امتداد الطريق. وكما هو واضح فى الشكل (٥) . تبدأ الرحلة إلى مكة ، بعد ان تقطع ثلاث مراحل من بغداد ، ثم تخرج من الكوفة تجاه الحجاز فتسير من منازل عامرة ومناهل قائمة فيها قصور لخلفاء بنى هشام [٧٩] . فأول هذه المنازل القادسية ثم المغيثية ثم الفرعا ثم واقصة ثم العقبة ثم القاع ثم

79- اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢هـ ، ص ٣٠٨ .

تسير بعد ذلك حتى تصل زبالة (وتعد زبالة قرية عامرة تشتهر بكثـرة آبارها ومياهها) (٨٠) . ثم تأخذ القافلة



شكل (٥) درب الحج الكوفى (درب زبيدة) .

---

80 – إبراهيم بن إسحاق الحربى ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ، تحقيق / حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة ، ١٩٦٩م ، ص ٢٨٤ .



، وفيها كان ينزل عمال طريق مكة ، وكان الحجاج يودعون مـا ثقـل عليهم من أزوادهم وأمتعتهم عند أهلها ، فإذا عادوا أخذوا ما أودعوه بعد أن يدفعوا لهم شيئاً من ذلك ، وكان أهلها يتعاونون مع الحجاج ويقدمون لهم كثيراً من وسائل الراحة والإغاثة ، خاصة وأن هذا المكـان منفـرد منقطع عن العمران [٨٤] . وتتجه القافلة من فيد وتواصل سيرها إلى توز وهى على مسافة ٣٠٨ ميلاً من الكوفة ، ثم تتجه القافلـة إلـى سـميرا

قديمة ، تعود إلى ما قبل الإسلام.". وفي عام ٥٨٠هـ مر الرحالة ابن جبير في فيد بعد أداء مناسك الحج ، ووصف فيداً قائلاً : " واصبحنا على فيد يوم الأحد (الخامس عشر من المحرم)، وهي حصن كبير مبرج مشرف في بسيط من الأرض، يمتد حوله ربض يطيف به سور عتيق البنيان، وهو معمور بسكان الأعراب ، ينتعشون مع الحاج في التجارات والمبايعات، وغير ذلك من المرافق ، وهناك يترك الحاج بعضهم زادهم إعداداً للإرمال من الزاد عند انصرافهم ، ولهم بها معارف يتركون أزودتهم عنده، وهذا نصف الطريق من بغداد إلى مكة على المدينة ، شرفها الله ، أو أقل يسيراً ، ومنها إلى الكوفة أثناء عشر يوماً في طريق سهلة طيبة ،والمياه فيها بحمد الله موجودة في مصانع كثيرة" . وفي عام ٧٢٧هـ زار ابن بطوطة الرحالة المشهور فيداً إثر خروجه من مكة المكرمة، برفقة أمير ركب العراق: البهلوان محمد الحويج، وهو من أهل الموصل .. قال في رحلته: " ثم أسرينا ليلاً ، وصبحنا بحصن فيد، وهو حصن كبير في بسيط من الأرض، يدور به سور ، وعليه ربض ، وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة، ، وهناك يترك الحاج بعض أزودهم حين وصولهم من العراق إلى مكة – شرفها الله تعالى – فإذا عادوا وجدوه، وهو نصف الطريق من مكة إلى بغداد، ومنه إلى الكوفة مسيرة أثني عشر يوماً في طريق سهل، به المياه في المصانع . ومن عادة الركب أن يدخلوا هذا الموضع على تعبئة واهبة للحرب إرهاباً للعرب المجتمعين هنالك، وقطعاً لأطماعهم عن الركب ، وهناك لقينا أميري العرب، وهما : فياض وحيار ، وهما أبناء الأمير مهنا بن عيسى ، ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة، فظهر منهما المحافظة على الحاج ، والرجال ن والحوطة لهم ، وأتى العرب بالجمال والغنم ، فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه".

84 – موزل لويس ، طريق الحج العراقى القديم ، مجلة العرب ، السنة السابعة ، رمضان ، ١٣٩٢هـ ، الجزء الثالث ، ص ٢٠٣ .

فالحاجر ثم النقرة التى عندها مفرق الطريق إلى طريقين أحدهما يتجـه إلى المدينة المنورة والثانى يتجه إلى مكة المكرمة [٨٥] .

وفى الأغلب الأعم يذهب الركب العراقى إلى مكة لتأدية فريضة الحج ثم يعطف بعد ذلك إلى المدينة المنورة ، لذلك فهو يأخذ فى السير من النقرة على طريق مكة إلى مغيثة ثم إلى الربزة ، ومنها يجتاز بعض المحطات الصغيرة إلى ذات عرق([٨٦]) ، وهى ميقات أهل العـراق (فيـتم عنـدها الإحرام) ثم يواصلون السير إلى بستان ابن عامر ، ومنـه إلـى مكـة المكرمة [٨٧] .

وهناك طرق فرعية اخرى منها طريق معدن النقرة/ المدينة وبلغ امتداده حوالي ١٥٦ ميلا «٢٦٥ كيلا» تقريبا. ويوجد طريق فرعي اخر تسلكه القوافل من معدن بني سليم «مهد الذهب» عبر الحافة الـشرقية لحـرة رهاط مرورا على صفينة وحاذة ثم المسلح ويلتقي طريق البـصرة مـع طريق الكوفة في معدن النقرة حيث يصل اليه من النباج او يتجه محاذيا له حيث يلتقي الطريقان في ذات عرق.

---

85 – اليعقوبى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١١ .

86 – ذات عرق: مكان بالبادية قرب عقيق الطائف، سمي بذلك لعرق فيه والعرق هو الجبل ويقولون إنه منتهى جبال تهامة يفصل بين جبال تهامة ونجد وهو ميقات أهل العراق ومن وراءهم من أهل المشرق كأهل خراسان وغيرهم. وهي مندثرة اليوم ويحرم الحجاج الذين يأتون في السابق على الإبل من الضريبة التي يقال لها اليوم – الخريبات – أما اليوم فالحجاج يأتون بسياراتهم ويمرون إما على بذي الحليفةأو السيل فيحرمون من أحدهما وتبعد عن مكة ٧٠ كم.

87 – عبد القادر بن محمد الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحجاج وطرق مكة المعظمة ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، ص ٤٦٧ .

وتجدر الإشارة إلى أن الطريق من العراق إلى مكة لم يكن سهلاً وآمنـــاً من الأخطار ، ولكن كان هناك العديد من المخاطر مثل "حركة القرامطة" الناتجة عن الحنق من بنى العباس ، حيث الخروج على قوافل الحجـيج والفتك بهم ، وكان خروج القرامطة وفتكهم بقوافـل الحـاج العراقـى وحصولهم على ضريبة سنوية من الحجاج والخلافة بادرة سيئة ، سارت على نهجها كثير من القبائل العربية المقيمة على طول الطريق ، سـواء من حيث إنزال الكوارث بالحجاج أو مطالبتهم بدفع الضرائب والمكوس ، فقد حدث أن قبيلة بنى هلال ، وهى من القبائل الكبرى فـى الجزيـرة العربية اعترضت ركب الحجيج سنة ٣٦١هـ ونهبته وقتلت عدداً كبيراً من الحجاج[٨٨].

وكان الحجاج فى أوقات الأمن والسلامة من خطر القبائل يعانون الشدائد المخيفة بسبب عوامل الطبيعة المختلفة التى تـودى بحيـاة الآلاف مـن الحجاج ، مثل هبوب الرياح العاتية ولاسيما فى أشهر الصيف ففى سـنة ٣٩٧هـ ثارت على الحجاج فى الثعلبية ريح سوداء أظلم لها الجو([٨٩]) ،

---

88 – عبد الرحمن بن على بن محمد ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الجزء السابع ، ص ٥٧ .

89 – ويبدو أنه قد تعددت النوائب لدى الحجيج فى الثعلبية ففى سنة ٣٠٣هجرية عاد الحُجّاج وقد لقوا من العطش والخوف شدّة، وخرج جماعة من العرب على أبي حامد ورقاء بن محمّد المرتّب على الثعلبيّة لحفظ الطريق، فقاتلهم، وظفر بهم، وقتل جماعة منهم، وأسر الباقين وحملهم إلى بغداد، فأمر المقتدر بتسليمهم إلى صاحب الشُرطة ليحبسهم، فثارت بهم العامة فقتلوهم وألقوهم في دجلة. وفي سنة ٣٨٦هجري عاد الحجاج من الثعلبية دون ان يحجوا ، ولم يحج من العراق والشام أحد، وسبب عودهم أن الأصيفر، أمير العرب، اعترضهم وقال: إن الدراهم التي أرسلها السلطان عام أول كانت نقرة مطلية، وأريد العوض؛ فطالت المخاطبة والمراسلة وضاق الوقت على الحجاج فرجعوا .

فلم ير الحجاج بعضهم بعضاً ، وأصابهم لذلك عطش شديد فاضطروا تحت وطأة هذه الظروف إلى العودة دون أن يحجوا ، ثم تكررت هذه الظروف مرات عدة ، ففى ذى الحجة سنة ٤٠٢هـ هاجت ريح سوداء فى زبالة ، وفقدوا الماء فهلك منهم خلق كثير وبلغت المزادة من الماء مائة درهم ، ولم يستطيع من بقى منهم العودة إلا تحت خفارة بنى خفاجة (٩٠) . ومن مثل هذه الحوادث أن الحجاج العراقيين نزلوا بواد بعد نخلة سنة ٤٨٩هـ ، فأتاهم سيل عظيم فأغرق أكثرهم ، ونجا من تعلق بالجبال وذهب المال والدواب والأزواد وغير ذلك (٩١) .

ورغم ما سبق ، فقد اهتم الخلفاء بالطرق التى كان يسلكها الحجاج لأغراض الدعاية السياسية ، فعملوا على إزالة العقبات ووضع العلامات وحفر الآبار وإقامة مصانع المياه ، وصرف نفقات باهظة للقبائل المتربصة بالحجيج على طول الطريق إلى مكة المكرمة . فاهتمت الدولة العباسية بذلك الأمر ،حتى أن أمر هذا الطريق كان فى بداية القرن الرابع الهجرى ولاية تضاف إلى امير الكوفة ، وكان يمثل هذا الأمير فى ولاية طريق الحج عمال يقيمون فى بعض المراكز الهامة على طول الطريق (٩٢) . بل كانت بعض الشخصيات من الأمراء وغيرهم يسهمون فى هذا الميدان الخيرى ، فقد حمل بدر بن حسنوية بن الحسين أمير الجبل(٩٣)

---

90 – نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .

91– نفس المرجع السابق ، الجزء التاسع ، ص ٩٧ .

92 – اليعقوبى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٢ .

93 – أبو النجم الكردي، كان من خيار الملوك بناحية الدينور وهمدان، وله سياسة وصدقة كثيرة، كناه القادر بأبي النجم، ولقبه ناصر الدولة، وعقد له لواء وأنفذه إليه، وكانت معاملاته وبلاده في غاية الأمن والطيبة، بحيث إذا أعيى جمل أحد من المسافرين أو دابته عن حمله يتركها بما عليها في البرية فيرد عليه، ولو بعد حين لا ينقص منه شيء. ولما عاثت أمراؤه

ابتداء من سنة ٣٨٥هـ إلى الأصيفر الأعرابى مبلغ خمسة آلاف دينار عوضاً عما كان يأخذه من الحجاج ، ومع زيادة نفوذ السلاجقة فى الدولة العباسية أخذ الوزير التقى نظام الملك[٩٤] على عاتقه الاهتمام بإعادة

في الأرض فساداً عمل لهم ضيافة حسنة، فقدمها إليهم ولم يأتهم بخبز، فجلسوا ينتظرون الخبز، فلما استبطاؤه سألوا عنه فقال لهم: إذا كنتم تهلكون الحرث وتظلمون الزراع، فمن أين تؤتون بخبز؟ ثم قال لهم: لا أسمع بأحد أفسد في الأرض بعد اليوم إلا أرقت دمه. واجتاز مرة في بعض أسفاره برجل قد حمل حزمة حطب وهو يبكي فقال له: مالك تبكي؟ فقال: إني كان معي رغيفان أريد أن أتقوتهما فأخذهما مني بعض الجند. فقال له: أتعرفه إذا رأيته؟ قال: نعم. فوقف به في موضع مضيق حتى مر عليه ذلك الرجل الذي أخذ رغيفيه، قال: هذا هو، فأمر به أن ينزل عن فرسه وأن يحمل حزمته التي احتطبها حتى يبلغ بها إلى المدينة، فأراد أن يفتدي من ذلك بمال جزيل فلم يقبل منه، حتى تأدب به الجيش كلهم. وكان يصرف كل جمعة عشرين ألف درهم على الفقراء والأرامل، وفي كل شهر عشرين ألف درهم في تكفين الموتى، ويصرف في كل سنة ألف دينار إلى عشرين نفساً يحجون عن والدته، وعن عضد الدولة، لأنه كان السبب في تمليكه، وثلاثة آلاف دينار في كل سنة إلى الحدادين والحذاءين لأجل المنقطعين من همذان وبغداد، يصلحون الأحذية ونعال دوابهم، ويصرف في كل سنة مائة ألف دينار إلى الحرمين صدقة على المجاورين، وعمارة المصانع، وإصلاح المياه في طريق الحجاز، وحفر الآبار وما اجتاز في طريقه وأسفاره بماء إلا بنى عنده قرية، وعمر في أيامه من المساجد والخانات ما ينيف على ألفي مسجد وخان، هذا كله خارجاً عما يصرف من ديوانه من الجرايات والنفقات والصدقات، والبر والصلات، على أصناف الناس من الفقهاء والقضاة والمؤذنين والأشراف، والشهود والفقراء، والمساكين والأيتام والأرامل. وكان مع هذا كثير الصلاة والذكر، وكان له من الدواب المربوطة في سبيل الله وفي الحشر ما ينيف على عشرين ألف دابة. توفي في هذه السنة رحمه الله عن نيف وثمانين سنة، ودفن في مشهد علي، وترك من الأموال أربعة عشر ألف بدرة، ونيفاً وأربعين بدرة، والبدرة عشرة آلاف، رحمه الله.

94 – هو قوام الدين أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي الملقب بـ خواجة بزك أي نظام الملك ، ولد نظام الملك سنة ٤٠٨ هجري بنوقان إحدى مدينتي طوس، توفيت أمه وهو رضيع، كانت من عائلة آل حميد الدين الطوسي الذين كان أكثرهم وزراء. وقد عُني به أبوه فتعلم العربية وحفظ القرآن الكريم وهو في سن الحادية عشر وألم بالفقه على

تيسير الحج إلى مكة ، وكان قد انقطع منذ سنوات عديدة ، فعمل علــى فتح طريق الحج العراقى وقام بتعميره فاستقام لذلك أمر الحجيج.

وأخيراً وبسبب الخلل الامني توقف الحجاج عن استخدام الطريق إلا عند توفر الحماية العسكرية وفي مواسم الحج فقط علــى عكــس العــصور

مذهب الإمام الشافعي وسمع الحديث و درس الآداب التي تتعلق بأمور الحكم. في مطلع شبابه اتصل بخدمة علي بن شاذان والي مدينة بلخ وعمل كاتبا له وقصد داوود بن ميكائيل السلجوقي والد السلطان ألب أرسلان فظهر لداوود منه النصح والموهبة فسلمه إلى ولده ألب أرسلان وقال له: <<اتخذه والدا ولا تخالفه فيما يشير به>> . كان لنظام الملك صديقي دراسة هما: حسن الصباح وعمر الخيام. وأقسم جميعهم على مساعدة بعضهم في حال نجاح أحدهم في حياته وتوليه لمنصب رفيع. كان النجاح الأول من نصيب نظام الملك، الذي احتل منصبا رفيعا يتمثل في وزير السلطان السلجوقي. لم يَنْسَ نظام الملك قسمه الذي قطعه مع أصحابه، وعليه فقد أمر بصرف راتب ثابت للشاعر عمر الخيام بينما أسند لحسن بن صباح منصبا رفيعا في الدولة. لكن، حدث ما لم يكن بالحسبان. فقد تمكن حسن الصباح من منافسة نظام الملك في السلطة مما اضطر الأخير لطرده من السلطة عن طريق مؤامرة حيكت من قبله. وحينها اقسم بن صباح على الانتقام من صديقه. ومن هنا تبدأ حلقة من الصراع بينهما، انتهت آخر فصولها باغتيال الوزير نظام الملك بنهاوند . لم يكن وزيرًا لامعًا وسياسيًّا ماهرًا فحسب؛ بل كان داعيًا للعلم والأدب محبًّا لهما؛ أنشأ المدارس المعروفة باسمه «المدارس النظامية» ، وأجرى لها الرواتب، وجذب إليها كبار الفقهاء والمحدِّثين، وفي مقدِّمتهم حُجَّة الإسلام «أبو حامد الغزالي». اغتاله الإسماعيليون عام ١٠٩٢م. من مؤلفاته : سياست نامه أو سِيَر الملوك. تحدث فيه عن تنظيم الحكم وعن ضرورة قيام العدل، وتنظيم أمور الدولة والاستقطاع، وتنظيم الإدارة والجيش، وتاريخ العلاقة بين السلطة المركزية في خراسان والقرامطة والخُرَّمية وغيرها من الحركات الباطنية. عن : محمد على الصلابى ، دولة السلاجقة: وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٦م ، صفحات مختلفة.

المبكرة عندما كان الطريق يستخدم على نطاق واسع بدون حماية امنية. غير ان تعطل الطريق بشكل كبير حدث بعد سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ /١٢٥٨م ، ولم يعد الطريق مستخدما إلا في فترات متقطعة كما أن اجزاء الطريق من معدن النقرة وحتى مكة انقطع استخدامه نهائيا منذ اواخر القرن الرابع الهجري ، وبالتدريج اندثرت معظم محطات الطريق وتقلصت المحطات والمنازل إلى أطلال[٩٥] .

95 – أبو الحسن على بن أبى الكرم بن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثامن ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ١٦٤ .

الفصل الرابع

"طرق الحج اليمنى والعُمانى - مكة المكرمة"

طريق الحج اليمنى :

تتواصل العلاقات بين مكة واليمن منذ القدم من خلال طريق قديم ، كان هو ذاته طريق الحج ، يبدأ هذا الطريق من صنعاء مروراً بصعدة، ويسلك المناطق الجبلية لمنطقة عسير، والحجاز ماراً بالقرب من موقع جُرش، ثم يتجمع إلى بيشة، وتَبَالَة، وتُربة، حتى يصل قرن المنازل، فمكة المكرمة.

وقد بلغت المحطات على هذا الطريق فيما بين صنعاء ومكة ٢٥ محطة رئيسة، وكشفت الاستطلاعات، والدراسات الأثرية، عن جوانب مهمة تتمثل في الأعمال الهندسية، من رصف للطريق في المناطق الوعرة، والمنشآت المائية، والكتابات الإسلامية الصخرية المبكرة، وأحجار المسافة، ومن المناطق التي يمكن فيها مشاهدة آثار هذا الطريق منطقة الراكبة، والمصلولة، وكريف العلب"[٩٦]".وقد أوضحت السنة النبوية المشرفة ذلك ، فعن خبَّابِ بن الأرَتِّ قال:(شكونا إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لهُ في ظلِّ الكعبةِ ، قلنا لهُ : ألا تستنصرُ لنا ، ألا تدعو اللهَ لنا ؟ قال : (كان الرجلُ فيمن قبلكم يُحفَرُ لهُ في الأرضِ ، فيُجعَلُ فيهِ ، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتيْنِ ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ . ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عصبٍ ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ ، واللهِ ليُتِمَّنَّ هذا الأمرُ ،

---

96 - - أجرى الباحث. محمد بن عبد الرحمن راشد الثنيان من جامعة الملك سعود، كشفاً أثرياً للطريق القديم الذي يصل صنعاء بمكة، وبينَّ الكشف أن الطريق الذي استخدم في الأزمنة القديمة للتجارة، هو الطريق ذاته الذي استخدمه الحُجَّاج اليمنيون بعد الإسلام للوصول إلى مكة، وأوضح الثنيان في كتابه الذي أصدرته وكالة الآثار السعودية في سنة ١٤٢٠هـ، أن درب الحُجَّاج يخترق أراضي مستوية في الجانب اليمني، بينما يمر ببعض التضاريس الوعرة في الجانب السعودي عند جبال السروات، وحرَّة البقوم.

حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموتٍ ، لا يخـــافُ إلا اللهَ ، أو الذئبَ على غنمِهِ ، ولكنكم تستعجلونَ)"[٩٧] . وعن أنس بن مالك أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم قال:(ما بينَ ناحيتَي حَوْضِي كما بيْنَ صـــنعاءَ والمدينةِ ، أوْ كما بيْنَ المدينةِ وعمَّانَ ، ترَى فيه أباريقَ الذهبِ و الفضةِ كعددِ نجومِ السماءِ ، أوْ أكثرَ)"[٩٨].

استمر الاتصال بين اليمن والحجاز منذ العصور القديمة، وتعددت طرق الحج اليمنية، واختلفت مساراتها، وتعددت كذلك المدن التي تسير منها، ولعل أهم العواصم اليمنية التي كانت تنطلق منها جموع الحجاج اليمنيين إلى مكة هي: عدن، وتعز وصنعاء وزبيد وصعدة في شمال اليمن ، وكانت بعض مسارات تلك الطرق يلتقي بعضها ببعض في نقاط معينة، مثل طريق تعز زبيد، وطريق صنعاء الداخلي إلى صعدة.

المحمل اليمني :

من المظاهر الدينية التي كانت تهتم بها الدول المركزية التي ظهرت على مسرح اليمن السياسي في العصور الوسطى الإسلامية أيما اهتمام هو المحمل اليمني ، وهو قافلة الحجاج التي تخرج من زبيد وتعود إليها بعد انتهاء شعيرة الحج . وكانت الدولة الأيوبية ، والرسولية والطاهرية تبذل قصار جهدهم من أجل أنّ يخرج المحمل اليمني إلى الأراضي المقدسة بهيئة جميلة ، وفخمة ، فكانت فتزود قافلة الحجاج بالزاد والماء وتعمل على السهر على راحتهم فتبعث معهم الجنود لحراستهم ، ويبدو أنّ المحمل اليمني في تلك الفترة يعد رمز من رموز هيبة وقوة الدولة

---

[97] – رواه البخارى .

[9898] – صحيح الجامع .

ورخائها من ناحية وجذب الناس حولها بسبب احترامها العميق للمحمل اليمني ، أي العناية بقوافل الحجاج .

في عهد العثمانيين:

وعندما فتح العثمانيون اليمن سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨م ، أي في الفتح العثماني الأول لليمن ، فقد أولى الكثير من الولاة العثمانيين في اليمن اهتمامهم وعنايتهم بالمحمل اليمني على غرار الدولتين الرسولية"[٩٩] والطاهرية . وقد أسهبت المراجع المعاصرة وقتذاك في وصف العناية الفائقة من الولاة العثمانيين الذين كان البعض منهم يتعمد أنّ تنطلق قافلة

---

[99] –حيث تميز حكم بني رسول الطويل الأمد ــ بغض النظر عن التاريخ السياسي الحربي ــ بكثير من الإنجازات المهمة في ميدان العلم والتجارة والزراعة والطب، فقد بنوا المدارس الكثيرة وأجزلوا العطاء للعلماء وكان كثير من ملوك بني رسول علماء وشعراء وأصحاب رأي ومؤلفي كتب في فروع المعرفة المختلفة، ولا تزال مدينة تعز إلى يومنا هذا تتزين بمنجزاتهم العمرانية كجامع المظفر وجامع الأشرفية و مدرسة الأشرفية وحصن تعز المسمى الآن قاهرة تعز، بالإضافة إلى آثار المدارس الفقهية، وفي زمانهم برز العلماء والشعراء في كل فن، وهو سر الإعجاب المتزايد بالدولة الرسولية، التي أخذت في الآونة الأخيرة تلقى من المؤرخين والدارسين عموماً اهتماماً نرجو أن يكلل بدراسات مستفيضة تليق بمآثر الرسوليين في تاريخ اليمن الوسيط، ولعل أبرز ما يشير إلى سطوع نجم الدولة الرسولية وتبوؤها مكاناً لائقاً بين أمم عصرها تلك الرسالة التي وجهها مسلمو الصين إلى الملك المظفر يشتكون من تعسف ملك الصين ومنعهم من ختان أولادهم كما يطلب منهم الدين الإسلامي، فمجرد توجيه هذه الرسالة إلى الملك المظفر تفيد أن مسلمي العالم كانوا يرون في الملك الرسولي خليفة للمسلمين يتوجهون إليه بالشكوى، وقد تصرف الملك المظفر بما يتفق ومكانته في نفوس مسلمي الصين، إذ بعث إلى ملك الصين برسالة يطلب فيها منه السماح لمسلمي الصين بممارسة واجب الختان لأبنائهم وبعث إليه بهدية تليق بمقامه، فرفع ملك الصين الحضر على ختان المسلمين لأبنائهم، وهو ما يشير إلى تقدير ملك الصين لمكانة الدولة الرسولية خاصة وأن ملوك الصين المعاصرين للدولة الرسولية قد عدوا أنفسهم سادة على العالمين وأن غيرهم من ملك أو سواه إنما هو عبدٌ لهم كما تبين رواية بهذا المعنى تصف مقابلة وفد بلاد الصين للملك الناصر الرسولي .

الحجاج أو المحمل اليمني من زبيد"[100]" إلى جيزان مخترقة العديد من المناطق والمدن اليمنية الهامة ، وعند عودة المحمل اليمني من الأراضي

---

100 – قال ابن بطوطة بعد خروجه من مدينة السرجة اليمنية: ثم وصلنا إلى مدينة زبيد، وهي مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخاً، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها، ولا أغنى من أهلها، واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره. وهي برية لا شطية إحدى قواعد بلاد اليمن "وهي بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة " مدينة كبيرة كثيرة العمارة، بها النخل والبساتين والمياه، أملح بلاد اليمن وأجملها، ولأهلها لطافة الشمائل وحسن الأخلاق وجمال الصور، ولنسائها الحسن الفائق الفائت، وهي وادي الخصيب الذي يذكر في بعض الآثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ في وصيته: "يا معاذ إذا جئت وادي الخصيب فهرول". ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة، وذلك لأنهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى بالمدينة أحد من اهلها ولا من الغرباء، ويخرج أهل الطرب أهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات، وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل، ولهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق، الأخلاق الحسنة والمكارم. وللغريب عندهن مزية، ولا يمتعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا. فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى ان يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة. لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً، ولو أعطيت إحداهن ما عسى أن تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل. وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق. لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني، والفقيه الصوفي المحقق أبا العباس الإبياني، والفقيه المحدث أبا علي الزبيدي. ونزلت في جوارهم فأكرموني وأضافوني ودخلت حدائقهم، واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبي زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن. ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات. قال التازي: زَبيد، (بفتح الزاي المدينة، وبضمها القبيلة) ترجع المدينة للعصر الوسيط، أسسها محمد بن عبد الله ابن زياد الأموي بأمر سلطانه عبد الله المأمون بن هارون الرشيد عام ٢٠٤=٨٢١م وأن أهم ميناء زبيد كان هو (غلافقة) على بعد ٢٥ ميلاً شمال غرب المدينة، وفي سنة ٨٢٢ أسس الملك الناصر أحمد الرسول ميناء الفازه فضعفت (غلافقة) ثم تعرضت للدمار في القرن العاشر الهجري وتعتبر زبيد عاصمة للسهول اليمنية التي تحتضن أهل السنة وتقابل النجود العليا التي يستقر فيها الشيعة الزيدية. والتي

المقدسة (مكة والمدينة) تسلك نفس الطريق الذي ذهب به إلى الحج .
والجدير بالذكر ، أنّ زبيد كان نقطة بداية ونهاية المحمل اليمني .
أهداف سياسية :
والحقيقة أنّ العناية بالمحمل اليمني لم تظهر بصورة ملحوظة وواضحة إلا على يد بعض الولاة والموظفين الكبار العثمانيين الذين كانوا في مصر ، وعندما تولى هؤلاء شؤون اليمن ، فنهجوا نفس نهجهم في العناية بالمحمل اليمني على غرار المحمل المصري بمصر الذي كان يتميز الفخامة والضخامة ، والأبهة ، وكان يشيع من القاهرة المعزية وسط الاحتفالات الكبيرة بلاد الحجاز (مكة والمدينة) . ويذكر بعض الباحثين المحدثين أنّ المحمل اليمني ، كان يزداد العناية به عندما ، كانت تنفجر القلاقل والاضطرابات كالثورة التي قادها الإمام القاسم وأبنائه ضد العثمانيين والتي أدت إلى خروجهم من اليمن سنة (١٠٤٥هـ / ١٦٣٥م) . وهذا ما دفع بالوالي حسن باشا الوزير أثناء تلك الثورة أنّ يعطي صورة مشرقة للمحمل اليمني لتعكس هيبة وقوة الدولة العثمانية في نفوس اليمنيين وأنها مازالت قادرة على فرض قبضتها على زمام البلاد والعباد في تلك الفترة التي سادت بها التمردات . وتذكر المراجع المعاصرة وقتذاك أنّ الوالي العثماني في اليمن مصطفى باشا النشار ، كان له السبق في ظهور المحمل اليمني " في عهد حكم السلطنة العثمانية

تعتبر صنعاء عاصمة لها. وقال: يظهر أن ابن المجاور لم يكن متفقاً مع ابن بطوطة حول الحُسن الفائق الفائت فقد وجدناه في كتابه صفة اليمن ص ٢٤٦ يقسم بالله الرحمن الرحيم أنه ما رأى في جميع اليمن سهلها وجبالها وجهاً حسناً.. ما ترى إلا عجائز سوء...!! وأعتقد أن ظروف الرجلين كانت تختلف فتنوعت لذلك الآراء! هذا ولا يخفى ما في الأثر الشريف من دعابة لمبعوثه مُعاذ بن جبل الذي نعرف عن مكانته لدى الرسول عليه الصلوات!

بسبب أنه كان ، قائدًا لقافلة الحج المصري لعدة سنوات قبل أنّ يتولى أمر اليمن ""[101]" .

أهم دروب احج اليمنية :

واشتهر من طرق الحج اليمنية إلى مكة المكرمة ثلاثة طرق شكل (٦) هي: الطريق الساحلي والطريق الداخلي أو الأوسط، والطريق الأعلى ، ولكل منها مساراته ومحطاته ومتاعبه التي عانى منها الحجاج قرونًا طويلة.

الطريق الساحلي:

يمر بجوار البحر محاذيًا له من الشرق، ويبدأ من عدن فـأبين، مـرورا بالمخنق، فإلى عارة، ثم عبرة، فالسقيا، فباب المنـدب، فـسماري، ثـم الخوخة والأهواب، وغلافقة، وهي فرضة زبيدة، ثم نبعة، فالحردة، ثـم الزرعة، ثم الشرجة وهي أولى مراحل طريق الحج اليمني الساحلي التي تقع في أراضي المملكة العربية السعودية.

ويسير الطريق من الشرجة إلى المفجر، فإلى القنيدرة، ثم عثر، ثم بيض، ثم الدويمة، ثم حمضة، ثم ذهبان، ثم حلين ثم قرما، فدوقة، إلى السرين، وهي ملتقى طريق الساحل مع طريق الداخل، ومنها يفترقان أيضًا كل في جهته، حيث يسير الساحلي صوب الليث فالشعيبة إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة.

---

101 – السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ – ١٦٣٥، جامعة القاهرة – معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٤، ص ص٢٢١-٢٢٦ .



شكل (٦) طريق الحج اليمنى

الطريق الداخلي:

ويعرف باسم تهامي أيضًا ويعرف باسم الجادة السلطانية ويبدأ من تعز، ويمر بذات الخيف، فموزع، ثم الجدون، ثم حيس، ثم زبيد، إذ تتجمع فيها القوافل التي تسلك طريق الجادة السلطانية، ومنها تنطلق في سيرها إلى مكة المكرمة مارة بفشال والضنجاع، والقحمة، والكدراء والمهجم، ومور، والواديين، والساعد، وتعشر، وجازان، والهجر، وبيش، إلى ضنكان، ومنها يتجه الطريق إلى المقعد فحلي العليا، ثم يبه، ثم قنونا، ثم عشم، ثم دوقة فإلى السرين حيث يلتقي بالطريق الساحلي، ومنها يفترق في مساره الداخلي إلى الليث، فالخضراء، ثم سعيا، فيلملم ميقات أهل اليمن حتى مكة المكرمة.

الطريق الأعلى :

يعرف باسم الطريق الجبلي وهو أشهر الطرق اليمنية، ومركز انطلاقه صنعاء ، وكانت صنعاء فى ذلك الوقت عاصمة للدولة الصليحية ، وكان يخرج منها طريق آخر فيلتقى مع الطريق الوسطى عند المهجم ، وهو الطريق الذى سلكه على بن محمد الصليحى سنة ٤٥٩هـ فى حجته التى قتل فيها على يد ابن نجاح"[١٠٢]" ، ويتجه الطريق إلى صعدة، ومنها إلى

---

[102]- هو سعيد بن نجاح من بنى نجاح ، نسبة إلى دولة بني نجاح: ٤٠٣ ـ ٥٥٥ هـ/١٠١٢ ـ ١١٦٠م ، بنو نجاح أسرة حبشية ينسبون إلى الأمير نجاح أحد موالي بني زياد، أعلن نفسه سلطاناً على تهامة بعد زوال نفوذ الأسرة الزيادية، واتصل بالخليفة العباسي معلناً دخوله في طاعته، فأجازه الخليفة، ولقبه بالمؤيد نصير الدين. لم يكن بنو نجاح أقل عراقة من العرب، وصفهم نجم الدين عمارة اليمني فقال: «لم يكن ملوك العرب يفوقونهم في الحسب، فلهم الكرم الباهر والعز الظاهر والجمع بين الوقائع المشهورة والصنائع المذكورة والمفاخر المأثورة وفيهم فضلاء وعلماء». كانت عاصمتهم زبيد، من أشهر سلاطينهم سعيد بن نجاح الملقب بالأحول. جرت بينه وبين الصليحيين معارك عديدة أهمها معركة المهجم التي قتل فيها علي

العرقة، ثم المهجرة، ثم أرينب، ثم سروم الغيض، ثم الثجة، ثم بيشة ومنها إلى تبالة، فالقريحاء ثم كرى، ثم تربة، ثم الصفن، ثم العنق، ثم رأس المناقب، وهي منتهى الطريق في اتجاه الشمال، وينحرف في سيره صوب الغرب إلى قرن المنازل(١٠٣) ، وهو ميقات أهل اليمن الذين يمرون من تلك الجهة، ويتجهون محرمين صوب مكة مجتازين الزيمة، والطائف عن طريق السيل(١٠٤)

الطريق المفضل:

أهم الطرق التي كانت مفضلة لدى الحجاج بيت الله الحرام القادمين من طريق اليمن الطريق الذي يمر بشمال اليمن ويخترق منطقة عسير الجبلية إلى أن يصل إلى الطائف، ثم إلى مكة المكرمة ، وعلى الرغم من

بن محمد الصليحي سنة458 هـ/١٠٦٥م، وأسرت زوجته السيدة أسماء بنت شهاب. ومعركة الشعر سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م التي انتهت بمقتل سعيد بن نجاح، وأسرت زوجته أم المعارك في خبر طريف. بلغ عدد ملوك هذه الدولة سبعة، آخرهم فاتك بن محمد، تقلد الحكم سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، وكان ضعيف السلطان فتعرضت مناطق نفوذه لهجمات متكررة من قبل بني المهدي الحميري الذين طالت هجماتهم مدينة زبيد مما دفع الأهالي إلى مكاتبة الإمام الزيدي أحمد بن سليمان، فتصدى لآل المهدي، لكنه مالبث أن استولى على زبيد بعد مقتل السلطان فاتك، وبمقتله قضي على تلك الدولة.

103 – قرن المنازل ويسمى الآن السيل الكبير، وموقعة شمال مدينة الطائف ويبعد عنها ٥٥ كم ويبعد عن مكة المكرمة ٧٥ كم. ميقات قرن المنازل هو ميقات أهل نجد ومن أتى عليها. عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: وقت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لأهل المدينة ذا الحليفة ولأهل الشام الجحفة ولأهل نجد قرن المنازل ولأهل اليمن يلملم فقال: ((هن لهن ولمن أتى عليهن من غير أهلهن لمن كان يريد الحج أو العمرة فمن كان دونهن فمهله من أهله وكذلك حتى أهل مكة يهلون منها)). (رواه البخاري ومسلم).

104– العمرى ، ابن فضل الله ، مسالك الأبصار ، قسم اليمن ، تحقيق / أيمن فؤاد السيد ، طبع القاهرة ، ص ٤٤ .

أن الطريق يجتاز مناطق ذات طبيعة تضاريسية صعبة، إلاّ أنـــه كـــان مفضلاً للحجاج وغيرهم لأنه يمر عبر أراضٍ خصبة دائمـــة الخـضرة وقرى وبلدات تتوافر فيها المياه ويكثر بها الغذاء.

قافلة الحج اليمني:

تضم حجيج اليمن والهند وماليزيا وإندونيسيا، وينضم إليهم حجاج الحبشة والصومال والأفارقة الذين يصلون إلى مصوع، وسواكن، وموانئ اليمن من مسالك الحاج الإفريقي من الغرب الأوسط والتى مركزها تمبكتو([١٠٥]) ووسط إفريقيا إلى الديار المقدسة . كانت القوافل تضم عناصر مختلفة؛ ففيها الأمراء، والأثرياء، والتجار ومعهم تجاراتهم،

---

105 - - جاء تأسيس مدينة تمبكتو في القرن الخامس الهجري (أي القرن الحادي عشر الميلادي) على يد جماعة من الطوارق كانت تُعرف بـ" طوارق مقشرن"، وهم مجموعة كانت تعيش في هذه المنطقة بين مدينة يقال لها أروان في إقليم السودان الغربي، على بُعد حوالي ٤٥٠كيلو متراً من موقع تمبكتو، فتأسست تلك الجوهرة الإسلامية لكي تكون محطةً للمتنقّلين في الصحراء؛ حيث ساعدت الطوارق على التنقُّل بين منطقتهم وأروان التي كانوا يرحلون إليها في الخريف، فكانت بالفعل عاصمة الصحراء. - بدأت تمبكتو بلفت الأنظار إليها كمركز إشعاع علمي بعد رجوع ملك المندينغ "منسا موسى" من رحلة الحج الشهيرة التي قام بها عام ١٣٢٥م، ووزع في طريقه إليها آلافاً مؤلفة من سبائك الذهب، خاصة في القاهرة؛ مما تسبب في هبوط أسعار الذهب، وقد أمر السلطان الشاعر الغرناطي الملقب بالسهيلي بتصميم جامع كبير، والإشراف عليه (هو جامع تمبكتو القائم إلى يومنا هذا)، وكانت تلك النواة الأولى لبناء صرح علمي في تمبكتو، حيث صار مع مرور الأيام مركزاً للعلم، خاصة وبعد تبرع امرأة من سركولو (إحدى القبائل المالية) ببناء جامع آخر فيما بعد، وقد ازدهر العلم مع تقاطر الطلبة من شمال وغربي إفريقيا على تمبكتو، وقد ساعد على ذلك الإنفاق السخي الذي قام به التجار على دور العلم فكان أروع تزاوج بين المال، والمعرفة في عروس الصحراء، إذ وصل عدد المدارس في ذلك الوقت ١٨٠ مدرسة، تضم أكثر من ٢٥،٠٠٠ طالب، كما وصل مستوى التعليم فيها إلى نفس المستوى الذي وصل إليه في قرطبة، وتلمسان، والقاهرة.

والفقراء، والمعدمون الشكل (٧) . وكان كلٌّ حسب قدرته يرافق القافلة، ففيها الهودج وفيها الجمال والخيول، وفيها الرجالة من البدو والفقراء.

وقد كان الولاة يقومون باستئجار الجمال والخيول لحمل مهمات القافلة، ويتعاقدون على ذلك قبل موسم الحج بوقت كافٍ، ويتفقون على ذلك مع مشايخ الأعراب والبدو الذين يعيشون في المناطق التي تسلكها القوافل.

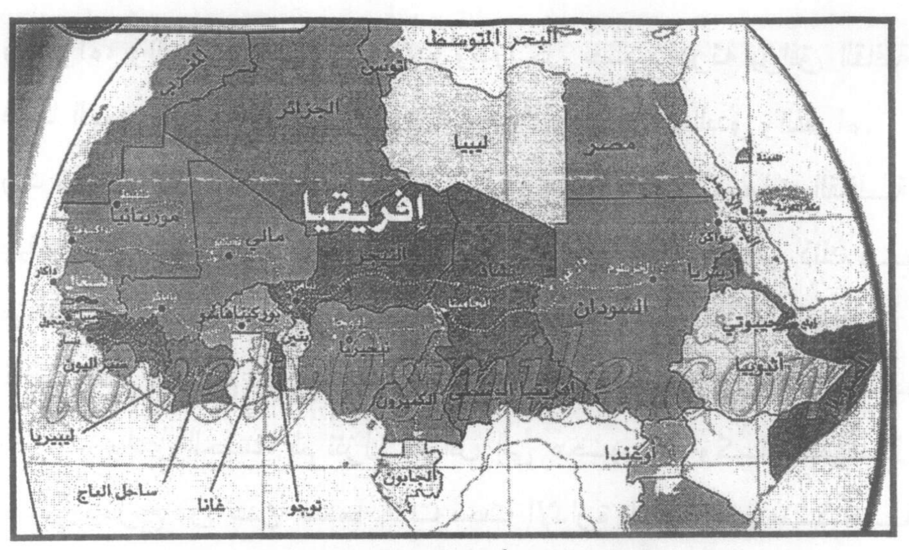
كانت قافلة الحجاج تخرج وسط احتفال مشهود من لحج إلى يكرد، ثم تعز، ثم وادي الحسنا، ثم تنزل القوافل إلى «حيس»، وكان المحمل اليمني يخرج من عدن عندما كانت تحت الإدارة العثمانية، ومنذ سنة ٩٦٣هـ بدأ الوزير مصطفى باشا والي اليمن في تنظيم موكب المحمل الشريف باسم محمل صنعاء اليمن على إثر صدور فرمان له بهذا الصدد(١٠٦).

يتحرك الموكب من حيس إلى زبيد فرفع، ومنها إلى بيت العقبة الصغير، ومنها إلى قطيع، ثم المنصورية، ثم يتابع الموكب سيره في الطريق المعهود. أمّا حجاج شحر فإنهم يتجهون إلى حضرموت برا، ثم إلى صنعاء، ثم ينضمون هناك إلى قافلة صنعاء، ويتجهون سويّاً إلى مكة المكرمة، ومن شَحر إلى حضرموت خمسة منازل، ومنها إلى صنعاء أربعة منازل. وعلى حجاج ظفار الذين يودون الاتجاه إلى صنعاء برّاً أن يقطعوا خمس عشرة مرحلة سيرًا، ثم ينضمون إلى جموع الحجيج التي احتشدت هناك لمواصلة السير سويًّا (١٠٧) .

---

[106] – المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، الجزء الأول ، ص ١٨٦ .

[107] – في كتاب صدر عن «وكالة الآثار السعودية» للباحث السعودي محمد عبدالرحمن راشد الثنيان ، جامعة الملك سعود.



شكل (٧) طريق الحج الأفريقى الممتصل بالدروب اليمنية .

ولم يكن الطريق اليمنى أحسن حالاً من الطريقين السابقين من حيث الصعوبة والخطورة ، فقد تربصت القبائل المسيطرة على هذا الطريق بالحجاج اليمنيين ، وفرضت عليهم الإتاوات الباهظة ، فكان ينوب كل جمل يخرج من مدن اليمن مثل تعز أو زبيد حتى يصل إلى مكة المعظمة مائة درهم سواء كان حاجاً أو تاجراً أو معه شيء أو لا شئ معه ، وكانت قبيلة بنى شعبة التى تسكن جنوب مكة وتنتشر بصورة خاصة فى وادى أوام وما حولها حتى وادى الخضراء ، من أشد القبائل خطورة على الحجاج القادمين من اليمن ، وقد تمادى الشعبيون فى نهب الحجيج ، واعتمدوا من الوجهة الاقتصادية حتى أسموه "جفنة الله" فكانوا يقولون : إذا حضر جفنة الله "الحاج" أكل منه الصادر والوارد وأخذ الشعبيون يعتمدون على الحجاج وينهبونهم فى بعض المشاعر حتى لقد تعذر عليهم المبيت بمنى يوم التروية ، بل أخذوا يتجاوزونها إلى عرفات ، كما كانوا يتعجلون العودة إلى مكة المكرمة من منى فى اليوم الثانى من أيام

التشريق ، وحتى بعد انتقالهم إلى منازلهم الجديدة فى درب ملوح الذى عرف فيما بعد باسم درب بنى شعبة ، وسلم لذلك الحجاج فى مكة من شرهم ، فإنهم كانوا يسيطرون على جزء من الطريق اليمنى ، والظاهر أنهم اختاروا هذا لممارسة نشاطهم ضد حجاج اليمن بعيداً عن أعين الحكومات القومية التى قامت بمكة فيما بعد(١٠٨) .

وفى ظل هذه المخاطر لاقى هذا الطريق اهتمامات عدة من قبل المسئولين ، فقد تولى الحسين بن سلامة"١٠٩" الوزير فى بلاط الدولة الزيدية أواخر القرن الرابع الهجرى تأمين طريق الحج اليمنى ، فأنشأ الجوامع الكبار والمنارات الطوال من حضرموت إلى مكة ، ولما حج على بن محمد الصليحى سنة ٤٥٥هـ قام ببعض الإصلاحات فى طريق مكة ، وعمل على تذليل الصعوبات التى كانت تعترض ركب الحجيج ،

---

108 – محمد بن احمد العقيلى ، قبيلة بن شعبة ، مجلة العرب ، جماديان سنة ١٣٩٤هـ ، حـ ١١ ، ١٢ ، ص ٨٩٢.

109– أسهم الحسين بن سلامة الولي الجديد في الكثير من المهام الصعبة فقام بمحاربة المنشقين، وتمكن من استرجاع ما انسلخ عن جسد الدولة ومملكة محمد بن إبراهيم الزيادي الأولى، واختط الحسين مدينة الكدرا على وادي سهام ومدينة المعقر على وادي ذُوال، وأنشأ العديد من الجوامع والمساجد، ودوّن اسمه على عدد من الأعمدة الرخامية التي كانت توضع على واجهات المساجد كجامع زبيد، ومسجد الأشاعر، ومسجد الرباط بأَبْيَن الذي يعتبر أحسن المساجد وأوسعها، وكذلك أقام المنارات الطوال والآبار في المفاوز المنقطعة وبنى الأميال (منار يُبنى للمسافر يهتدي به ويدرك المسافة والفراسخ) على الطرقات، على امتداد المنطقة من حضرموت حتى مكة المكرمة، وكان أول من أنشأ سوراً حول مدينة زبيد، وغدا بهذه الأعمال الحاكم، وهو الشخص الذي تذكر إنجازاته. ولم يزل الحسين على هذه الصورة المرضية والهمة العالية في التصدي للمنشقين والخارجين على سلطة الدولة والإنشاءات المتتالية في مختلف الأماكن حتى وافته المنية عام ٤٠٢ أو ٤٠٣هـ/١٠١١ـ١٠١٢م، ولم تشر المصادر إلى المصير الذي آل إليه مصير ولي العهد عبد الله .

ولعل فى مقدمة ذلك تأديب القبائل المسيطرة على هذا الطريق ، والتى كثيراً ما تعتدى على الحاج اليمنى [١١٠].

<u>طريق عمان مكة امتداد للطريق اليمنى:</u>

وبامكان حجاج عمان اخذ احد الطريقين من اليمن كما هو واضح بالشكل " ":

الأول : عن طريق الحج الساحلي الموازي لساحل البحر الاحمر الذي يمر بعدد من المخاليف والمنازل حتى الشعيبة ثم جدة فمكة.

وذكر "ابن خرداذبه" طريقاً ساحلياً ربط "عمان" بمكة، وهو الطريق الذي سلك في الإسلام. وقد كان جاهلياً ولا شك، لأن الجاهليين والروم وغيرهم كانوا يساحلون العربية الغربية والجنوبية والشرقية، ويهبطون بعض المواضع التي يذكرها المسلمون كمراحل هذا الطريق. ويبدأ الطريق بعمان، ثم يمر إلى "فرق"، ثم إلى "عوكلان"، ثم إلى ساحل "هباه" "هماه"، ثم الى "الشحر"، وهي بلاد "الكندر"، ثم إلى مخلاف "كندة"، ثم إلى مخلاف "عبد الله بن مذحج"، ثم إلى مخلاف "لحج"، ثم إلى "عدن أبين"، ثم إلى" مغاص اللؤلؤ"، ثم إلى "مخلاف بني مجيد"، ثم إلى "المنجلة"، ثم إلى مخلاف الركب، ثم إلى المندب، ثم إلى مخلاف زبيد، ثم إلى غلافقة، ثم الى مخلاف عك، ثم إلى الحردة، ثم إلى مخلاف حكم، ثم إلى عثر، ثم إلى مرسى ضنكان، ثم إلى مرسى حلي، ثم إلى السرين، ثم إلى أغيار، ثم إلى الهرجاب، ثم إلى الشعيبة، ثم إلى منزل لم يذكر "ابن خرداذبه "اسمه، ثم إلى "جدة" وهي اسلامية،

---

110 – احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٧ .

لم تكن في الجاهلية، وإنما ذكرت هنا، لأن هذا الطريق، كان يسلك في الإسلام، ومن جدة إلى مكة([111]).

الثانى : بامكان حجاج عمان اخذ الطريق الداخلي من اليمن الى مكة مرورا بعدد من المنازل بعضها لا يزال معروفا حتى اليوم وصولاً الى مكة. ويوجد بين مكة وحضرموت يمر ب "نجران" و "الضحيان" و "تثليث"، وهو طريق مختصر يكون الجادة إلى حضرموت.

وذكر "الهمداني" إن محجة حضرموت من العبر إلى الجوف، ثم صعدة، وتنضم معهم في هذه الطريق أهل مأرب، وبيحان، والمسّروين، ومرخة، وهذه محجة حضرموت العليا .وأما محجتها السفلى، فمن العبر في شئز صيهد إلى نجران، ثم من نجران حبونن، ثم الملحات، ثم لوزة، ثم عبالم ثم مريع، ثم الهجيرة، ثم تثليث، ثم جاش، ثم المصامة، ثم مجمعة ترج، والتقت يمحجة صنعاء بتبالةْ([112]).

إضافة لما سبق ، هناك طريقان من عمان الى مكة احدهما يأخذ من عمان الى يبرين ثم الى البحرين فالساحل الشرقي للمملكة العربية السعودية ومنها الى اليمامة ثم الى ضرية شكل (٨).

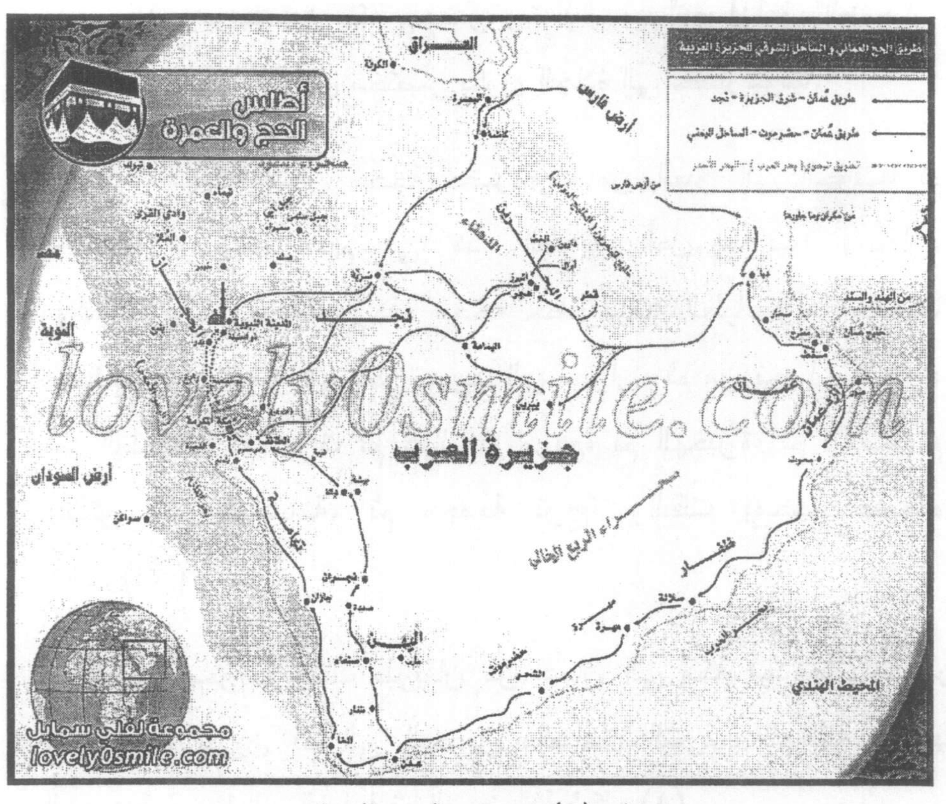
---

111 - ابن خرداذبه ، مرجع سبق ذكر ، ص ٧٥ .

112- الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق/ محمد بن علي الأكوع الحوالي ، مكتبة الإرشاد - الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.

http://www.archive.org/download/siftjazirt/1575.pdf

وتذكر المصادر الجغرافية ان ضرية كانت ملتقى حجاج البصرة والبحرين وهناك يفترقون اذا انصرفوا من الحج فيأخذ حجاج البصرة ذات الشمال وحجاج البحرين ذات اليمين وهناك طريق اخر من عمان يتجه الى فرق ثم عوكلان ثم الى ساحل هباة وبعدها الي شحر.

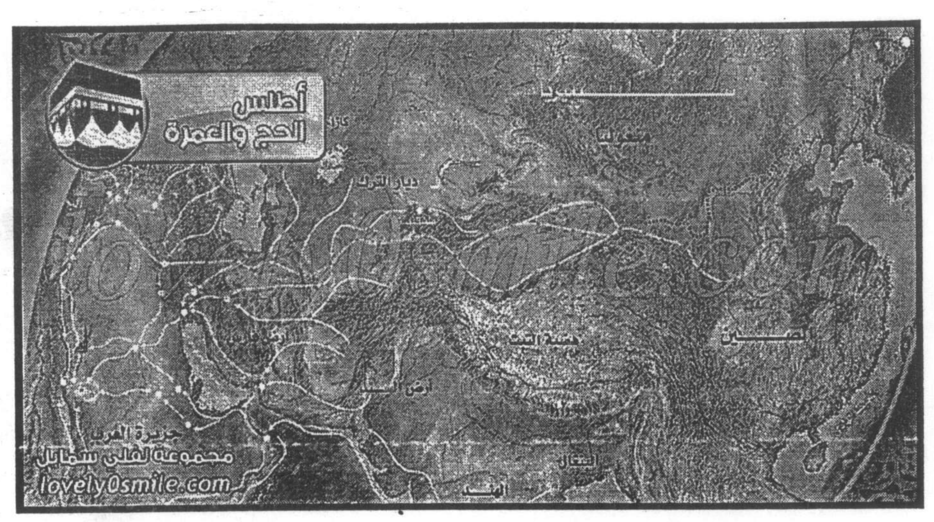


شكل (٨) دروب الحج العمانى

وجدير بالذكر يعد الدرب العمانى أو اليمنى أو العراقى أو الشامى ملتقى للدروب المتعددة التى تأتى من شتى أنحاء القارة الآسيوية ، كمـا هـو واضح بالشكل (٩)، حيث يشير الخط الأبيض بالصورة أعلاه إلى

مسارات قوافل حجاج أسيا نحو الديار المقدسة في العصور القديمة وقبل بدايات اختراع وسائل النقل الحديثة.

- أما الخط الأصفر فهو طريق الحرير بين شرقي قارة أسيا وقارة أوروبا في العصور القديمة، وتمثل النقاط محطات للقوافل(١١٣).



شكل (٩) ملتقى دروب الحج الأسيوى .

---

113 - للاستزادة فى ذلك أنظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، تجارب الأمم ، مصر ، ١٩١٤م ، الجزء الثانى ، ص ٢١٥ وما تلاها.

الفصل الخامس

"طريق الحج المصرى"

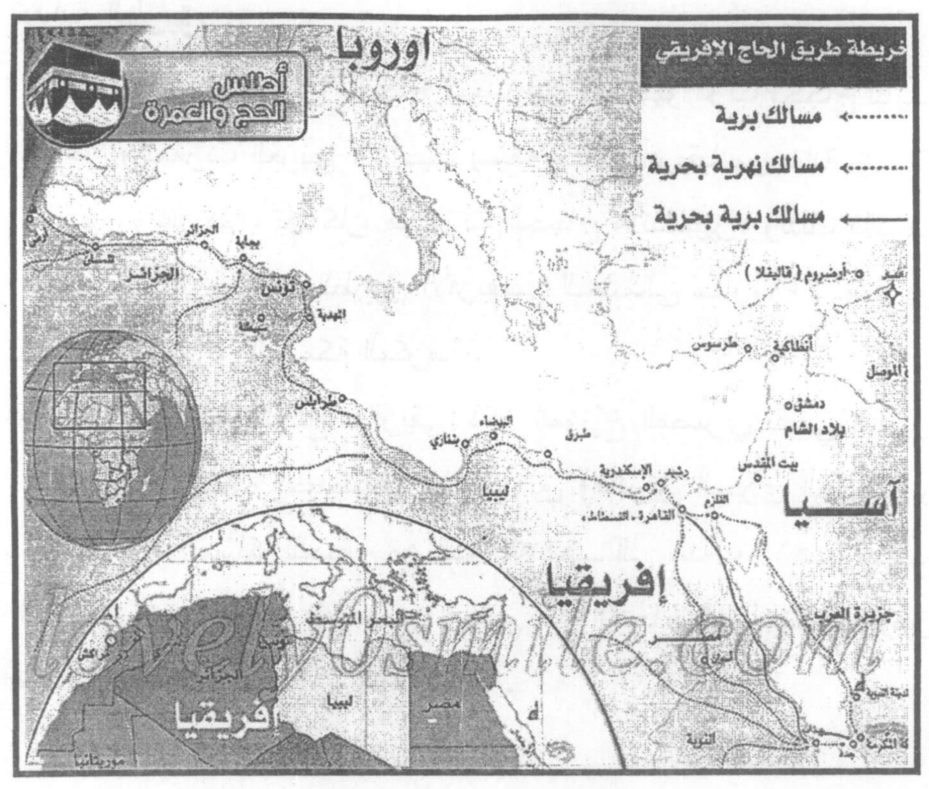
بداية الطريق :

هذا الدرب المهم لم يكن للحجاج المصريين فقط فهو درب لحجاج ليبيا وتونس والمغرب العربي ، وأحياناً يسلكه حجاج أفريقيا من غانة وبلاد التكرور وغيرهم ، بل كان هو درب الحجاج الأندلسيين، ولذلك فالدرب المصرى يبدأ يبدأ من الطريق الأفريقى الشمالى مروراً بالطريق البحرى المصرى إلى مكة المكرمة .

وعن بداية طريق الحاج الإفريقي: ذكر المؤرّخ المصري تقي الدين المقريزي في كتابه الخطط: أن هذا الطريق (الطريق البحري المصرى إلى مكة) ظلّ مسلكاً للحجاج من سنة ٤٥٠هـ إلى سنة ٦٦٠هـ، ومع انتهاء الوجود الصليبي في مصر والشام عاد الحجاج إلى استخدام طريق سيناء والبحر الأحمر مرةً ثانيةً لنشاطه.

تبدأ القوافل حجاج بلاد المغرب الإسلامي بالانطلاق من مدن المغرب، كمراكش، وفاس، وسلا ، شكل (١٠) وأحياناً كانت تضم حجاج السنغال، وبعد تجمُّع الحجاج تنطلق قافلتهم سالكةً إما الطريق البرّي المحاذي للبحر المتوسط، أو الطريق البحري عبر البحر المتوسط"[١١٤].

114– أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (المتوفى : ٨٤٥هـ) ، الخطط المقريزية: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الكتاب من النصوص الحرة. http://www.shamela.ws/open.php?cat=27&book=554



شكل (١٠) دروب حج الشمال الإفريقى الموصلة للطريق المصرى .

واعتادت هذه القافلة أن تكون على موعد مع غيرها من قوافل الحج للحجاج الجزائريين، والتونسيين، والليبيين؛ وذلك لمرور طريق الحج بمدن المهدية، وصفاقس، وسوسة، وطرابلس وبرقة، وطبرق، ثم تعبر هذه القوافل مجتمعةً الأراضيَ المصرية بمحاذاة الساحل حتى تصل إلى ميناء الإسكندرية، ثم رشيد، وبعدها تركب قوافل الحجاج المراكب النيلية عبر فرع رشيد، إلى أن تصل جميعها إلى القاهرة، وتلتقي مع قافلة الحج المصرية حتى تأنس بها ذهاباً وإياباً عند مكان شمالي القاهرة كان يُعرَف

آنذاك ببركة الحاج، وموقعه حالياً القرية المعروفة باسم البركة، إحـــدى قُرى مركز شبين القناطر محافظة القليوبية.

كان الخروج للقافلة المصرية إلى مكة عن طريق البر فى موسم الحـــج يسبقه النداء الذى محتواه "يا معشر المـــسلمين ، حـــل موســم الحـــج ، وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد وسيكون معه الجنود والخيل والجمـــال والزاد" وهذا النداء كان يتم فى شهر رمضان فى عهد ناصر خسرو أما فى عهد المقريزى فكان ينادى بذلك فى شهر رجب ، وبعد أن يـــستكمل الحجاج استعداداتهم يبدأون السفر من القاهرة فى أول ذى القعدة(١١٥) .

الاحتفال المصري بالمحمل وكسوة الكعبة :

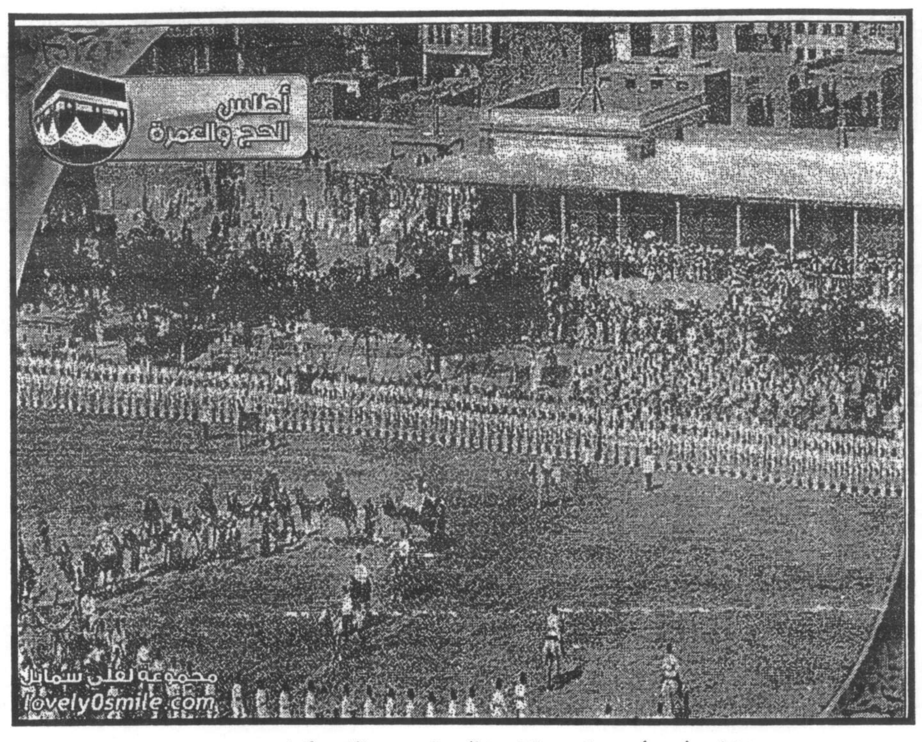
المحمل المصرى"١١٦" هو الموكب الذي كان يخرج من مصر كل عـــام حاملا كسوة الكعبة فى احتفال مبهر كما فى الـــشكل (١١) وظـــل هـــذا المحمل يخرج منذ عهد شجر الدر وعهد المماليك حتى بداية عهد جمال

---

[115] – ٦٤– على باشا مبارك ، الخطط التوفيقين ، الجزء التاسع ، ص ١٦ .

[116] – المحمل فى لغة: شقتان على البعير يحمل فيهما العديلان ومنها الهودج التي هي مراكب للنساء على الجمال وهو يختلف عن المحفة من حيث إن المحفة لا سقف لها في حين أن الهودج له سقف (مقبب). وبالنسبة لقافلة الحج فإن اصطلاح المحمل يعني؛ هيكلا خشبيا يعلوه هرم أو قبة مزين بالحلي والنفائس يحمله جمل قوي مزين هو الآخر بمختلف أنواع الحرير ومغطى بفاخر القماش. وكان بداخل المحمل مصحف مغطى بالحرير. مع ذلك فان (المحمل) هذا لم يكن يشكل جزءا من طقوس الحج ولا من متطلبات قافلة أو ركب الحج وكذلك لا يستفاد منه للركوب بل ولا ينقل فيه شيء من المتاع أو الأغراض المتعلقة بالقافلة أو بأمير الحج بل كان كل ما (يحمل) فيه هو نسختان من القرآن الكريم. فهو والحال هذه لا يعدو عن كونه رمزا يمثل السلطة التي يعود إليها ركب الحج المصاحب للمحمل .

الحجاج المصريين. وتتجمع الشرطة في حضور عدد كبير من المواطنين، وهم يودعون كسوة الكعبة إلى الأراضي المقدسة (١١٨) .



شكل (١١) مراسم الاحتفال بكسوة الكعبة فى مصر .

وعند خروج المحمل كان المحمل يطوف الشوارع قبل الخروج إلى الحجاز وكان يصاحب طوفانه العديد من الاحتفاليات كتزيين المحلات التجارية والرقص بالخيول وكان الوالي أو نائب عنه يحضر خروج المحمل بنفسه الذي يحمل كسوة الكعبة التي تعتبر أقدس الأماكن عند المسلمين. وموكب المحمل عبارة عن جمل يحمل المحمل يمر في

118- رحلة ناصر خسرو ، فى أماكن متعددة ، نقلاً عن : احمد على الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ١٠١ ، ١٠٢ .

شوارع القاهرة ويخرج خلفه الجمال التي تحمل المياه وأمتعة الحجاج وخلفه الجند الذين سيحرسون الموكب حتى الحجاز وخلفهم رجال الطرق الصوفية الذين يدقون الطبل ويرفعون الرايات. والمحمل نفسه هو عبارة عن هودج فارغ يقال أنه كان هودج شجرة الدر أما الكسوة نفسها فكانت توضع في صناديق مغلقة وتحملها الجمال.

ثم تُواصل جميع القوافل مسيرتها برّاً حتى تصل إلى ميناء القلزم (السويس حالياً)، ومنها إما مواصلة الطريق البري عبر سيناء، ثم محاذاة البحر الأحمر برّاً إلى مدينة جدة، أو تبحر القوافل في السفن عبر البحر الأحمر إلى ميناء جدة، ومنها برّاً إلى المدينة، ثم إلى مكة المكرمة ـ شرفها الله تعالى .

مسار الحج المصرى :

قد تغير مسار الدرب المصري عبر القرون بحسب الظروف السياسية والتطور التقني . وقد قسم علي غبان المراحل التي مر بها درب الحج المصري الى أربع مراحل كما يلى :

المرحلة الأولى:

وتمتد من الفتح الإسلامي لمصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري وكان للطريق خلالها مساران في الجزيرة العربية:أحدهما داخلي والاخر ساحلي ، وهو الذي ذكره ابن حوقل (القرن الرابع) وصف الدرب في عصره بقوله: ومن مصر الى المدينة على الساحل عشرون مرحلة ومجتمعهم مع أهل الشام بأيلة وفي ضمن المصريين يحج المغاربة وربما

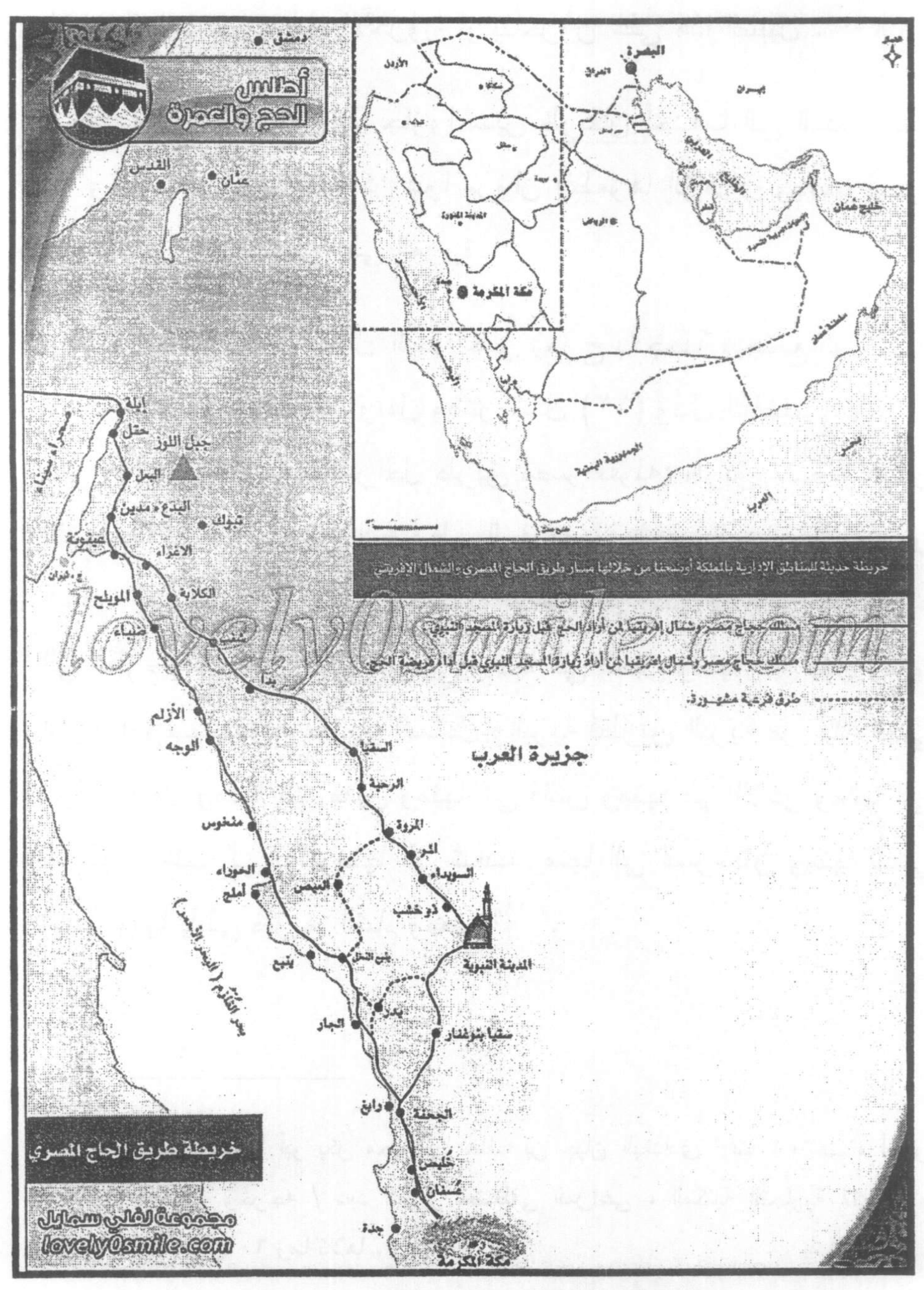
تفردوا بأنفسهم الا انهم يتفقون في مناخ واحد وربما تقدموا فيكون بينهم ان ينزل احدهم ويرحل الآخرون او يتأخرون على هذا السبيل .

ولأهل مصر وفلسطين اذا جازوا مدين طريقان أحدهما الى المدينة على بدا و شغب قرية بالبادية كن بنوا مروان اقطعوها الزهري وبها قبره حتى ينتهي الى المدينة على المروة .

وطريق يمضي على ساحل البحر حتى يخرج بالجحفة فيجتمع بها أهل العراق ودمشق وفلسطين وأهل مصر شكل (١٢) وقال القاضي وكيع (ت ٣٠٤هجري) معدداً مراحل طريق مصر بقوله: طريق مصر من الفسطاط الى الجب ومن الجب الى الحفر ومن الحفر الى البويب ومن البويب الى منزل ام سعد ومن منزل ام سعد الى عجرود ومن عجرود الى القلزم ومن القلزم الى الكرسي ومنها الى الحفر ومنها الى نخل ومنها الى أيلة ومنها يفترق طريق الساحل والبرية فطريق البرية من أيلة الى شرف البعل ومنها الى مدين ومنها الى فالس ومنها الى الأغر ومنها الى الكلابية ومنها الى بدا ومنها الى شغب ومنها الى السرحتين ومنها الى السقيا وبها يلتقي طريق الشام ومصر"[١١٩].

---

119 – القاضى وكيع " أبو بكر محمد بن خلف بن حيان البغدادى " ت ٣٠٦هـ"، أخبار القضاة ، صححه وخرجه / عبد العزيز مصطفى المراغى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ج٢ ، ص ٦٠ وما تلاها .



شكل (١٢) طريق الحج المصرى البرى .

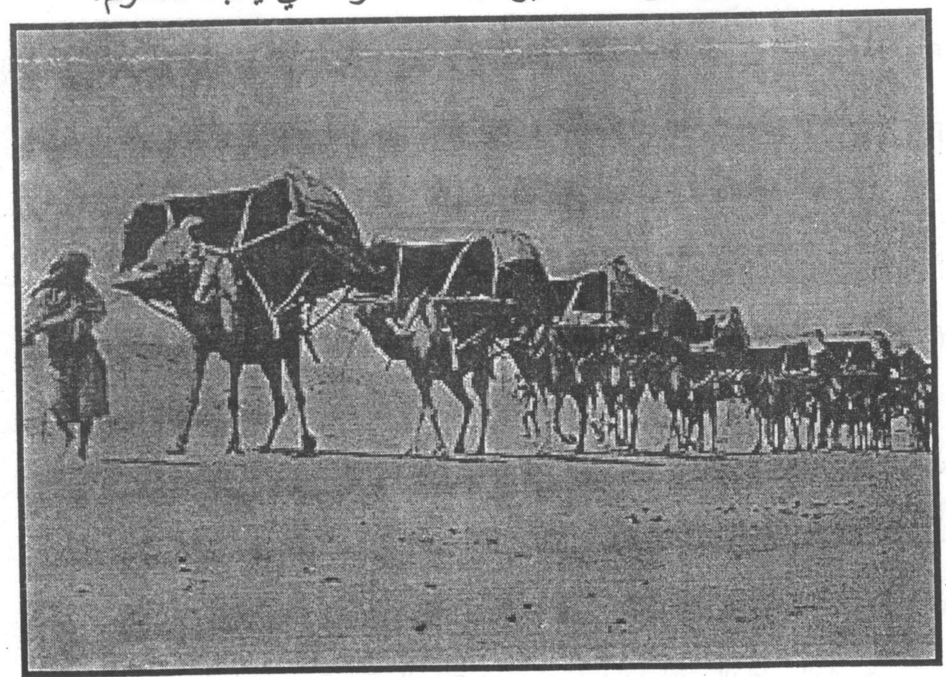
في النيل من الفسطاط إلى "قوص" مارين بالعديد من المدن، والقــرى على ضفتي النيل ــ التي كانت تمتاز بكثــرة أســواقها، ومرافقهــا، وكانت ملتقى الحجاج، والتجار من مختلف الأنحاء"[١٢٠].

وهي رحلة كانت تستغرق ثمانية عشر يوماً في النيل. وكان الحجــاج يستريحون بعض الشيء في "قوص"[١٢١] "وهي مدينة تعــد حاضــرة ثقافية في مصر الإسلامية"؛ انتظاراً لانتقالهم إلى ميناء عيذاب" علــى البحر الأحمر بعد أن يتزودوا بما يحتاجون إليــه، ويجتمعــون فــي "المبرز"ــ قبلي قوص – وهناك يتم وزن أمتعتهم، وأثقــالهم؛ لتقــدر

120– المقريزى ، خطط المقريزى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٦٥ وما تلاها .

121– قوص مدينة ومركز بمحافظة قنا. وتقع علي الساحل الشرقي من النيل جنوب القاهرة بحوالي ٦٤٥ كم، كانت قوص عاصمة للصعيد ومعبر الحجاج إلى البحر الأحمر. يقول عنها عباس محمود العقاد: "ليس في وادي النيل بلد أوفى أخباراً من قوص في المراجع العربية بعد القاهرة والإسكندرية" ، أما في المراجع الأخرى فقوص هي "قيسيت" الفرعونية القديمة ، وهي في اليونانية بلد أبوللون رب الفنون، لأن أبوللون عند اليونان يقابل حورس الأكبر الذي يعتقد المصريون أنه ولد في قوص ، وقوص ذكرها العديد من المؤرخين والرحالة فقد زارها الشريف الإدريسي وأوردها في كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" فقال : "ومدينة قوص مدينة كبيرة" كما ذكرها أيضاً الحموي وابن ،فقد قال ابن جبير عنها "وهذه المدينة حفيلة بالأسواق متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار اليمنيين والهنديين وتجار أرض الحبشة لأنها مخطر للجميع ومحط للرحال ومجتمع الرفاق" ، بينما يقول عنها العلامة القلقشندي في موسوعته "صبح الأعشى في صناعة الإنشا: " مدينة جليلة في البر الشرقي عن النيل ذات ديار فائقة ورباع أنيقة ومدارس وربط وحمامات يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال وبها البساتين المستحسنة".

الأجرة عليها حيث تحمل أصحابها على ظهور الإبل، ويمكن استخدام غيرها من وسائل النقل عبر الفيافي المقفرة، التي تقل فيهـا الميـاه، وكان أصحاب الجاه، والثراء يركبون "الشقاديف" شكل (١٣) ــ وهي أشباه المحامل ــ وأحسن أنواعها اليمانية وهي مجلدة متسعة، يوصل الاثنان منها بالحبال الوثيقة، وتوضع على الإبل، ولها ذراع قد حفت بأركانها، ويكون عليها مظَلَّة، فيكون الراكب مع عديله فـي وقايـة الشمس المحرقة ، خصوصاً وقت الهاجرة، ويجلـس فـي مكـان أو يتكئ، دون أن يشعر بالتعب، ويتناول أحياناً مع عديلـه الطعـام، أو يقرأ في مصحف، أو يلعب شطرنج مـع عديلـه إذا أحبا اللعـب؛ للترويح من عناء السفر. أما أغلب المسافرين فكانوا يركبـون فـوق الأحمال، ويقاسون من ذلك كثيراً؛ لشدة الحر الذي يشبه السموم.



شكل (١٣) الشقاديف أحدى وسائل نقل الحجاج .

وبعد الانتهاء من الإجراءات يقلع الحجيج من "المبرز" إلى "عيذاب" عبر الصحاري القفرة في حوالي ثمانية وثلاثين يوماً، إذ تقطع الرحلة من "الفسطاط" إلى "عيذاب" في حوالي ستة وخمسين يوماً، نستدل ذلك من رحلة " ابن جبير " إذ سار من "الفسطاط" في السادس من المحرم سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م فوصل "عيذاب" في الثاني من شهر ربيع الأول من نفس العام. وعيذاب صحراء لا نبات فيها، وكل ما فيها مجلوب حتى الماء.

وبعد وصول الحجاج إلى عيذاب، كانوا ينتظرون أياماً صعبة؛ لعدم توفر الغذاء الضروري لحياة الإنسان، وإضافة إلى سوء أحوال الطقس، والطبيعة القاسية في هذا المرفأ، فهو كما وصفه ابن جبير" كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والعطش أشهى إلى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام، وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام،... فهي ماء زعاق، وجو كله لهب، فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل إلى البيت العتيق،... وما أعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه لاسيما في تلك البلدة!...، وقد وصفت هذه المدينة في الخيال الشعبي بأن النبي سليمان بن داود عليه السلام جعلها "سجناً للعفاريت".

بعد تلك المعاناة التي كان يلقاها الحجاج في عيذاب يركبون الجلاب إلى جدة، والجلاب هو نوع من المراكب التي كانت تسير في المحيط الهندي، والبحر الأحمر، ومفردها جلبة، وهي عبارة: عن قارب كبير، أو قنجة مصنوع من ألواح موصولة بأمراس ألياف النارجيل،

نبط في مرحلتين وماؤه عذب، ثم إلى ينبع في خمس مراحل ويقيم عليه ثلاثة أيام، ثم إلى الدهناء في مرحلة، ثم إلى بدر في ثلاث مراحل، ثم يرحل إلى رابغ في خمس مراحل، وهي بازاء الجحفة التي هي الميقات، ثم يرحل إلى خليص في ثلاث مراحل، ثم إلى بطن مر في ثلاث مراحل، وفي طريقه بئر عسفان، ثم يرحل من بطن مر إلى مكة المشرفة مرحلة واحدة"[١٢٣].

ووصف القلقشندي(ت ٨٢١هجري) الرحلة وزمنها فقال : عادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مرحلتين بسير الأثقال، ودبيب الأقدام "ويقطعونها كلها" في شهر ، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة والينبع نحو ستة أيام.أما من يسافر على النجب مخفا مع الجد في السير فإنه يقطعها في نحو أحد عشر.

ثم يصف المراحل في عصره وقد حج هو نفسه على هذا الدرب بقوله :

أول مصيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة ببركة الحاج؛ ثم منها إلى البويب، ثم منها إلى الطليحات، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلى مراكع موسى، ثم منها إلى عجرود – وبها بئر ومصنع ماءٍ متسع يملأ منها – ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلى وادي القباب – وهو كثير الرمل – ثم منها إلى أول تيه بني إسرائيل – وهو وادٍ أفيح متسع – ثم منها إلى العنق، ثم منها إلى نخل – وبها ماء طيب – ثم منها إلى جسد الحي، ثم منها إلى بئر بيدرا، ثم منها إلى تمد الحصا، ثم منها إلى ظهر العقبة، ثم

---

[123]– ابن فضل الله ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، قسم مصر ، تحقيق / أيمن فؤاد السيد ، طبع القاهرة ، ص ٤٤ وما تلاها .

منها إلى سطح العقبة – وهو عرقوب البغلة على جانب طرف بحر القلزم، وفيها ماء طيب من حفائر – ثم منها إلى حفن على جانب طرف بحر القلزم – وفيها ماء طيب من الحفائر – ثم منها إلى عش الغراب، ثم منها إلى آخر الشرفة، ثم منها إلى مغارة شعيب – وبها ماء ومصنع – ثم منها إلى وادي عفان، ثم منها إلى ذات الرخيم، ثم منها إلى عيون القصب – وبه ماء نبع وأجمة قصبٍ نابتة فيها – ثم منها إلى المويلحة – وبها ماء في آبار – ثم منها إلى المدرج، ثم منها إلى سلمى مجاور بحر القلزم – وبها ماء ملح – ثم منها إلى الأتيلات، ثم منها إلى الأزنم، والناس يقولون: الأزلم باللام بدل النون، وبه آبار بها ماء رديء يطلق بطن من شربه، لا يسقى منه غالباً إلا الجمال، وهي نصف الطريق – ثم منها إلى رأس وادي عنتر، ثم منها إلى الوجه، وبه آبار قليلة الماء، وما هو داخل الوادي يعز الماء فيه غالباً ولا يوجد فيه إلا حفائر، ويقال: إنه إذا طلعت الشمس عليه نضب ماؤه، وفيه يقول بعض من حج من الشعراء وعز عليه وجود الماء فيه: إذا قل ماء " الوجه" قل حياؤه ولا خير في" وجهٍ" بغير حياء!

ثم منها إلى المحاطب، ثم منها إلى أكرا، ثم منها إلى رأس القاع الصغير، ثم منها إلى قبر القروي، ثم منها إلى كلخا، ثم منها إلى آخر القاع الصغير، ثم منها إلى الحوراء، وبها ماء غير صالح، ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيقٍ بفتحها، وهو مضيق صعب – ثم منها إلى مغارة نبط، وبها ماء عذبة ليس بطريق الحجاز أطيب منها، ثم منها إلى وادي النور، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل، ثم منها إلى آخر وادي النور، ثم منها إلى رأس السبع وعرات، ثم منها إلى دار البقر، ثم

منها إلى الينبع، وهي النصف والربع من الطريق، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العودة، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم – ثم منها إلى المحاطب في الوعر، ثم منها إلى رأس وادي بدر، وهي منزلة حسنة بها عيون تجري وحدائق – ثم منها إلى رأس قاع البزوة، ثم منها إلى وسط قاع البزوة، ثم منها إلى رابغ، وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر، وبها يحرم الحجاج ولا يغشون الجحفة، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنقل حمى المدينة إليها بقوله: " وانقل حماها إلى الجحفة" فلو مر بها طائر لحم قديد بضم القاف، ثم منه إلى عقبة السويق ثم منها إلى خليص – وبه مصنع ماء – ثم منها إلى عسفان ثم منها إلى مدرج علي، وهو كثير الوعر، ثم منه إلى بطن مر، والعامة يقولون: مرو، بزيادة واو، وبه عيون تجري وحدائق – ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها، ثم من مكة إلى منى، وبها ماء طيب من آبار تحفر، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة، ثم منها إلى عرفة وهي الموقف، وإليها ينتهي سفر الحجاج.ثم العود في المنازل المتقدمة الذكر إلى وادي بدر على عكس ما تقدم"[١٢٤].

ولعل عبد القادر الجزيرى الحنبلى من أفضل من كتب عن دروب الحج وقافلة الحجاج هو هذا العلامة متعدد المواهب .ولد عام ٩١١هـ ، وكان والده كاتب ديوان الحج (بمعنى انه المسؤول عن ميزانية الحج وتنظيم المشتريات والمصاريف وعوائد العرب وغيرها) وقد ورث والده في هذه

---

124 – أحمد بن على بن أحمد الفزارى القلقشندى " ٧٥٦-٨٢١هـ/ ١٣٥٥-١٤١٨م" ، صبح الأعشى فى قوانين الإنشاء ، ج٤ ، طبعة مصر ١٩١٤م ، ص ١١٢ وما تلاها .

الوظيفة منذ عام ٩٤٠هـ في أواخر عهد المماليك ثم بدايات العثمانيين واستمر في هذه الوظيفة أكثر من عشرين عاماً.كان الجزيري دقيقاً في كتاباته ويدل على هذا أنه كان يقيس المسافات الزمنية بآلة تشبه الساعة ويحدد وقت الاقامة والرحيل فيقول: ما حررته سنة ٩٥٥ هجري بمنكابين (المكاب نوع من الساعات)محررين: اما الطلعة فأربعة أرباع ساعاتها ٤٢٤ ساعة وثلثان من الساعة ومنازلها ٥٤ منزلة لا غير ، عن ذلك بحكم الدرج ٦٧٧٠درجة .

الربع الأول:١٦ منزلة من صحراء القاهرة الى عقبة أيلة وهو قليل الماء والشجر ساعاته ١١٢ ساعة وثلث من الساعة يكون عن ذلك بحكم الدرج ١٦٨٥درجة .

الربع الثاني(وهو موضوع رحلة فريق الصحراء هذا العام) وهو ١١ مرحلة وقال عنه انه أقصر الأرباع وهو أكثر مياه من الذي قبله وشجره كثير الى الغاية ساعاته ٩٥ وثلث من الساعة عنها بحكم الدرج ١٤٣٠درجة .

ظهر الحمار-١٠٠ درجة-وادي عفان-٢٦٠درجة-المظلو-٩٠درجة-مغارة شعيب-١٣٠ درجة-قبر الطواشي-٧٠ درجة-عيون القصب-١٦٠درجة-الشرمة-٧٥درجة-المويلح-١٤٠درجة-دار السلطان-١٢٥درجة-سيدي مرزوق-١١٠درجة-الأزلم-١٧٠درجة ، ثم ذكر دركه انه للرشيدات من بني عطية الى كبيدة جنوب مغارة شعيب ثم يكون الدرك لبني عقبة الى حدرة دامة ثم يكون الدرك لبلي .

الربع الثالث:١٤ مرحلة وهو من الأرباع المعطشة ان لم يكن بالوجه ماء وأطولها وأوحشها، ساعاته ١١٥ ساعة عنها ١٧٢٥درجة .

تلبة-١٦٠درجة -الشرنبة-١٠٠درجة-الوجه١٤٠درجة.

الربع الرابع من ينبع الى مكة المكرمة ١٣ مرحلة قال عنه :انه لطيف مأنوس ساعاته ١٠٢ عنها بحكم الدرج ١٥٣٠درجة .

ومما يشتمل عليه ديوان امرة الحاج ومسئوليات الجزيري: تجهيز الحمول، تجهيز الجمال وكان عدد الجمال للحملة يتراوح بين ١٤٠٠ الى ١٦٠٠ بعير وقد تقل الى ٨٠٠ في بعض السنيين وهذه فقط جمال الحملة الرسمية التي ينظمها الجزيري حسب الميزانية ولا تشمل جمال الحجاج، وكان الجزيري بحكم انه كاتب امرة الحج مسئولاً عن جامكية(رواتب)الموظفين الملحقين بالحملة واذا كنت أيها القاريء العزيز تظن أن هذا أمر بسيط فاليك نموذج من الوظائف التي لها جامكية كنموذج على مدى عظمة حملة الحج المصرية"[١٢٥] .

<u>المرحلة الرابعة من ١٣٠١ الى الآن :</u>

توقف استخدام الطريق البري وصروا يسافرون بحرا من السويس. وجوا الى جدة.

---

[125]– عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيرى الحنبلى ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، تحقيق / محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م ، ج١ ، ص ١١٦ما تلاها .

حالة الأمن فى الطريق المصرى :

ولم يكن طريق الحجيج المصرى إلى مكة بأحسن حالاً من الطريق العراقى واليمنى فى صعوبة اجتيازه ، فقد كانت تعترضه الكثيرً من الصعوبات والأخطار من وقت إلى آخر ، على أن ما حدث فى أواخر سنة ٣٥٤هـ كان قمة تلك الكوارث التى تنزل بالحاج وتعطل الحج إلى مكة المكرمة ، فقد قطع بنو سليم الطريق على قافلة المغرب والشام ومصر الحاجة إلى مكة المكرمة ؛ إذ كانت قافلة عظيمة ضمت إلى جانب الحجاج الكثير من التجار القادمين من الشام هرباً من الروم ، وكانوا قد خرجوا بأموالهم وأهليهم وقصدوا مكة ليسيروا منها إلى العراق ، فتمكن بنو سليم من اعتراضهم وقتلوا الكثير منهم ، واستولوا على جميع الأمتعة والأموال وعاد من بقى من الناس إلى مصر والشام . وهذه الحادث كانت من الشدة والقسوة بحيث شبهها البعض بتلك التى أحدثها القرامطة بحجاج العراق وخرسان فى الهبير سنة ٣١٢هـ [١٢٦] .

وفى ظل هذه الظروف لا يمكن إنكار الاهتمام من قبل أولى الأمر فى مصر ، بأمر الحجيج ، فكان الإخشيديون يدفعون للقرامطة مقابل حماية الحجاج فى الطريق المصرى وعدم التعرض لهم ثلاثمائة ألف دينار [١٢٧].

126– للاستزادة فى ذلك أنظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، تجارب الأمم ، مصر ، ١٩١٤م ، الجزء الثانى ، ص ٢١٥ .

127 – المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، الجزء الأول ، ص ١٨٦ .

بل أن الفاطميين كانت عليهم تعهدات مالية تجاه قبائل الجزيرة العربية ، وكانت نفقات الجيش المرافق للقافلة السلطانية بلغت "ستين ألف دينار مغربى عدا التعهدات والصلات والمشاهدات وثمن الجمال التى تنفق فى الطريق" . وكانت عيذاب قد أصبحت مسلكاً للحجاج منذ كانت الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر ، وانقطع الحج عن طريق البر ، حتى يأمنوا طلبات القبائل الفادحة (١٢٨) .

متى انتهى درب الحج المصري عبر البر؟

يمكن اعتبار افتتاح قناة السويس وتطور السفن من أهم أسباب ترك الحجاج للبر وتفضيل البحر عليه فقد كثر عبور السفن من قناة السويس وقد يستغلون فراغ سفنهم بكسب المال عن طريق نقل الحجيج .

بدأت ظاهرة نقل الحجاج بالبابور البحري كما أرخها مؤرخ جدة بين عامي ١٢٧٥-١٢٧٩هجري .وقد كان الانجليزي ريتشارد بيرتون الذي كان في المويلح عام ١٢٩٥-١٨٧٨م شاهد عيان على تدهور القافلة السنوية بقوله: عندما عدنا الى المويلح كانت قافلة الحج قد فاتتنا وهي عائدة الى مصر ،لقد تدهورت حالة قافلة الحج من عزها منذ ربع قرن فبعد ان كانت تقاد من قبل باشا او اثنين صار يرأسها رجل برتبة بيه لقد تقلص عدد"المؤمنين" من آلاف كثيرة الى ما لا يزيد عن ٨٠٠ شخص. هذه السنة لم يمر منهم بالمويلح سوى ٨٠ بل ان المحمل صار ينقل بالبابور . كل هذا رغم ان عدد الحجيج الواقفين بعرفات زاد مؤخرا عن

128– على باشا بارك ، الخطط التوفيقية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٨٩٣ ، الجزء السادس ، ص ٣٠٠.

ما مضى،صار الأغلبية يفضلون الإبحار على السفر بالبر،اما الأغنياء منهم فيفضلون استئجار كبينة على بواخر "الكفار" اما الفقراء فيختارون السنابيك "المؤمنة"..اذا استمر هذا الوضع فلن يبق من قافلة الحج الا المحمل وحراسه قلت: قد صدق حدس بيرتون فقد تناقص عدد الحجاج ولم يعد يأتي مع الدرب البري سوى المحمل و ٢٠٠ من الجنود كما وصف ذلك محمد باشا صادق سنة ١٢٩٧هجري ثم انه حتى المحمل جيء به عن طرق البحر سنة ١٣٠٢هجري"[١٢٩] .

انقطاع المحمل المصرى :

أما عن انقطاع المحمل، فقد كان بعد قيام حركة الضباط الأحرار بمصر إثر خلافات حكام المملكة الحجازية و جمال عبد الناصر سنة ١٩٦١ وقد أعد آل سعود بالحجاز مشغلاً لكسوة الكعبة علي طريقتهم خلافاً للعادة المتبعة علي مدار أكثر من سبع قرون، و من المؤسف أنه كان يصحب المحمل إلي الأراضي المقدسة ما هو محرم من مظاهر الاحتفال من طبل وزمر وهذا لم يكن لائقاً فضلاً عن كونه مبتدعاً، ولكن ليس من المعلوم أن هذا كان يحدث في أطوار المحمل المتقدمة لكن الثابت أنه حدث في مراحل تطوره المتأخرة و خصوصاً في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي و كان يصحب بتلك البدع و التي أنكرها الأمير سعود بن عبد العزيز النجدي والذي كان آخذاً بمنهج الإمام محمد بن عبد الوهاب حتي

---

[129]– محمد السنوسى ، الرحلة الحجازية ، تحقيق /على الشنوفى ، الشرة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦ ، صفحات مختلفة + عبد القدوس الأنصارى ، الجزيرة العربية فى رحلتى ابن جبير والعبدرى ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، جامعة الرياض ، ١٣٧٩هـ / ١٩٧٩م ، صفحات مختلفة .

أنه أنكر صفة المحمل لدي السلطان العثماني سليم الثالث وطالبه بمنـــع والي مصر من مثل هذا الفعل، وكانت هذه فاتحة أبواب فتن وحروب في بدايات القرن التاسع عشر إلي أن أسر إبراهيم بن محمد علي سعود ابن عبد العزيز ودمر عاصمته الدرعيه وكان إعدامه سنة ١٨١٤ بالأستانة (إسطنبول) وبه انتهي عصر الدوله السعوديه الأولي ولكن التوتر والحذر تجاه المحمل ظل مستمرا حتي إبطاله وقد تجلي هذا التوتر فـــي حادثـــة المحمل بمني سنة ١٩٢٦ في عهد الملك عبد العزيز بعد سقوط الدولـــه العثمانيه"[١٣٠].

---

130 – نفس المصدر السابق ، ونفس الصفحات .

الفصل السادس

"طريق الحج الشامى"

قد لعبت قافلة الحج الشامي دورا هاما في تاريخ دمشق بخاصة وبلاد الشام عامة. وكانت لها أهمية كبيرة لدى الدولة العثمانية. فالسلطان العثماني اتخذ لنفسه لقب حامي الحرمين الشريفين الأمر الذي اقتضى تأمين سلامة الحجيج إلى هذين الحرمين بمكة المكرمة والمدينة المنورة وزاد في أهمية هذه القافلة آنذاك كونها واحدة من قافلتين رئيسيتين سمحت بهما وتبنتهما ونظمتهما الدولة العثمانية في العالم الإسلامي أما القافلة الثانية فهي قافلة الحج المصري.

بداية طريق الحج الشامى "

شملت القافلة الشامية أعداداً كبيرة من حجاج المناطق الشمالية والشرقية من داخل الدولة العثمانية وخارجها. وعرف أولئك الحجاج بحسب المناطق التي كانوا يفدون منها وكان منهم جماعات الروم والحلبيين والعجم فضلا عن حجاج دمشق ، ويحدد وجهتهم الشكل " " ، وقد التحق بكل طائفة من هؤلاء جماعات أخرى من خارج الحدود. وكان أكثر هذه الجماعات عددا الروم لأن كلمة (روم) أطلقت على حجيج مناطق ما وراء طوروس والفرات. ولم يمر وفد الحج الرومي في الغالب بمدينة حلب فهو لم يندمج مع الحج الحلبي. أما الحج (وفود الحجيج) العجمي فكان يأتي إلى دمشق إما عبر حلب أو مباشرة عبر بغداد والطريق الصحراوي برفقة قافلة التجارة للإفادة من الحماية المتوافرة للحجيج.

ومن هؤلاء الوافدين إلى دمشق للانضمام إلى قافلة الحج الذاهبة إلى مكة المكرمة: النقشبندية وقد وفدوا من ناحية (بلخ) وكانوا يفدون جماعات ربما زاد عددها عن الأربعمئة في بعض المرات وكان بعضهم يتخلف

عن العودة إلى بلاده بعد أداء فريضة الحج ويستقرون في دمشق. أما عدد حجاج القافلة فكان يتفاوت من سنة إلى سنة أخرى وكان متوسط عدد حجاج القافلة يتراوح في ذلك الحين بين ٢٠- ٤٠ ألف حاج وكان هذا العدد يرتفع أو يهبط وفقا للظروف الأمنية.

وكان من الحجاج من يصل إلى دمشق قبل انطلاق القافلة بأربعة أشهر أو خمسة أشهر ولكن الأغلبية منهم كانت تصل في شهر رمضان ومنهم من كان ينزل في خان الحرمين القريب من باب البريد بدمشق أو بالقرب من جامع الورد في حي سوق ساروجة. أما الحجاج الأعاجم فكان من عادتهم النزول في حي الخراب والسويقة قريبا من مقابر آل البيت. وكان من الحجاج الوافدين إلى دمشق من ينزل منهم في زوايا تحمل اسمهم مثل زاوية (المغاربة) وزاوية (الهنود) بمحلة السويقة وزاوية (السنود) وزاوية (الموصليين) بمحلة ميدان الحصى بحي الميدان.

كان والي دمشق يقوم بمهمة (أمير الحج) مكلفا من السلطان العثماني ذلك للسهر على أمن القافلة وقيادتها بنفسه مع قوة عسكرية ومرتزقة لحمايتها من تعديات البدو وهذه كانت من أخطر المسؤوليات التي تسند إلى والي دمشق لأنه بمقدار ما ينجح في هذه المهمة بمقدار ما يستقر في منصب ولاية دمشق وقد قدرت الدولة خطورة هذه المسؤولية فكانت تتخيّر لباشاوية (ولاية) دمشق كبار رجالاتها حتى إنها مدّت في ولاية أسعد باشا العظم أربعة عشر عاما لنجاحه بالقيام في مهمة إمارة الحج على

خير وجه خلافا لما جرت عليه سياستها في الإكثار من تغيير الولاة ذلك أن قافلة الحج خلال فترة إمارة أسعد باشا لم تتعرض لأي عدوان"[١٣١].

مدة انقضاء الرحلة :

كتب محمد كرد علي في كتابه: «إن المسلمين يلاقون صعوبات ومشقات في ذهابهم وإيابهم إلى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج كل سنة، فكان يستغرق سفر الحاج الشامي أربعين يوماً من دمشق إلى المدينة المنورة وعشرة أيام من المدينة إلى مكة المكرمة، وعشرون يوماً على الأقل يمضيها في القيام بالمناسك وزيارة قبر النبي المعظم (صلى الله عليه وسلم)، ويقضي خمسين يوماً في عودته. فهذه أربعة أشهر كاملة للحج الشامي. أما التركي والإيراني وغيرهما من أهالي الممالك الإسلامية النائية فقد كان يحول الحول على أحدهم دون الصول إلى بغيته»"[١٣٢].

أمن القافلة:

لحماية قافلة الحج الشامي من هجمات قطاع الطرق، كانت الحكومة العثمانية تعين أميراً للحج يصحب معه عدداً من الجنود والمدافع. وفي هذا المجال يذكر عبد العزيز محمد عوض في كتابه (الإدارة العثمانية في سورية١٨٦٤/١٩١٤م): «تقديراً من الدولة لأهمية الخطر، أُسندت إمارة

131– منير كيال ، محمل الحج الشامي : دراسة توثيقية ، نشورات وزارة الثقلفة ، سورية ، ٢٠٠٦ ، ص ٨٦ وما بعدها .

132– محمد على كرد ، خطط الشام ، م ٤ ، مكتبة النورى ، دمشق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ٢١٥ وما تلاها .

الحج إلى والي دمشق بعد أن كانت تعهد به لحاكم نابلس وعجلون. بدأ والي الشام يتولى إمارة الحج اعتباراً من عام ١٦٧١ حتى عام ١٨٦٦. حين رأت الدولة أن غياب الوالي عن مقر ولايته مصحوباً بعدد كبير من الجند بضعة أشهر من كل عام يؤدي إلى اضطراب الأمن في المدينة، فقررت الفصل بين منصبي الولاية وإمارة الحج، وعينت قائد الجندرمة أميراً أو محافظاً للحج. وكان قائد الجندرمة "[133]"عادة من الضباط الأكراد من بيوت معينة....)"[134]".

التحضيرات والتجهيزات لقافلة الحج الشامي:

كانت رحلة الحج إلى مكة المكرمة تحتاج إلى تجهيزات مرهقة بطبيعة الال وتتمثل هذه التجهيزات على وجه الإيجاز فى الأتى :

<u>الدورة</u>: هي جولة تفتيشية يقوم بها الباشا مع بعض جنوده في أواخررجب أو في أوائل شعبان لجمع المال من سكان المناطق الجنوبية

---

[133]- **الدرك** أو **الجندرمة** أو **الحرس** (بالفرنسية: Gendarmerie)، قوة عسكرية نظامية مكلف للقيام بمهام متعددة (إدارية ، قضائية، عسكرية) هذه الفرقة تختلف عن باقي القوات المسلحة لتربطها بالواطنين في إطار قيامها ببعض واجبات الشرطة بالإضافة إلى المحافظة على الأمن والنظام مع مساعدة القضاة وتقديم المساعدة اثناء الحوادث وهو كقوة مسلحة كذلك يقوم بالدفاع الوطني الشعبي عند حلول أي خطر شانه شأن أي قوة عسكرية . **والجندارم** كلمة تأتي من اللغة الفرنسية (gens d'armes) ، وتعني رجل السلاح ، يشير المصطلح إلى قوات النخبة من الفرسان المدججين بالسلاح من النبلاء ، الذين يخدمون في الجيش الفرنسي. اختفت هذه الفرقة في نهاية القرن الثامن وقد اكتسب المصطلح دلالة جديدة بعد الثورة الفرنسية، عندما تمت إعادة تسمية شرطة النظام القديم.

[134]- عبد العزيز محمد عوض ، الإدارة العثمانية فى إدارة سورية ١٨٦٤/١٩١٤م ، دار الكتب والوثائق العراقية ، ص ٢٣٩ وما بعدها .

من الولاية ليستعين بهذه الأموال في إعداد قافلة الحج والمحمل، ثم يعود إلى دمشق في أوائل شوال.

الصرة: في منتصف شهر رمضان أو الأسبوع الثالث منه يصل ركب (الصرة أميني) أو أمين الصرة من استانبول، وهي المال الذي ترسله الدولة العثمانية لأشراف الحجاز ولرؤساء القبائل المرابطة في طريق الحج. وتتضمن الصرة أيضاً التي تدعى (الصرة السلطانية) والتي تُجهز بدمشق زيوتا وشموعا وماء الورد والزهر التي ترسل لغسل الكعبة والحجرة.

المحمل الشريف:

كان تجهيز المحمل وانطلاقه من دمشق يبدأ من عيد الفطر ويستغرق الاحتفال بتجهيزه ثلاثة أيام.

في اليوم الأول يبدأ العمل بإخراج السنجق وهو عبارة عن قطعة من القماش المتين زهري اللون، وقد كتب عليه بالخيوط الذهبية الآيات القرآنية ويمر بحي الميدان باتجاه ضاحية القدم، حيث يوضع في مكان يسمى «العسالي» ، وفي اليوم الثاني تحتفل الهيئات الدينية والشعبية بأجمعها مع البشوات ومشايخ الطرق، ويجمعون كميات كبيرة من الشموع والزيوت ويحملونها إلى موقع «العسالي» وتوضع في الصناديق تمهيداً لإرسالها مع موكب الحج. وفي اليوم الثالث تشترك الحكومة المحلية بصورة رسمية، فيحضر المشير والوالي وكبار الضباط والعلماء والموظفين ومشايخ الطرق وقطاعات مختلفة من الجيش والمدارس بأجمعها وذلك لوداع المحمل الشريف، الذي يحمله جمل عظيم في

ضخامته ونظافته. ويكون الاحتفال أمام قصر المشيرية الذي كان قائماً في شارع النصر بدمشق ومكانه الآن القصر العدلي. وينطلق هذا الموكب مع السنجق الذي أُعيد في اليوم السابق من العسالي، وكان المحمل يودع في جامع السنجقدار، ماراً بطريق الميدان. أما الكسوة الشريفة فقد كانت تصنع من قِبل صنّاع مهرة يقيمون بدمشق ويتقاضون رواتبهم من الدولة.

الجردة: تختار الدولة العثمانية أحد وزرائها أو أحد ولاتها ويدعى (سردار الجردة) لإعداد قافلة الجردة، وهي قافلة مؤن تُعد لإسعاف الحجاج في طريق عودتهم إلى بلاد الشام خشية أن يكون ما عندهم منها قد نفد، ويصحب الجردة عدد من الجند لحراستها.

الجوخدار: هو أحد رجال أمير الحج ويُعرف بالجوقدار أو الجوخدار يسبق قوافل الحجاج إلى دمشق ليبشر أهلها بسلامة القافلة إذا عادت سالمة، أو يطلب إليهم النجدة إذا تعرضت للعدوان وهو ينفصل عن الركب في تبوك باتجاه دمشق في حراسة بعض الجنود متقدماً القافلة بسبعة أيام وفي إثر الجوخدار يكون الكتّاب – وهو شخص يكلفه أمير الحج – ليحمل كتب الحجاج إلى ذويهم فيصل إلى دمشق بعد الجوخدار بثلاثة أيام وقد يكون لدمشق ولكل من حماهوحلب كتّاب آخر. وفي إثر الكتّاب بعد يومين أو ثلاثة يبدأ وصول الحجاج إلى دمشق فيصلونها بين ٢ و ٥ صفر ويستمر دخولهم إلى المدينة نحو خمسة أيام، وفي إثرهم يدخل أمير الحج وسردار الجردة"[١٣٥].

135– نفس المرجع السابق ، ص ٢٨٨ وما تلاها .

وسائل النقل في الرحلة :

إن التنقل والسفر إلى مسافات بعيدة قبل استخدام وسائط النقل الآلية، استدعى نشوء مهن وحرف ومعدات تُخفف المشقة عن المسافرين. فرحلات الحج من بلاد الشام إلى الديار المقدسة، كان لها كادر متخصص في خدمة الحجاج وتأمين راحتهم من ركوب وإقامة وطعام. ومما ذُكر في هذا المجال ما جاء في كتاب (قاموس الصناعات الشامية الجزء الأول. لمحمد سعيد القاسمي الشهير بالحلاق) ما يلي:

- «المقوم»: هو من يتعهد بمشال الركب الحجازي حين قصده السفر لجهة الحرمين الشريفين. وصاحب هذه الحرفة يكون مستعداً لوجود عدد وافر من الجمال تكون عنده من جميع ما يلزمها من عِدَد، وهي الخيم ومعداتها، التخوت، والمحاير، والشباري وغيرها، للركوب بها. مع وجود أنواع الخَدَمة، من عكّامة وغلمان، وطباخين، ومهاترة، وسقاية، وغير ذلك من أصحاب هذه الحرفة، المذكور بحرفته مما لا يستغنى عن كل منهم.

وعند دخول موسم الحج يأخذ صاحب هذه الحرفة في الاستعداد وتهيئة كل ما يلزم من تفقد أحوال جميع ما ذكر، وما يلزم إلى السفر. وحينئذ يقصده من يرغب في الحج، فيستأجر منه ما يلزم لركوبه ومأكله من دمشق إلى المدينة أو مكة، كل على قدر سعته.

فمن كان غنياً استأجر تختاً. وتبلغ أجرته على حسب رواج الموسم، وذلك من ثمانين ليرة إلى مائة ليرة. والمتوسط يستأجر محارة، وتبلغ أجرتها من خمس وعشرين ليرة إلى أربعين. والأدنى إما أن يستأجر

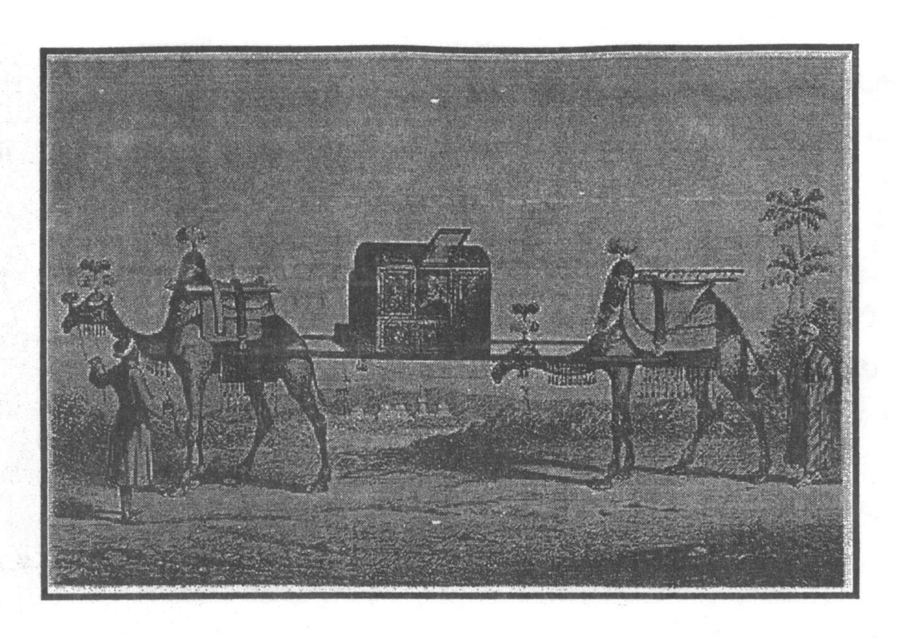
شبرية أو جملاً. وعند دخول وقت السفر يكون المسافر متهيئاً لجميع حوائجه. فإن المقوم يقوم بمشالها. وحينئذ يُنقِده المستأجر قسماً من الأجرة، والقسم الثاني عند وصول المحل المقصود. وفي الإياب أيضاً يعقد المقوم الشرط فيما بينه وبين من يرغب في الاستئجار معه في رجوعه إلى الشام.

- (العكام): من أهل الجَلَد والقوة على المشي يتسلم جملاً وعليه المحارة يركبها شخصان يسحب الجمل بهما في الطريق ويتولى خدمتهما وكل ما يلزم الراكبين المذكورين من طبخ وغيره.
- (المهتار): ووظيفته القيام على خيم الحجاج الموجودين عند المقوم من أمر نصبها عند نزول الحجاج للراحة، وفكها عند سير الركب و هكذا.. وتكون حركته في كل مرحلة يسبق الركب، وعند نهاية المرحلة ينصب الخيام ويهيئها للحجاج. وهذه وظيفته في الذهاب والإياب، وله أجرة معلومة من المقوم"[١٣٦].

أما عبد العزيز العظمة فيذكر في كتاب مرآة دمشق، تاريخ دمشق وأهلها عن وسائط الركوب للحجاج ويدعوها (المطايا) ما يلي: «مطايا الحجاج ثلاثة أنواع تخوت ومحائر ورهاوين،

- التخت : كوخ خشبي ذو باب ونافذتين يُحمل على جملين أو بغلين متواليين ويجلس فيه رجل واحد مرتاحا ، شكل " ١٤ ".

[136]– محمد سعيد القاسمى ، قاموس الصناعات الشامية ، تحقيق / ظافر القاسمى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٨م ، ص ٢٣٣ وما تلاها .



شكل "١٤" نموذج لتخت يعد أهم وسيلة نقل فى رحلة الحج .

- المحارة : محفة تُحمل على جمل وتُغطى بأقمشة مزخرفة على طراز أقمشة الخيام من نسيج مدينة دمشق، ولها مقعدان يجلس ويرقد فيها حاجان معاً.
- الرهاوين : يختارها بعض الحجاج، ويفضلونها على المحارة، لأنها تساعد على النزول في الطريق، حيث توجد مقاهٍ سيارة ترافق الركب على آخره، لأن طول الركب عند المسير يتجاوز الساعة أو أكثر. وجُل مساحات المراحل طويلة لا يقوى الركب على قطعها دفعة واحدة، فيجعلون في منتصف المساحة ساعة استراحة ينزل فيها الحجاج، ويقضون حاجاتهم، ويصلون، ويأكلون، ويشربون، ويطعمون دوابهم، ثم يرحلون على أصوات المدافع أيضاً».
- (الشبرية): مثل الصندوق راكبها لا يرى زميله، بخلاف المحارة فإنها أرفه لراكبها وأكثر أُنساً، إذ يأنس برفقته ويتحادث معه وما

بينهما إلا قتب الجمل. والشبرية يرغبها الفقراء من الناس لرخص أجرتها بالنسبة إلى المحارة.

و يتضح مما سبق أن قافلة الحج الشامي كانت تستخدم في سفرها (جمالا خيولا بغالا) دون استخدام العربات التي تجرها الحيوانات لعدم توافر طرق بين دمشق والديار المقدسة تصلح لسير هذه العربات.وكذلك الحال في بلاد الشام.

أول طريق للعربات فى طريق الحج الشامى :

كان أول طريق تم إنشاؤه بين دمشق وبيروت لهذه العربات بحصول الكونت (أدمون دوبيرتوي) وهو فرنسي كان يقيم في بيروت في شهر يوليو١٨٥٧ على امتياز لإنشاء واستغلال طريق للعربات بين بيروت ودمشق وكانت أول قافلة محملة بالبضائع وصلت إلى دمشق من بيروت في الأول من يناير١٨٦٢م. وتتمثل الأهداف من الخط الحديدي فى"[١٣٧]:

137– أتى عزت باشا العابد العربي السوري، والذي كان يحتل مركز الأمين الثاني للسلطان عبد الحميد وطرح الفكرة على السلطان ووجدت صدى في عام ١٩٠٠م عندما تم البحث في هذا المشروع بشكل جدي، وبتدخل من السلطان حيث تبين أن نفقات إدارة الحج تكلف الدولة نحو مائة وخمسين ألف ليرة عثمانية ذهبية يضاف إليها نحو ستين ألف ليرة قيمة هدايا وأعطيات. أعلن السلطان عبد الحميد عن المشروع من دمشق إلى المدينة المنورة في أوائل أبريل من عام ١٩٠٠م وبالإضافة إلى خط برقي يمتد بمحاذاته وأقام دعاية واسعة له في العالم، من حيث إنه سإضافة لهذا الهدف الديني كانت هناك أهداف أخرى ، بعد الإعلان عن المشروع وأهدافه افتتح السلطان عبد الحميد الثاني الاكتتابات حيث تبرع بثلاثمائة وعشرين ألف ليرة عثمانية ذهبية. وتبرع شاه إيران بمبلغ خمسين ألفاً. وخديو مصر بكميات هائلة من الأخشاب ومواد البناء. وتشكلت جمعيات عديدة

أهداف دينية: يسهل سفر الحجاج ويؤمن راحتهم فقد كانوا يعانون في كثير من الأحيان من أخطار الطريق، ومن أحوال الطقس القاسية كالحر اللاهب والبرد القارس والسيل الجارف، أو من عدوان بعض العشائر البدوية، فيموت منهم الألوف ويعود الباقون وقد أنهكتهم الرحلة. ولهذا فأنه مشروع ديني خيري يجب على المسلمين أن يعملوا على إنشائه.

أهداف سياسية: ربط البلاد الإسلامية بطريق حيوي وسهل وإزالة مظهر الدولة العثمانية بمظهر العاجز أمام الدول الأجنبية.

أهداف عسكرية: تشديد قبضة السلطان عبد الحميد على الولايات العربية التي يمر بها الخط وجعلها تحت السيطرة بأسرع وقت.

لمساندة المشروع، ففي الهند تشكلت مائة وست وستون جمعية لمساندته وجمع التبرعات له، فقد أرسل أهالي مدينة لكناو مبلغ اثنين وثلاثين ألف ليرة عثمانية، وأهالي رانجونومدراس مبلغ ثلاثة وسبعين ألف ليرة. وأرسل الميرزا علي من كلكوتا مبلغ خمسة آلاف ليرة ومثله جريدة الوطن في لاهور. ثم أعلن السلطان عن منح أوسمة وشارات وألقاب لمن يتبرع للخط، ووضعت الضرائب لمصلحة الخط. وتبرع الموظفون براتب شهر كامل ثم حسم من راتبهم عشرة بالمائة لمدة عام وأحدثت الطوابع التذكارية له. وجمعت جلود الأضاحي وبيعت لمصلحة الخط كما أوقفت عليه أراض ومشروعات أهمها ينابيع الحمة المعدنية ومرفأ حيفا. وقد نجح المشروع نجاحاً كبيراً لم يكن أشد المتفائلين يتوقعونه ولولا تبدل الأوضاع السياسية، وخاصة خلع السلطان عبد الحميد الثاني لوصل الخط إلى مكة المكرمة وينبع وجدة واليمن كما خطط المشرفون عليه آنذاك.

أهداف اقتصادية: تعمير وتطوير المناطق الواقعة في مسار الخط وتطوير الزراعة وتنشيط اقتصاد الجزيرة العربية باتصالها ببلاد الشام وساحل البحر المتوسط.

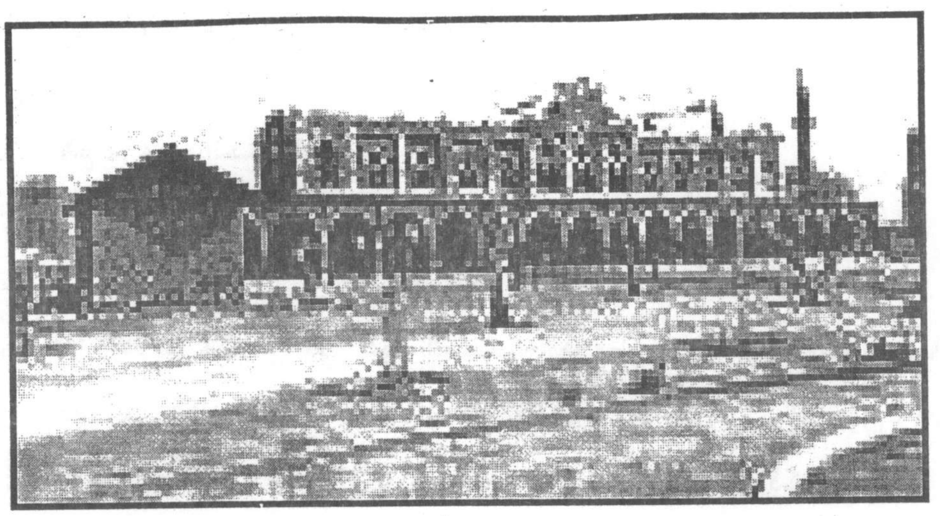
أهداف اجتماعية :تموين التجمعات السكانية والقبائل الواقعة على مسار الخط.

بدأ العمل في الخط في شهر سبتمبر من عام ١٩٠٠م أي بعد الإعلان عنه بنحو ستة أشهر وذلك في القسمين: دمشق درعا و درعا مزيريب في آنٍ واحد. استغرقت أعمال الإنشاء لكامل الخط حوالي سبع سنوات إلى عام ١٩٠٨ حيث تم انجازه إلى المدينة المنورة فقط وكان من المُقرر أن يصل إلى مكة المكرمة. وفي المرحلة الثانية عن طريق جدة، ثم إلى عدن في اليمن كمرحلة ثالثة. إلا أن هذه الفكرة تم صرف النظر عنها، وبقيت المواد اللازمة لإنشاء المرحلتين الثانية والثالثة في مستودعات المدينة المنورة حتى عام ١٩١٦م واستخدمت فيما بعد لصيانة الخط ولتمديد خط فلسطين مصر الذي أنجزته الحكومة البريطانية. تم إنجاز الخط الحديدي على مراحل متعددة ابتداءً من عام ١٩٠٠م حتى عام ١٩٠٨م.

الافتتاح :

وصل أول قطار إلى المدينة المنورة شكل " ١٥ " قادماً من دمشق في الثاني والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٩٠٨ م في رحلة استغرقت زهاء خمس وخمسين ساعة. وجرى الافتتاح رسمياً في الأول من شهر

سبتمبر من العام نفسه المصادف لعيد جلوس السلطان عبد الحميد الثاني. وقد حضر الافتتاح ثلاثون ألف مدعو وممثلون عن الصحف الأجنبية.



شكل "١٥" وصول القطار لأول مرة للمدينة المنورة

تخريب الخط ومحاولة إصلاحه :

عند نشوب الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م استخدمت الدولة العثمانية هذا الخط في تنقلات جيوشها وعتادها الحربي، مما دعا الثورة العربية ضد الحكم العثماني، والتي شارك فيها الكولونيل لورنس الانجليزي إلى تدمير معظم أقسام الخط، وخاصةً في الأراضي الحجازية.

وقد قامت الحكومات المتعاقبة بعد الحكم العثماني في كل من سورية والأردن بإصلاح الأقسام المخربة في أراضي كل منها (من دمشق وحتى جنوب الأردن). ومازال القسم المتبقي في أراضي المملكة العربية

السعودية بحاجة إلى إصلاح وإعادة إنشاء ليتم استخدامه بكامل مساره لخدمة مئات الألوف سنوياً من المسافرين والحجاج والمعتمرين ونقل البضائع، وكواسطة نقل مريحة ورخيصة وأكثر أماناً إضافة لوسائط النقل الأخرى البرية والبحرية والجوية"[١٣٨].

أهم دروب الحج الشامى المعروفة :

١- درب التبوكية :

كان الدرب الشامي في عهد العثمانيين هو طريق القافلة العظمى للعالم الإسلامي فكان ينضم اليه بالإضافة للشاميين العراقيون والفارسيون وأهل القوقاز ومسلمو الأناضول وأوربا لأمانه وتسهيلاته ، بل ذكر المؤرخون انه سنة ٩٧١ هجري حجت زوجة الشاه بصحبة الحاج الشامي كما أن السويدي أحد علماء بغداد حج مع الركب الشامي في القرن الحادي عشر. هذا الدرب الطريق الطبيعي بين الحجاز والشام والذي عرف باسم التبوكية نسبة الى بلدة تبوك التي يمر عليها وهو الطريق المستعمل منذ القدم ولا شك أنه جزء من درب البخور"[١٣٩]" المشهور في القدم.

---

[138]- عبد العزيز العظمة ، مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها ، تحقيق / نجدة فتحى صفوة، رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٨٧م ، ص ١٩٨ وما تلاها .

[139]- وعُرف درب البخور في رحلات الأبحاث والتنقيب عن آثار جزيرة العرب، وأشغل هذا الطريق الكثير من الباحثين باعتباره شرياناً اقتصادياً، وعلامة حضارية تدل على القرون الميلادية الأولى في أرض شبه الجزيرة.وأفاد العديد من الباحثين والعلماء أن سبب تسمية هذا الدرب بدرب البخور أن بضائع التجارة التي كانت تنتقل عبر هذا الطريق من جنوب الجزيرة العربية إلى مكة وبلاد الشام أو إلى نجد فالأحساء والبحرين كانت تتميز بكميات البخور الكثيرة والفاخرة ذات الجودة المشهورة إبان تلك العصور .

و يبدأ مسار هذا الطريق من دمشق و يمر ببصرى الشام (درعا) ، و بمنازل أخرى أهمها أذرعات ، و معان و المدورة (سرغ) ثم يدخل الأراضي السعودية ، و يمر على حالة عمار ، ثم ذات الحاج ثم تبوك ، ثم الأخيضر ثم المعظم ثم الأقرع ، ثم الحجر ، ثم العلا فعبر وادي القرى (المابيات).

في القرون الثلاثة الأولى كان درب الحج الشامي يسلك من وادي القرى الى السقيا ثم الى بلدة ذي المروة ثم عبر وادي الحمض الى السويداء ثم الى الفحلتين ثم ذو خشب ثم المدينة

وحدث تعديل بسيط في الدرب منذ القرن السابع الهجري حيث إن ركب وادي القرى لا يسلكون وادي الحمض بل يذهبون الى مغيراء ثم زمرد، ثم بالبئر الجديدة ، ثم هدية ، ثم الفحلتين ، ثم آبار نصيف ، ثم الحفيرة واصلا الى طابة الطيبة.

ودرب الحج الشامي لا شك أنه كان مطروقا في عهد الصحابة والدولة الأموية حيث كان خلفائها يولون الحجاز أهمية كبرى حتى في غير أيام الحج ، ويشهد لهذا ما سطره المسافرون من كتابات على صخور الدرب، حتى أيام العباسيين استمر الدرب الشامي مطروقاً وقد ترك لنا القاضي وكيع (ت ٣٠٤هجري) وصفا لمراحل الطريق في ايامه بقوله:طريق أهل الشام: من دمشق الى الصنمين ومن الصنمين الى أذرعات ومن أذرعات الى الزرقاء ومن الزرقاء الى القسطل ومن القسطل الى قبال ومن قبال الى بالعة ومن بالعة الى الحفير ومن الحفير الى معان ثمن معان الى ذات المنار ومنها الى المغيثة ومنها الى سرغ، ومن سرغ الى تبوك ومن

تبوك الى المحدثة ومن المحدثة الى الأقرع ومن الأقرع الى الجنينة ومن الجنينة الى الحجر ومن الحجر الى وادي القرى ومن وادي القرى الى السقيا وبها يلتقي الطريق (يقصدالشامي مع طريق مصر الداخلي، والذي أرجحه أن السقيا هي ما يسمى الآن مغيراء أو الفقير) ، ومن السقيا الى عتاب ومن عتاب الى المروة ومن المروة الى المر ومن المر الى السويداء ومن السويداء الى الأراك ومن الأراك الى ذي خشب ومن ذي خشب الى المدينة."[١٤٠]

مر الطريق الشامي بفترة حرجة في تاريخه بسبب وجود الصليبيين في بلاد الشام ، فقد كان الصليبيون يهددون أمن الطريق ويهاجمون قوافل الحجاج التي تسلكه من قلاعهم في الكرك وغيرها واستمرت ممارساتهم إلى أن سقطت قلعة الكرك في يد صلاح الدين سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . وبوصول الأيوبيين عاد النشاط والاستقرار إلى الطريق ، و نال اهتماما كبيرا من ملوك دمشق الأيوبيين . ويعد الملك المعظم عيسى بن أيوب"[١٤١]" اكثر حكام دمشق اهتماما بالطريق ، وكان والده ضم إليه الكرك والشوبك وتبوك والعلا ،وهو الذي أمر ببناء بركة المعظم وبرك

140– أَبُوبَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفِ بْنِ حَيَّانَ بْنِ صَدَقَةَ الضَّبِّيِّ البَغْدَادِيّ، المُلَقَّب بِـ"وَكِيع"(المتوفى سنة ٣٠٦هـ)، ، مرجع سبق ذكره ، صفحات مختلفة .

141– هو الملك المعظم شرف الدين عيسى بن سيف الدين أحمد سلطان دمشق : (٥٧٦-٦٢٤ هـ / ١١٨٠م – ١٢٢٧ م) من سلاطين الأيوبيين بدمشق (٦١٥ – ٦٢٤ هـ / ١٢١٨م – ١٢٢٧ م) وهو ابن الملك العادل حكم دمشق، كان عاملا بالفقه والشعر، وخلف أثارا كثيرة بدمشق منها المدرسة المعظمية وابنية أخرى في عاصمة دولته دمشق، له كتاب في العروض وديوان شعر.

أخرى ، كما سير من مسح الطريق بين دمشق وعرفات وأمر بتسهيل مواضع كانت وعرة .

وخلال العصر المملوكي نال الطريق اهتماما متزايدا من حكام دمشق وزادت أعداد سالكيه من الحجيج ، و قد قدّر ابن رشيد قافلة الحج الشامية التي سار معها سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٨٦ م بستين ألف راحلة دون الخيل والبغال والحمير . وتوجد على الطريق نقوش من العصر المملوكي تشير إلى ترميم بعض المنشآت"[١٤٢]".

<u>٢- درب للحج الشامي غير التبوكي" الطريق الأقصر" :</u>

ذكر الجزيري(ت٩٧٠هـ) ان للحج من الشام طريق أقصر من هذا كـــان الطريق عليها قديماً، وهو على صرخد (السويداء حالياً) على تيماء الـــى المدينة المنورة وهو أقرب من هذا(يقـــصد درب التبوكيـــة) بنحـــو ٦ أيام"[١٤٣]".

الدرب المصري قد يستخدم جزءاً من درب الحج الشامي والعكس صحيح ، في القرون الأولى كان الأصل ان درب الحج المصري يلتقي مع درب الحج الشامي في السقيا جنوب وادي القرى ثم انقطع هذا وسلك الـــدرب المصري عبر الساحل من مدين الى مكة.لكن في بعض الأحيان وتحـــت

142- **ابن رشيد السبتي ، محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله، محب الدين ابن رشيد الفهري**، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبةفي الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة و طيبة المعروفة ب : رحلة ابن رشيد السبتي ،ت ٧٢١ هـــ ، الجزء الخامس ، تحقيق / محمد الحبيب بن الخوجة ، نشر دارالغرب الاسلامي ، صفحات مختلفة .

143 - الجريرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١١ وما تلاها .

ظروف قاهرة قد يسلك الدرب المصري الجزء الجنوبي من الدرب الشامي (من العلا الى المدينة) ذلك من الساحل عبر الفج الواقع غرب مغيرا (الفقير) أو عن طريق بدا ثم يلتقي بالدرب المصري الرئيسي عند الأزلم كما فعل سنة ١١٩٦ في طريق العودة .

قال الدرعي عندما وصلوا قلعة حفائر الغنم جنوب العلا: ومن هنا افترقنا مع الدرب الشامي تركناه يميننا ورجعنا ذات اليسار في درب يقال له درب القزاز وهو فوق ما بين دربي المصري والشامي اليوم ، وأما سالف الدهور فإن الشامي يأتي على غزة ثم منها الى عقبة أيلة على الدرب المصري ثم ترك هذا الطريق لأجل طولها وكثرة دورانها...قلت وكان مسارهم عبر بلدة بدا – القزاز – الأزلم، كذلك سلك هذا الدرب الحجاج المصريون سنة ١٣٠٠ هجري كما جاء في كتاب الرحلة الحجازية وكان سبب سلوكهم لهذا الدرب عصيان قبيلة حرب على الشريف "[١٤٤]".

٣- درب البكرة :

هناك درب بين الحِجر(مداين صالح) وتبوك هو درب البكرة ، ويمر عبر منطقة الجو (جو تذرع) ثم يعتلي حرة الرهاة ليهبط على تبوك ذكره داوتي وموسل.وذكروا ان البدو المحليين يفضلونه على درب الحجاج . وإذا كان الدرب الشامي شاق وعسر فإن هناك جزء منه يعتبر أسوأ الأسوأ وهو ما بين تبوك والعلا (أكثر من ٢٥٠ كم) ويسمى المفازة الكبرى لأنه لا يوجد فيها ماء يعتمد عليه الا بئر واحدة في وسط المفازة

144- محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، مصر ، ١٩١١م .

في الأخيضر... قال بن رُشيد عن الأخيضر انها البئر الوحيدة بين تبوك والعلا وقلّ ان تفي ماؤها بالركاب فلهذا يتزودون من تبوك بماء يكفيهم الى العلا الاّ ان يكون شي بالبرك"[١٤٥]. ودائماً هناك تغير فى دروب الحج حسب الظروف المختلفة فقد عدد ابراهيم بن شجاع الحنفي الدمشقي سنة ٦٢٣هـ في عهد المعظم طرق الحج الشامى ليشتمل على ثلاثين منزلة وهي : الكسوة – الظمير – زرع – وادي الشجرة – وادي الضليل – وادي الزرقاء – البلقاء – ألف ناطور – الجول – عسيكر – الحفير – معان – مسيل مسيحر – عقبة الصوان – سرغ الى ان ذكر المنزلة السادسة عشرة حالة عمار – تبوك – الديسة – الاخيضر – اسفل الحاكة – الأقارع – الحجر – العلا – الحفاير – النعام – هدية – المفرح – غدير يلب – غراب – المدين .

والنموذج لسير رحلة (ابن بطوطة) من الشام إلى الحجاز يصفه فى قوله : أقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية، وتجهزوا لدخول البرية، ثم ارتحلنا إلى معان، وهو آخر بلاد الشام، ونزلنا من عقبة الصوان إلى الصحراء التي يقال فيها: داخلها مفقود وخارجها مولود. وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج، وهي حسيان لا عمارة بها، ثم إلى وادي بلدح ولا ماء به، ثم إلى تبوك وهو الموضع الذي غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ... ثم يرحل الركب من تبوك، ويجدون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرية. وفي وسطها الوادي الأخيضر... ومن هنالك ينزلون بركة المعظم، وهي ضخمة، نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب.

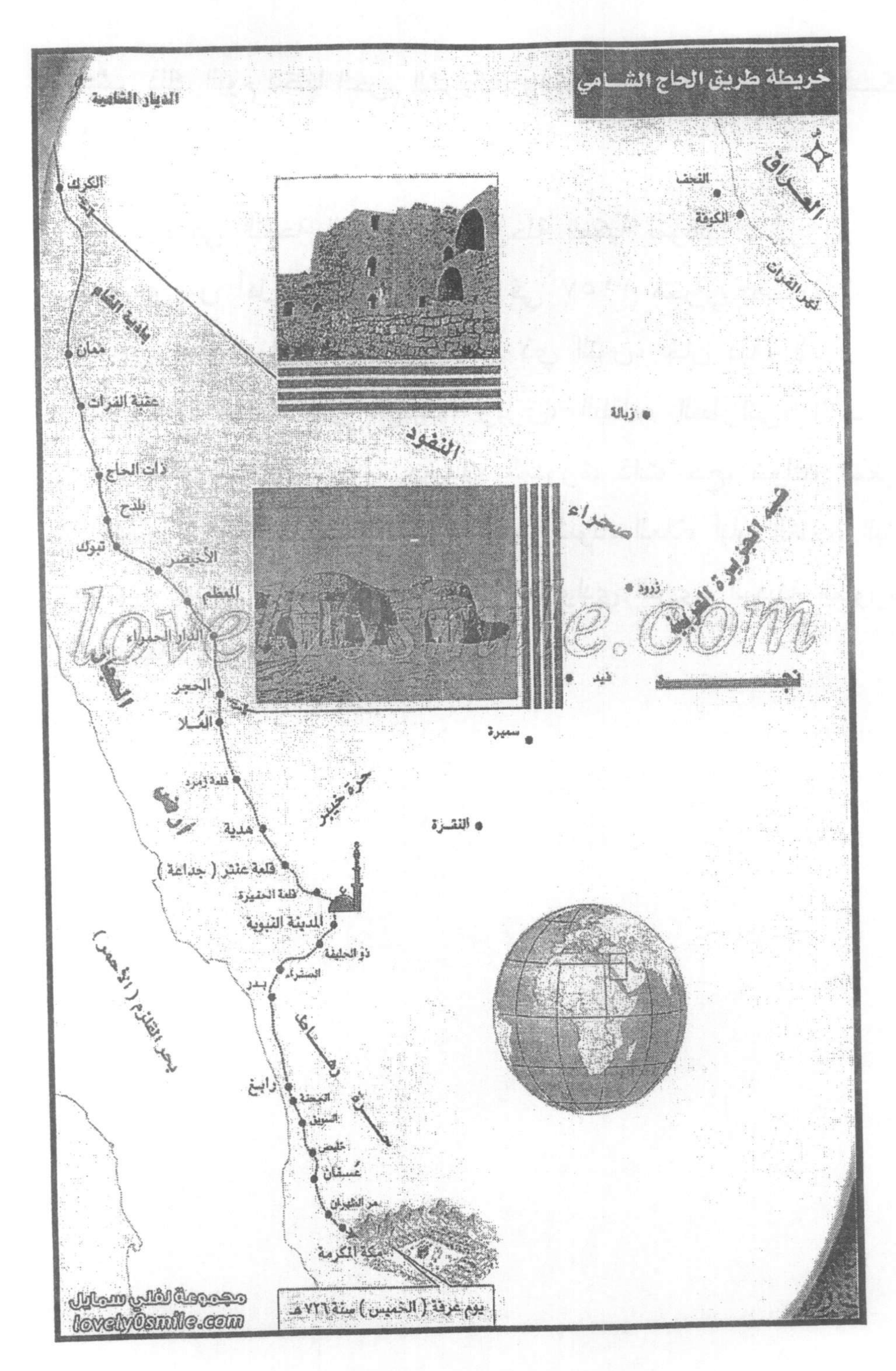
145- ابن الرشيد ، مرجع سبق ذكره ، ص٢١١.

وهذه الطريق ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين، وربما جف في بعضها، وفي الخامس من أيام رحيلهم عن تبوك يصلون البئر الحجر حجر ثمود، وهي كثيرة الماء، ولكن لا يردها أحد من الناس، مع شدة عطشهم، اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها في غزوة تبوك، فأسرع براحلته وأمر أن لا يسقى منها أحد. ومن عجن به أطعمه الجمال.

وهناك ديار ثمود في جبال من الصخر الأحمر منحوتة، لها عتب منقوشة يظن رائيها أنها حديثة الصنعة، وعظامهم نخرة في داخل تلك البيوت. إن في ذلك لعبرة، ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك، وبينهما أثر مسجد يصلي الناس فيه، وبين الحجر والعلا نصف يوم أو دونه، والعُلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين النخل والمياه المعينة، يقيم بها الحجاج أربعاً، يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زاد ويستصحبون قدر الكفاية. وأهل هذه القرية أصحاب أمانة، وإليها ينتهي تجار نصارى الشام، لا يتعدونها، ويبايعون الحجاج الزاد وسواه. – ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غد رحيلهم الوادي المعروف بالعطاس، وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة. هبت السنين على الركب فمل يخلص منها إلا اليسير. وتعرف تلك السنة سنة الأمير الجالقي، ومنه ينزلون هدية، وهي حسيان ماء بواد يحفرون به، فيخرج الماء وهو زعاق. وفي اليوم الثالث ينزلون البلد المقدس الكريم الشريف. طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم وفي

عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف، وانتهينا إلى المسجد الكريم شـــكل (١٦).

وقد جاء في النفحة المسكية في الرحلة المكية لمؤلفها : أبو البركات السويدي من أهل بغداد ، الذى حج في ١١٥٧ هجري بصحبة الركب الشامي هذه المنازل : دمشق، خان ذي النون، خان دلة، المزيريب، المفرق، الزرقاء، خان الزبيب، زيزى، البلقاء، القطراني، الأحساء، معان، قلعة عنزة، العقبة، جغيمان المدورة، ذات حج، تبوك، المَغر، الأخيضر، المعظم، الدار الحمراء، ديار ثمود، العلا، آبار الغنم،، البئر الجديدة، هدية، الفحلتين، العقبة السوداء، وادي القرى، المدينة المنورة، ذو حليفة،



شكل "١٦" طريق الحج الشامى

بين جبلين، الجديدة، بدر، الحمراء، الصفراء، القاع، رابغ، المستورة، خليص، الأميال السبعة، قديد، عسفان، مكة المكرمة

وذكر النابلسي أنه خرج من المدينة ٢٢ محرم ووصل دمشق ٢٤ صفر وخط سيره كان الجرف ويسمى وادي ابراهيم - بئر الأمير- ذو خشب وسماه وادي القرى- الفحلتين وهو حصن عنتر- هدية - شعب النعام- بير الزمرد - بير عويضة - العلا - الحجر- العقبة وهي المزحم - الزلاقات - شق العجوز- الأقيرع - مفارش الرز- الدار الحمراء - وادي المعظم-الاخيضر-البغاز- مغاير شعيب- تبوك - القاع - ذات حج - جغيمان - ظهر العقبة - معان "[١٤٦].

رمزية المحمل فى رحلة الحج :

وإذا كان الملك العادل الأيوبي عديم الالتفات إلى ما يرغب به الملوك من الأبّهة وكان ينهى نوابه عن إمرة الحج الشامي من مزاحمة الملوك في اطلاع الأعلام إلى رأس جبل عرفات وترك علمه إلى جانب محمله تحت الجبل. فإن الملك الظاهر بيبرس كان على غير ذلك وبخاصة بعد أن لحظ هودج الأميرات في قافلة الحج؛ الأمر الذي أوحى إليه أن يكون محمله على نحو من الأبّهة، وإلى بيبرس يعود تقليد دورة المحمل حول

---

[146]– كتب في الرحلات: "رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث"، "في الوطن العربي"، "إطلالة على العالم الفسيح"، "في سراة غامدوزهران"، "في شمال غرب الجزيرة" .شبكة المعلومات الدولية .

القاهرة وهذا ما كان عليه الوضع في دمشق في دورة المحمل والصلجق حول سور دمشق الجنوبي والشرقي والشمالي .

وقد أعطى المحمل أهمية تؤكد قوة وسطوة من يحرصون على إرساله إلى مكة بل وصار يفيض عليهم شرفا عظيما يمدهم بالحكم فترات أطول. وانطلاقا من ذلك الاهتمام والحرص فقد افتقد خروج المحمل أيام المماليك على القاهرة ودمشق عاصمتي ملكهم كأصحاب سيادة على مكة والمدينة.

ولما كان حكام العراق لا يلوذون بالمماليك فقد رغبوا بدورهم إضفاء صيغة الحماية على الحرمين الشريفين فأرسلوا محملا سنة٧٢١ هجرية واستمروا على ذلك حتى استطاعت دولة المماليك من منافستهم سنة ٨٧٧ هجرية كما عمد أئمة اليمن بدورهم إلى إرسال محمل مماثل لكن أشراف مكة الذين كانوا يدينون آنذاك بالولاء للمماليك بالقاهرة منعوا المحمل اليمني من الدخول إلى مكة اعتبارا من سنة ٧٨٢ هجرية.

وعندما سيطر العثمانيون على مكة رفعوا ذلك الحظر وسمحوا للمحمل اليمني بالقدوم اعتبارا من سنة ٩٦٤ هجرية واستمر محمل اليمن مع المحمل الشامي والمحمل المصري الذي ظل يرسله المماليك في ظل الحكم العثماني حتى استقلال اليمن عن الدولة العثمانية بزعامة الأئمة الزيديين.

وخلافا لما جرت عليه عادة العثمانيين من تغيير لشعارات المماليك وعاداتهم وسلوكهم فقد أبقوا محمل الحج وجهّز السلطان سليم محملين كبيرين من دمشق والقاهرة بعد ضم بلاد الشام ومصر إلى الدولة

العثمانية واتبع ذلك بمحمل ثالث خليفي باسم الخليفة العثماني السلطان ليؤكد سيطرة العثمانيين وحمايتهم للحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وانتزاع الأمر من المماليك. وكان المحمل العثماني مكسوا بقماش مخملي أخضر كتبت عليه آيات من القرآن الكريم ويحمله جمل عليه حلة مزركشة بأنواع الأقمشة والجلود وقد خيطت عليه الأصداف الصغيرة والمرايا.

نهاية المحمل :

ولقد استمر خروج المحمل الشامي مع بعض الانقطاع حتى قيام الحرب العالمية الأولى في حين منع المحمل المصري من دخول مكة سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٣٦ م) لما كان يشوبه من مخالفات شرعية وما يرافقه من طبل وزمر وذلك بعد أن سيطر آل سعود على الحرمين الشريفين وقد سبق للسعوديين أن منعوا هذا المحمل سنة ١٢٢٣ هجرية مما أدى إلى انقطاع الركب الشامي والمصري عن الحج متعللين بمنع السعوديين الناس من الحج .

لكن الحال ليست كذلك فواقع الأمر أن السعوديين لم يمنعوا أحدا أن يأتي إلى الحج على الطريقة المشروعة إنما كان المنع للبدع التي ترافق قدوم الركب من طبل وزمر وحركات أو ممارسات تحت ستار أو دعوى التدين مما لا يجيزه الشرع ومما حدا بالإمام سعود الأول بن عبد العزيز؛ أن يحرق المحمل المصري سنة ١٢٢١ هجرية بعد أن أنذر أميره بألا يسترجع معه المحمل. كذلك فقد بعث إلى أمير المحمل الشامي ينهاه على القدوم إلى مكة إلا على الشرط الذي شرط عليه في العام الفائت وذلك

بأن يأتي بالحجيج إلى بيت الله الحرام غير متلبسين بالبدع. فرجع الأمير الشامي ولم يحج"[١٤٧].

---

[147]- منير كيال ، معجم درر الكلام فى أمثال أهل الشام ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤م صفحات مختلفةى .

العثمانية واتبع ذلك بمحمل ثالث خليفي باسم الخليفة العثماني السلطان ليؤكد سيطرة العثمانيين وحمايتهم للحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة وانتزاع الأمر من المماليك. وكان المحمل العثماني مكسوا بقماش مخملي أخضر كتبت عليه آيات من القرآن الكريم ويحمله جمل عليه حلة مزركشة بأنواع الأقمشة والجلود وقد خيطت عليه الأصداف الصغيرة والمرايا.

نهاية المحمل :

ولقد استمر خروج المحمل الشامي مع بعض الانقطاع حتى قيام الحرب العالمية الأولى في حين منع المحمل المصري من دخول مكة سنة ١٣٤٥ هجرية (١٩٣٦ م) لما كان يشوبه من مخالفات شرعية وما يرافقه من طبل وزمر وذلك بعد أن سيطر آل سعود على الحرمين الشريفين وقد سبق للسعوديين أن منعوا هذا المحمل سنة ١٢٢٣ هجرية مما أدى إلى انقطاع الركب الشامي والمصري عن الحج متعللين بمنع السعوديين الناس من الحج .

لكن الحال ليست كذلك فواقع الأمر أن السعوديين لم يمنعوا أحدا أن يأتي إلى الحج على الطريقة المشروعة إنما كان المنع للبدع التي ترافق قدوم الركب من طبل وزمر وحركات أو ممارسات تحت ستار أو دعوى التدين مما لا يجيزه الشرع ومما حدا بالإمام سعود الأول بن عبد العزيز؛ أن يحرق المحمل المصري سنة ١٢٢١ هجرية بعد أن أنذر أميره بألا يسترجع معه المحمل. كذلك فقد بعث إلى أمير المحمل الشامي ينهاه على القدوم إلى مكة إلا على الشرط الذي شرط عليه في العام الفائت وذلك

بأن يأتي بالحجيج إلى بيت الله الحرام غير متلبسين بالبدع. فرجع الأمير الشامي ولم يحج"[١٤٧].

147– منير كيال ، معجم درر الكلام فى أمثال أهل الشام ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤م صفحات مختلفةى .

الفصل السابع

"مكة فى عيون الرحالين المسلمين"

كانت مكة المكرمة دائماً فى فكر وقبلة للرحالة العرب والمسلمين على طول الدوام ومن ثم كانت مكة قد استضافت الأغلب الأعم منهم خاصة من خلال رحلات الحج ووفود الحجاج إلى بيت الله الحرام وقد وقع اختيار على نماذج من أشهر الرحالين من قرون مختلفة وجنسيات عدة .

وكما حرص العرب والمسلمون على زيارة مكة حرص على هذه الزيارة مستشرقون كثر ، خاصة مع بداية فكرة التوسع الأوروبي ، بغية أن يتعرّفوا على مكة المكرمة.. وقد حاول عدد كبير من الرحالة الأجانب دخول مكة متنكرين بأسماء إسلامية حباً في الاستطلاع أو خدمة لدوائر الاحتلال، فنجح بعضهم وفشل بعضهم الآخر، كما صدق آخرون في إسلامهم ودخلوا مكة مسلمين وكتبوا مشاهداتهم وسجّلوا انطباعاتهم لشعوبهم.

ومن أوصاف البعض منهم ما يلى :

من قول جوزيف بيتس "١٠٩١هـ= ١٦٨٠م" "١٤٨":

---

148 – " المدعو الحاج يوسف"وهو صبى إنجليزي يعشق المغامرة غادر إنجلترا في السادسة عشرة من عمره ليعمل على متن السفن المسيحية في البحر المتوسط، حيث سقط أسيرا في أيدي أحد مجاهدي البحر الجزائريين فاتخذه عبدا له بعد أن اعتنق الإسلام وتسمى باسم يوسف قبل أن يرتد بعد ذلك بخمس عشرة عاما إلى المسيحية ويهرب من الجزائر عائدا إلى وطنه، وفي عام ١٦٨٠م قرر سيده اصطحابه معه لأداء فريضة الحج حيث خرج برفقة قافلة الحج الجزائرية متخذين الطريق البحري باتجاه الإسكندرية التي مكثوا بها ثلاثة أسابيع قبل الانتقال إلى مدينة رشيد ثم على متن أحد المراكب النيلية في فرع رشيد إلى القاهرة التي مكث بها بعض الوقت قبل أن يتجه مع قافلته برا باتجاه مدينة السويس حيث ركب الجميع إحدى السفن لتمخر عباب البحر الأحمر باتجاه ميناء جدة. وفي جدة بدأت أولى الإجراءات بتعريف الحجاج الجزائريين كيفية أداء مناسك الحج بشكل تام قبيل الوصول إلى مكة المكرمة التي دخلوها مع

مما ذكره جوزيف بيتس في مذكراته وَصْفُ صعود الحجاج على جبل عرفات، قال: «كان مشهداً يخلِبُ اللُّبّ حقاً أن ترى هذه الآلاف المؤلفة في لباس التواضع والتجرّد من ملذات الدنيا برؤوسهم العارية وقد بلّلت الدموع وَجَناتهم، وأن تسمع تضرّعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حياة جديدة». وها هو يتحدث عن مقابلته لأحد الإيرلنديين الذي اعتنق الإسلام ورفض الارتداد عنه رغم المُغريات التي وُضعت أمامه: «وقال إن الله قد منّ عليّ بالإسلام والجنة بدلاً من جهنم أوروبا»!! "[١٤٩]".

من قول ريتشارد بيرتون ١٢٦٩ هـ= ١٨٥٣م"[١٥٠]" أمام شعائر الحج في مكة المكرمة : قائلاً: «لقد رأيت شعائر دينية في بقاع كثيرة من الأرض، لكنني لم أر أبداً ما هو أكثر وقاراً وتأثيراً مما رأيته هنا».

من قول دومنجكو باديا ليبليج ١٨٠٧م"[١٥١]" :

الدليل الذي رفع يديه بالدعاء مما أثر في الحجاج. وحسب قول جوزيف بيتس: "عندما وقع نظر الحجاج للمرة الأولى على الكعبة المشرفة فاضت عيونهم بالدموع". وكتب جوزيف بيتس الذي أضمر الارتداد عن الإسلام عن طواف الحجاج وسعيهم ومناسك الحج باعتبار ذلك خرافات وأعمالا وثنية.

149 – خاتم الطحاوى ، جوزيف بيتس "١٠٩١هـ= ١٦٨٠م"الحاج يوسف" ، أرشيف التاريخ العالمى الإسلامى، http://www.startimes.com/f.aspx?t=8549841

150 – بيرتون: مستكشف ومستشرق وعسكري ومترجم إنجليزي ولد عام ١٨٢١م، حَظِيَ بتكليف الـجمعية الجغرافية الملكية بلندن في عام ١٨٥٢م للقيام برحلة لاستكشاف وسط وشرق الجزيرة العربيَة. فقام برحلته منطلقاً من مصر إلى بلاد الحجاز.

151 – في عام ١٨٠٧م وصل الحجاز رجل إسباني الأصل يُدعى دومنيكو باديا ليبليج، قد انتحل اسماً ونسباً عربياً (علي بك العبّاسي). وقد تضاربت الآراء في حقيقة هذا الرجل، فمنهم من قال إنه كان عميلاً للفرنسيين أو البرتغاليين أو الإنجليز، ومنهم من قال إنه من أحفاد المسلمين الذين نجوا بدينهم من التعصُّب النصراني الأعمى، ومن محاكم التفتيش في إسبانيا.

مما كتبه في مذكراته: «إنّ الإنسان لا يستطيع أن يكوِّن فكرة عن ذلك المنظر المهيب الذي يبدو في مناسك الحجِّ بصورة عامَّة إلا بعد الوقوف على جبل عرفات؛ فهناك حشد من الرجال الذين لا يُحصى لهم عدد، وهم من جميع الأمم، ومن جميع الألوان، وقد أتَوْا من أركان المعمورة على الرغْم من المخاطر والأهوال لعبادة الله، فالقفقاسي يمد يده للحبشي أو الإفريقي أو الهندي أو العجمي، ويشعر بشعور الأخوة مع الرجال من البرابرة من سواحل مراكش، وكلهم يعُدُّون أنفسهم إخواناً أو أعضاء في أسرة واحدة».

من قول توم رادل

«مكة، هي مدينة الفرح والمتعة الروحية والإشباع النفسي، فهي مدينة مشرعة الأبواب في كل الاتجاهات، لا يحتاج دخولها إلى بطاقات خاصة، ولا إلى مكانة اجتماعية مرموقة. يدخلها الصغير والكبير، والغني والفقير، والقائد والتابع، فالمواطنة فيها هدية من الخالق، تُمنح لكل من يريد أن يعيش بهدوء وسكينة، ومع ذلك لا ينتمي إليها إلاّ قلة من الناس، أولئك الذين أدركوا المعنى الحقيقي للسعادة والمصدر الحقيقي للقوة»"[١٥٢].

---

[152] – قد تعجب إذا علمت أن الأوصاف السابقة قالها رجل غير مسلم، وقد تعجب أكثر إذا علمت أن هذه التعابير لم تَرِدْ في سياق موعظة دينية، ولا توصيفاً لرحلة جغرافية استكشافية، وإنما جاءت تدعيماً لنظرية في إدارة الذات! قدّم توم رادل، وهو كاتب إداري شهير في أمريكا، في كتابه الذي ألفه عام ١٩٩٧ باسم (مكة كونها مؤثِّراً: خمسة متطلبات للنجاح العملي والشخصي) طريقة مبتكرة في إدارة الذات سمّاها (مكة)، مصرِّحاً في مطلع كتابه، أنه استنبط فكرة (مكة) من أحد الأديان العظيمة، واخترع الكاتب مصطلحات إدارية جديدة مرتبطة باسم مكة مثل (معامل مكة) و(مصفوفة مكة) و(معادلة مكة) و(نظام مكة) و(فريق التمكين المكي) و(الشخصية المكية) و(عملية التأسيس المكية) وغيرها، ويقول – بحسب

وفى الحقيقة فإن قائمة الأوروبيين الذين زاروا مكة المكرمة طويلة، وملاحظات هؤلاء اختلفت بمرور الزمن. فقد كان الأوائل منهم أكثر اهتماماً بشرح تفاصيل الدين ومناسك الحج. كما أن بعضهم ركّزوا على دحض الأخطاء والخرافات الرائجة في أوروبا عن الدين الإسلامي ومقدساته؛ أما المتأخرون منهم، فقد ذهبوا إلى وصف أدقّ لحال سكان مكة والمدينة، والحجاج وأحوالهم، كما استغل رحالة كل بلد أوروبي فرصة الحج للتجسّس على حجاج مستعمرات بلده.

وقد كانت هناك بضعة عوامل مشتركة بين هؤلاء الرحالة، الأوائل منهم أو المتأخرين؛ فجميعهم تعلّم اللغة العربية وأجادها واستعدّ للرحلة وتعلم الدروس ممن سبقوه إليها بفطنة شديدة.

أولاً : مكة فى وصف المقدسى :

ندين لبعض الرحالة بفضل معرفة قسم كبير من تاريخ بعض الأماكن الهامة والتي سجلت عدسة ذاكرتهم الأحداث التي حصلت فيها وسطر يراعهم وصفًا لمواقع ومدنًا زاروها فقدموا وصفًا لعمائرها وشوارعها ومبانيها ومعاشها وأهلها) ملابسهم وعاداتهم) في أزمنة لم تعرف التلفاز أو السينما ولولا هؤلاء الرحالون لضاع بعض من تاريخنا وتاريخ هذه الأماكن الهامة والتي تأتي مكة المكرمة في مقدمتها ومن هؤلاء كان الرحالة محمد بن أحمد البشاري المقدسي صاحب كتاب «أحسن التقاسيم

خلاصة كتابه الذي نشرته الشركة العربية للإعلام العلمي (شعاع) -: «وهذا الاستنباط يعني أنه يمكن استلهام تعاليم ومعاني هذه الرسالة السماوية لانتشال الناس، من كل العقائد والأجناس، من غفلتهم، لا سيما أولئك الذين يجاهدون في سبيل البحث عن بُعد روحي يرتكزون إليه فتطمئن قلوبهم عبر رحلتهم في هذا العالم...». ويقال إنه اعتنق الإسلام.

في معرفة الأقاليم»([153]) . وقد قضى المقدسي -رحمه الله- عمره لهذا الهدف عشرين عامًا يتنقل بين مختلف الأقاليم الإسلامية يحتك مع مختلف

---

153 – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم هو كتاب جغرافي، ألفة محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالمقدسي البشاري (٣٣٦ هـ–٣٨٠ هـ، يعد الكتاب أحد أشهر الموسوعات الجغرافية التي ظهرت في القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي، وقد أفرد مصنفه أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي بذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من البحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة، ومنازلها المسكونة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم ومأكلهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار، وعدد المنازل، وذكر الرمال والتلال والسهول والجبال، ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص، والممالك والحدود والمصادر، وذكر الصنائع والعلوم . قال المقدسي البشاري الواوي (نسبة إلى ابن اوى كثير التنقل والترحال) في مقدمة كتابه : اعلم أني أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدي الصواب، واستعنت بفهم أولي الألباب، وسألت الله عز اسمه أن يجنبني الخطأ والزلل، ويبلغني الرجاء والأمل، فأعلي قواعد وأرصف بنيان ما شاهدته وعقلته، وعرفته وعلقته، وعليه رفعت البنيان، وعملت الدعائم والأركان، ومن قواعده أيضا وأركانه، وما استعنت به على تبيانه سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت ولم يتقدر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتفاقهم أثبته، وما اختلفوا فيه نبذته، وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت زعموا وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك، وكل من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها، ولا طلب الفوائد التي أردتها .

الأجناس بها ويستفيد من أهل العلم ويطلع على المكتبات في البلاد والتي يزورها([١٥٤]) .

كان ذلك في القرن الرابع الهجري ذلك القرن الذي كان التقدم العلمي فيه قد بلغ مكانة كبيرة. وقد حج المقدسي سنة ٣٥٦هـ/٩٦٦م وحج مرة أخرى عام ٣٦٧هـ/٩٧٧م وجاور في مكة وأخذ عن علمائها .

وكان ياقوت يدعوه تارة بنسبته (البشاري) وأحيانًا بأسمائه الأخرى مثل (ابن البناء) ويضيف قائلاً: إن المقدسي ولد عام ٣٣٦هـ أي ٩٤٧م وإنه توفي سنة ٣٨٠هـ الموافق ٩٩٠م. كما يذكر اللعيبي أن رحلة المقدسي هي ثمرة سنوات طوال من الأسفار والترحال في أقاليم العالم القديم امتدت من سنة ٩٦٥م إلى ٩٨٤م([١٥٥]) .

ولم يخرج المقدسى كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» إلا في سنة ٣٧٥هـ /٩٨٥م بعد أن بلغ الأربعين من العمر وأقر مادته العلمية جمع من الأئمة والعلماء بعد أن استشارهم في إصداره . وقد أرفق المقدسي مع كتابه خريطة ملونة تبيِّن الحدود ورسم البحار والأنهار والجبال وغير ذلك إلا أن هذه الخريطة فقدت ولم توجد مع الأسف إلى الآن . و تعود أهمية كتاب المقدسي لأنه سلط الضوء على جوانب لم تحظَ باهتمام من سبقوه كما يضيف أن كثيرًا من الكتّاب أدركوا الأهمية العلمية لهذا

---

154 – أنظر فى ذلك : عبد العزيز بن راشد السنيدى ، مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ط١، الرياض ، ١٤٢٧هـ ، صفحات مختلفة .

155 – شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٥٧٤ – ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، عدة طبعات .

الكتاب، ويذكر لنا أن «سبرنجر كشف أول مخطوطة لأحسن التقاسيم فاعتبر أن المقدسي من أكبر جغرافيي العالم، وعدَّ كرامزر كتاب المقدسي أفضل مصنفات الأدب الجغرافي العربي . والمقدسي الذي قسم الأرض إلى سبعة أقاليم جعل مكة في الإقليم الثاني منها ووصف تضاريس مكة وذكر محاذاة جبل قعيقعان وأبي قبيس لبعضهما البعض وكأنه يشير –دون تصريح– بوقوع مكة بينهما(١٥٦) .

الانطباع الأولى للمقدسى عن مكة :

عندما بدأ المقدسى زيارة مكة قال فى ذلك : «كل ما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة، وعرضها سعة الوادي والمسجد في ثلثي البلد، أي المسفلة والكعبة في وسطه». ويقول : " هى عبارة عن جزئين، المعلاة في شمال وشمال شرق المسجد الحرام، وتشكل بمساحتها العمرانية ثلثي البلد، في حين تأتي إلى الجنوب تقريبًا من المسجد المسفلة ويشكل عمرانها الثلث المتبقي من مكة " .

وذكر المقدسي في حديثه عن مكة أنها كانت عندئذٍ أكبر من بيت المقدس وأن عمارة المدينة المنورة في زمنه كانت أقل من نصف عمارة مكة المكرمة.. وذكر كثرة عدد سكان مكة وازدهار تجارتها آنذاك .

كما ذكر أن مكة إبان زيارته لها كانت محصنة بالأسوار وبيَّن أن الدخول إليها يأتي عبر أربعة أبواب «أبواب مصنوعة من الحديد، اثنان منها في الجهة الشرقية من السور حيث يدخل منها القادمون من العراق، والثالث في الجهة الشمالية ومنه يدخل القادمون من جهة التنعيم، أما

---

156 عبد العزيز بن راشد السديمى ، مرجع سبق ذكره ، صفحات مختلفة .

الرابع ففي الجهة الجنوبية، وعبره يجتاز إلى داخل مكة الوافدون من اليمن" ، كما وصف المقدسي دور مكة وبنائها والمواد المستخدمة في ذلك حيث ذكر أن : «منازلها على شكل طبقات، تبنى من الحجارة المختلفة الألوان والآجر ، وتسقف بخشب الساج" . وقد تحدث المقدسي عن مصادر الماء بمكة فذكر ثلاث برك بقوله :« وبمكة ثلاث برك تملأ من قناة شقتها زبيدة من بستان بني عامر.

قول المقدسى فى عمارة البيت الحرام :

أما عن عمارة المسجد الحرام فإن المقدسي أتحفنا بمعلومات عنها، فذكر عمارة الخليفة العباسي المنصور والتي استغرقت ثلاث سنوات من عام ١٣٧هـ/٧٥٤م إلى عام ١٤٠هـ/٧٥٧م وذكر اعتراض بعض أصحاب المنازل المحيطة بالمسجد ولكن تدخُّل الإمام أبي حنيفة –والذي صادف أن كان حاجا ذلك العام– أقنع أصحاب الدور بالموافقة على التوسعة نظرًا لضرورتها. وتحدث المقدسي عن المسجد الحرام فذكر : " أن طوله كان يبلغ ثلاثمائة وسبعين ذراعًا، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعًا .«كما ذكر المقدسي أن للمسجد آنذاك تسعة عشر بابًا، قام بذكر أسمائها كما يلي: (باب بني شيبة، باب النبي، باب بني هاشم، باب الزياتين، باب البزارين، باب الدقاقين، باب بني مخزوم، باب الصفا، باب زقاق الشطوي، باب التمارين، باب دار الوزير، باب جياد، باب الحزورة، باب إبراهيم، باب بني سهم، باب بني جمح، باب العجلة، باب الندوة، باب البشارة.)([١٥٧]).

---

157 – يبدو أن بعض هذه الأسماء أطلقها المقدسي اجتهادًا منه حسب ما رآه منتشرًا من باعة وأسواق وبضائع لفتت انتباهه حول هذه الأبواب

أما عن المطاف فذكر المقدسي أن مكان الطواف مفروش بالرمل بينمـا يغطي الحصى بقية أرض المسجد وتحدث عن إنارة المطاف وأشار إلى أن القناديل كانت تعلق بالسلاسل. ووضح المقدسي كيفية إنارة المطـاف ذاكرًا أن هناك أعمدة، أطلق عليها اسم الأميال، مـصنوعة مـن حديـد الصفر، وتصل بينهما أخشاب تعلق فيها القناديل بالسلاسل، وفـي هـذه القناديل كانت توضع الشموع. ثم تحدث المقدسي عن بئر زمـزم قـائلاً «وقبة زمزم تقابل الباب والطواف بينهما» مبيناً أن موقع بئـر زمـزم مقابل لباب الكعبة. أما عن مقام إبراهيم فتحـدث المقدسـي قـائلاً : « والمقام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب، وهو أقرب إلـى البيـت مـن زمزم، يدخل في الطواف أيام المواسم» ، وتحدث عن صندوقين خصّصا لتغطية المقام حسب الظروف والمناسبات أحدهما مصنوع من الخـشب والآخر من الحديد.([١٥٨]).

وصف المقدسى للكعبة المشرفة :

ووصف المقدسي في كتابه الكعبة المشرفة بشكل مقتضب دون الـدخول في التفاصيل وذكر أن ارتفاع الكعبة سبعة وعشرون ذراعًـا، وقـال إن مسافة الطواف مائة وسبعة أذرع . كما وصف الحجر الأسود وقال إنـه «على الركن الشرقي عند الباب على لسان الزاوية مثل رأس الإنـسان ينحني إليه من قبله يسيرًا . أما عن حِجْر إسماعيل فقد تحدث المقدسـي عن ذرع تدويره فذكر أن «ذرع تدويره خمسة وعشرون ذراعًا». كمـا

---

[158] – وذكر ابن جبير في رحلته هذين الصندوقين مؤكداً قول المقدسى فىذلك ، بحيث يوضع الصندوق الحديد على المقام أثناء الموسم ليحتمل الزحام، أما في الأيام العادية فيوضع عليه صندوق من الخشب .

وصف موقع الحِجْر وشكله بقوله : " والحِجْر من قبل الشام فيه يقلب الميزاب شبه أندر([159]) قد ألبست حيطانه بالرخام مع أرضه، وارتفاعها (حقو)([160]) ويسمونه الحطيم، والطواف من ورائه" .

قول المقدسى فى أسواق مكة :

وتحدث المقدسي عن أسواق مكة ولاحظ مدى تلاصقها بأبواب المسجد الحرام وعلاقتها لبعض السلع التي كانت تباع قربها. وذكر المقدسي أن الفواكه كانت تجلب إلى أسواق مكة من الطائف كما تحدث عن البلدان التي تجلب منها الملابس والثياب إلى مكة فقال: «ومن طبرستان الأكسية التي تفضل على الفارسية وطيالسه وثياب الخيش المحمولة إلى الآفاق ويباع منها بمكة شيء كثير صغار الدراهم وكبار تسمى بالغرب المكية واللفائف». وذكر المقدسي بعض النقود المتداولة في مكة فقال : «لأهل مكة المطوقة وهي والعثرية ثلثا المثقال تؤخذ كدراهم اليمن عددًا وتفصل العثرية حتى ربما كان بينهما دريهم». وعن الدراهم المتداولة في مكة قال المقدسي : " والدراهم المستعملة في الأقاليم تسمى بمكة المحمدية "([161]) .

---

159 – فى لسان العرب الأندر بأنه البيدر .

160 – فى لسان العرب الحقو هو : الخصر ومشد الإزار من الجنب .

161 – المقدسى المعروف بالبشارى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مطبعة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٨ .

ثانياً : رحلة ناصر خسرو إلى مكة ووصفه لها:

رحلات ناصر خسرو([١٦٢]) والتي أوردها في كتابه النثري الوحيد (سـفر نامه) أي كتاب السفر، قد استغرقت هذه الرحلات سبع سنوات بين عامي ٤٣٧هـ ، ٤٤٤هـ ، أولى هذه الرحلات حين أدى ناصر خسرو فريضة الحج أربع مرات خلال هذه السنوات. وقد أجاد ناصر خسرو في وصفه للأماكن من الشام إلى الحجاز، أو من مصر إلى جدة ومنها إلى مكة والمدينة.

أدى ناصر خسرو أول فريضة حج عام ٤٣٨هـ ، وقد أشار إلى هـذه الرحلة دون أية تفاصيل مرجئاً الحديث عنها إلى رحلة حج أخرى ، وقد اكتفى بالحديث عن مشاق السفر، وأنه سافر سيراً على الأقدام من القدس الشريف إلى مكة المكرمة في ثلاثة عشر يوماً، وكان الطريق - على حد قوله- ممتلئ بالأعراب الخطرين الذين لا يتورعون عن القتل والسلب.

---

162 - ناصر خسرو قبادیانی (١٠٠٤ - ١٠٨٨ م) رحالة وشاعر وفيلسوف فارسي، اعتنق المذهب الشيعي الإسماعيلي وعمل داعياً له. له كتاب الأسفار أو السفرنامه، الذي دوّن فيه أخبار أسفاره في أرجاء العالم الإسلامي، وامتاز بوصف دقيق لبيت المقدس ووصف نادر لأحوال وسط وشرق الجزيرة العربية أيام القرامطة والأخيضريين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). الكتاب باللغة الفارسية ويتمتع بقدر من الشعبية في إيران، إلا أنه مترجم أيضاً إلى العربية. كان ناصر خسرو شيعياً من فريق إسماعيلية ولكنه لا يشارك الكسائي كراهيته للخلفاء الثلاثة الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان. والشاعر يبالغ في إطراء علي وشيعته وفاطمة والأئمة وسلمان الفارسي والمختار الذي انتقم لموقعة كربلاء. أما الخليفة العباسي فيذكره الشاعر باسم الشيطان العباسي أو ديو عباسي. وهو يذم أهل السنة ويسميهم الناسبيين كما يذم ثلاثة من أئمة المذاهب السنية وهم أبي حنيفة ومالك والشافعي.

عاد بعدها ناصر خسرو إلى القدس مرة ثانية، ومن هناك واصل الرحلة إلى مصر، حيث أقام فيها ثلاث سنوات، أتاحت له هذه الإقامة ثلاث رحلات حج ، وحيث استطاع أن يتقرب إلى سلطان مصر في ذلك الوقت المستنصر بالله الفاطمي، فكان يبعثه ضمن البعثة المصرية الرسمية المصاحبة للكسوة الشريفة، وقد قال عن هذه السفرة الثانية: " ... رافقت الكسوة قاصدين الذهاب إلى مكة، وقد غادرت القافلة المكلفة بإيصال الكسوة من مصر في غرة شهر ذي القعدة، وكنت مع القافلة حيث وصلنا إلى بحر القلزم، وركبنا الباخرة، وبعد خمسة عشر يوماً وصلنا إلى ميناء الحجاز على ساحل الحجاز، ومن الحجاز اتجهنا إلى المدينة فوصلناها بعد أربعة أيام".

وفي عام أربعين وأربعمائة أتيحت له فرصة الحج للمرة الثالثة، وذلك بمصاحبة البعثة الرسمية المكلفة بإيصال الكسوة الشريفة، وقد سلكت الرحلة نفس الطريق في الأراضي المصرية وكذلك بالباخرة حتى ميناء الحجاز (يقصد جدة) وهنا اختلف الأمر عن الرحلة السابقة حيث توجه الركب إلى مكة مباشرة ووصلوها في الثامن من شهر ذي الحجة، حيث أدوا بعد ذلك جميع مناسك الحج، وعادوا بعدها إلى مصر دون أن يتحدث بشيء عن مكة كما فعل في الحجتين الأولى والثانية.

وكانت الحجة الرابعة، وهي الأخيرة له، قد قام بها بمفرده عام اثنين وأربعين وأربعمائة للهجرة ، وذلك عن طريق أسوان والقلزم، وكانت فرصة سانحة لكي يقيم هذه المرة مدة ستة أشهر دون أن يكون مرتبطاً بالبعثة الرسمية المصرية كالرحلتين السابقتين. ونتيجة لطول الإقامة فقد أتيحت له الفرصة لكي يشاهد ويسجل ويزور كل الأماكن التي لم تتح له زيارتها من قبل، ولهذا جاء حديثه هذه المرة واضحاً مفصلاً.

وصفه لجدة :

وكان أول ما نزل، نزل بمدينة جدة، فحرص على وصفها وذكر انطباعاته عنها، ومما قاله: (جدة مدينة كبيرة ذات سور عظيم، تقع على ساحل البحر الأحمر، عدد سكانها في ذلك الوقت نحو خمسة آلاف نسمة، أسواقها نظيفة جيدة، ولا أثر للعمران خارج سور مدينة جدة، إلا مسجد يعرف بمسجد الرسول عليه السلام. ولسور جدة بابان، باب مما يلي مكة، وباب مما يلي البحر، وجدة بلد غير ذي زرع، وكل ما فيها يجلب إليها من ريف الحجاز، والمسافة بين جدة ومكة اثنا عشر فرسخاً، وأمير جدة أحد رعايا أمير مكة المكرمة، الذي يعد كذلك أميراً للمدينة).

وصفه لمكة عند دخوله لها :

غادر ناصر خسرو مدينة جدة يوم الجمعة بعد صلاة العشاء، ووصل إلى مكة كما يقول يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة، فوجدها قد امتلأت بالعمار القادمين من كل أنحاء الحجاز واليمن، إذ أن شهر رجب من كل عام موسم عظيم تعج مكة بعمّارها وزوارها، وكذلك في رمضان وعيد الفطر، وإذا كان الحجاج من كل أطراف الأرض يفدون إليها في موسم الحج، فإن سكان أطراف الحجاز واليمن يؤمون مكة في كل الأوقات وبخاصة في هذه المواسم الثلاثة: غرة رجب، وعيد الفطر وعيد الأضحى وذلك لقرب مكة منهم!

بعد ذلك بدأ يصف مكة، وما يحيط بها من جبال، وما تضمه من أسواق، ومما قاله: " تقع مكة في واد تحيط به الجبال من كل جانب، لذا لا تبدو مكة واضحة لقاصدها إلا إذا اقترب منها، وأعلى جبالها جبل (أبي قبيس)، وأول ما تشرق الشمس في مكة يشاهد قرصها مطلاً على مكة من أعلى هذا الجبل.

وصفه للمسجد الحرام :

تحيط بالمسجد الحرام أسواق كثيرة، ودروب ضيقة تـزدحم بالمتـاجر وكلما كان أحد الدروب قريباً من جبل من الجبال، فإنهم يبنـون عليـه سقيفة، ويجعلون لها بوابة للدخول وأخرى للخروج. ويقع فـي الجانـب الشرقي من الحرم سوق كبيرة تمتد من الشمال إلى الجنوب، ويقع مدخل تلك السوق الرئيسي في الجهة الجنوبية التي في سفح أبي قبـيس، أمـا الصفا فيقع تحت سقف أبي قبيس مباشرة، بل إن درجات الصفا جزء من صخور أبي قبيس. ويصعد الناس فوق درجات محاذية لتلـك الـصخور للبدء في مناسك السعي وتقع المروة في نهاية هذا الممر الطويل الذي يبدأ من الصفا، ويرى الساعي المتاجر عن يمنه وعن يساره خلال سعيه بين الصفا والمروة، والمروة أكثر ارتفاعاً من الـصفا. وإذا أراد المـرء أن يعتمر خرج من مكة، وبعد نصف فرسخ عنها، وهناك يجمع بين الحـل والحرم، وفي هذه المواقيت مساجد عامرة يؤدي فيها العمـار ركعتـي إحرام العمرة: ولعله يقصد بذلك المقيمين بمكة الراغبين في أداء العمرة والاستعداد لهـا بالإحرام، أو الوافدين الذين اعتمروا عقب وصولهم من أوطانهم، ثم خلعوا ملابس الإحرام وأرادوا تأدية العمرة مـرة أخـرى، وجب عليهم الخروج إلى هذه المواقيت شأنهم شأن المقيمين، ويغتـسلون ويرتدون ملابس الإحرام ويصلون ركعتي الإحرام، ثم يتوجهون بعد ذلك إلى الكعبة المشرفة لإتمام العمرة مرة أخرى.

بعد ذلك بدأ يشرح كيفية الإحرام، فقال: الإحـرام يعنـي أن يـتخلص الإنسان من الخيط، ويرتدي إزاراً لا خياطة به، والـرداء مكـون مـن قطعتين، إزار ورداء، يلتف بهما الإنسان ثم يرفع صوته بالدعاء قـائلاً: (لبيك اللهم لبيك) ويتوجه بعد ذلك إلى مكة، فإذا وصلها دخـل المـسجد

الحرام وتوجه إلى الكعبة، وعليه أن تكون الكعبة على يساره، ويستلم الحجر الأسود، حيث يبدأ الطواف ويكرره على هذه الهيئة سبع مرات، يرمل في ثلاثة أشواط، ويسير الهوينا في الأشواط الأربعة الباقية. وعندما ينتهي الإنسان من نسك الطواف بالبيت الحرام، يتوجه إلى مقام إبراهيم عليه السلام والمقام في مواجهة الكعبة، ويقف خلف المقام ويصلي ركعتي الطواف، وبعد الصلاة والدعاء يتوجه المرء إلى بئر زمزم، فإذا شرب من ذلك الماء المقدس وغسل وجهه ويديه، غادر البئر إلى باب الصفا، وهو أحد أبواب المسجد الحرام المؤدية إلى المسعى، وما أن يصل المرء إلى الصفا، يرتقي تلك الدرجات التي في السفح، ويستقبل القبلة داعياً، وينوي السعي بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثم ينحدر من الصفا إلى المروة، ويكون سيره من الجنوب إلى الشمال. وقد سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المكان، وأسرع، وأمر أصحابه بالإسراع حتى لا يظن بهم المشركون ضعفاً أو خوراً، ويهرول المرء مسافة خمسين قدماً في هذا المكان. وهذا المكان الذي هرول فيه النبي صلى الله عليه وسلم ظاهر للعيان ومعلم بعلامات بارزة لا تخطئها العين.

ثم يتحدث بعد ذلك عما يفعله العمار والحجاج بعد السعي من تقصير للشعر، فقال: إذا نزل الساعي من المروة في نهاية السعي فإنه يرى سوقاً كبيراً، وفي هذا السوق أحصى ناصر خسرو عشرين دكاناً للحلاقة، يحلقون فيها ويقصرون شعور الحجاج والعمار، وتعتبر هذه الدكاكين امتداداً لسوق كبير يقع شرق المسجد الحرام يقال له: سوق العطارين، وهو سوق غاية في الجمال، وأكثر ما يباع فيه الأدوية والعقاقير الطبية والأعشاب. ويقدر ناصر خسرو سكان مكة فى زمانه بألفي نسمة، فيها

خمسمائة من الغرباء والمجاورين. وأخيراً ينهي زيارته لمكة المكرمة للمرة الرابعة محدداً المدة وتاريخ زيارته هذه قائلاً: هذه هي المرة الرابعة التي أزور فيها مكة، وقد مكثت بها مجاوراً من غرة رجب ٤٢٢هـ (١٠ نوفمبر ١٠٥٠م) إلى العشرين من ذي الحجة (٣ مايو ١٠٥١م).

بعد أن أنهى ناصر خسرو مراسم الحج وأدى جميع مناسكه، غادر مكة متجهاً إلى اليمن، وبعدها بدأ يسجل وصفه للكعبة المشرفة، وغيرها من الأماكن المرتبطة بمناسك الحج، وهذا أهم ما قدمه في كتابه (سفرنامه)(١٦٣).

ثالثاً: رحلة الإدريسي الى الحجاز وذكره لمكة :

وهي رحلة من الرحلات التاريخية الموثقة الى مكة المكرمة والمدينة المنورة، قام بها أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحموي الحسني المعروف بالشريف الإدريسي (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م) الذي زار الحرمين الشريفين حينما كان في مصر وبلاد الشام، الى جانب رحلاته التي تحدث عنها المهتمون بحياته. ولا بد أنه اكتسب معرفة بأحوال البلاد وإحاطة بأهلها، وهذا كان وراء دعوته من قبل روجار الثاني لقاعدة صقلية. ولعل للظروف الدولية التي صادفت وجوده هناك،

---

163 – للاستزادة فى ذلك راجع : ناصر خسرو ، "سفر نامة" رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية فى القرن الخامس الهجرى ، ترجمة وتحقيق/ يحى الخشاب ، البنك العربى الدولى للمعلومات ، ١٩٩٣م .

أثراً في إهمال المعلومات التي أوردها عن مكة المكرمـــة([164])، والتـــي خفيت عن سائر الذين تناولوا تاريخ البلد الحـــرام .والمهـــم فـــي هـــذه المرويات أنها تملأ فراغاً كبيراً مما شعرنا به في (العقد الثمين) و(شفاء الغرام) و(غاية المرام) وما كان يتبع هذه التآليف من (منائح الكرم) الى (تاريخ مكة) و (الحرم المكي) وغير ذلك مما كان الباحث يرجع إليه فيما توافر في مكتبته .فماذا عند الإدريسي من جديد في عهده عن مكة فـــي كتابه المعلمة (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ([165]) (الذي كتبه ســـنة ٥٤٨هـــ/ ١١٥٣م ، من الملاحظ منذ البدايـــة أن الإدريـــسي يتجنـــب الأساطير المروية عن هيّان بن بيّان. كما يلاحظ على العكس من ذلـــك، أن مكة المكرمة تظل عنده القطب الذي يحيل اليه حتى لو تحـــدث عـــن (أهل الصمّان الذين كتب لهم الفقر بأمان) ، وحتى لو كان حديثـــه عـــن قرية معدن النقرة التي يجتمع فيها حاج الكوفة والبصرة .

ثم إنه ما ينفك ذاكراً الحجيج ومسالكه الى مكة، وهذا يعبر عـــن تعلـــق الرجل بالمكان، ولو أنه أغفل الزمان. وهكذا نجده، وهو يتناول الجـــزء الخامس من الإقليم الثاني، يذكر ان فُرضة مكة هي جدة التي يـــذكر ان واليها كان تابعاً لشريف مكة الهاشمي، الذي يقصد بـــه ـــ دون شـــك ـــ هاشم بن فليتة الذي تولى أمر مكة من سنة ٥٢٧ه / ١١٣٢م ، الى سنة

---

164 – أحمد سوسه، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، جـــ ٢، بغداد: نقابة المهندسين العراقيين، ١٩٧٤م، ص ٢٧١، وما بعدها .

165 – محمد بن محمد الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نابولي: المعهد الجامعي الشرقي، د. ت، تسعة أجزاء.

٥٥١هـ/ ١١٥٦م، فهاشم هذا هو الذي أقام الخطبة للعباسيين([166]). ويؤكد الإدريسي في (النزهة) أن الهاشمي شريف مكة هو الذي كان يقبض صدقات جدة ولوازمها ومكوسها ويحرس عمالتها. ولها ـ وهي فُرضة مكة ـ مراكب كثيرة تتصرف الى جهات كثيرة .

قول الإدريسى فى مكة :

يقول عن مكة في عهده: إنها قديمة أزلية البناء، مشهورة، معمورة مقصودة من جميع الأرض الإسلامية، وإليها محجهم المعروف، وهي مدينة بين شعاب الجبال، وطولها من المعلاة الى المسفلة نحو ميلين، وهو من حد الجنوب الى جهة الشمال، ومن أسفل جبل أجياد الى ظهر جبل قُعيقعان ميل . والمدينة مبنية في وسط هذا الفضاء، وبنيانها حجارة وطين، وحجارة بنيانها من جبالها . وذكر أن صاحب مكة كان يسكن في قصر له بالجهة الغربية بموضع كان يعرف بالمربعة على بعد ثلاثة أميال من مكة، وكان مبنياً من الحجارة، وتجاوره حديقة فيها نخيلات، وكثير من المقل (الدوم)، وكان بها جملة شجر منقولة إليها .

وصف الإدريسى للحرم :

وفي وسط مكة مسجدها الجامع المسمى بالحرم، وليس لهذا الجامع سقف، وإنما هو دائر كالحظيرة. والكعبة، وهو البيت المسقف في وسط

---

166 – علي بن تاج الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق: جميل عبدالله المصري، وآخرون، جـ ٢، مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى: ١٩٩٨، ص ٢٤٥ .

الحرم، وطول هذا البيت من خارجه من ناحية الشرق أربعة وعشرون ذراعاً، وكذلك طول الشقة التي تقابلها في جهة الغرب(١٦٧) . وشرقي هذا الوجه باب الكعبة، وارتفاع الباب على الأرض نحو قامة(١٦٨). وسطح الكعبة من داخل مساو لأسفل الباب . وفي ركنه الحجر الأسود، وطول الحائط الثاني الذي من جهة الشمال وهو الشامي، ثلاثة وعشرون ذراعاً، وكذلك الشقة الأخرى التي تقابلها من جهة اليمن . ومع أصل هذه الشقة موضع محجوز في دائر، وطوله خمسون ذراعاً، وفيه حِجْر أبيض يقال: إنه قبر إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

وفي الجهة الشرقية من الحرم قبة العباس، وبئر زمزم، والقبة اليهودية. وما استدار بالكعبة كله حطيم يوقد فيه بالليل مصابيح ومشاعل. وللكعبة سقفان، وماء السقف الأعلى يخرج عنه الى خارج البيت في ميزاب من خشب . ويعتقد أن هذا الميزاب، الذي كان على عهد الإدريسي من خشب، هو نفسه ميزاب ابن رامشت الذي نقل السنجاري أن سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م، شهدت وصول مثقال، خادم الشيخ أبي القاسم بن رامشت صاحب الرباط المشهور، وصوله بعد موته بتابوته ومعه ميزاب كان قد عمله سيده للكعبة، فركب الميزاب(١٦٩). قال الشريف الإدريسي: وذلك الماء (النازل من الميزاب) يقع على الحِجْر الذي قلنا: إنه قبر إسماعيل .

---

167 – محمد بن عبدالله الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي ملحس، ط٨، جـ١، مكة المكرمة: ١٩٩٦، ص ٢٨٩ .

168 – نفس المرجع السابق ، جـ١، ص ٣٠٧.

169 – نفس المرجع السابق ، جـ١، ص ص ٣١١ ــ ٣١٤.

والبيت كله من خارج ــ على استداراته ــ مكسو بثياب الحرير العراقية، لا يظهر منه شيء، وارتفاع سمك البيت المذكور سبعة وعشرون ذراعاً. وهذه الكسوة معلقة فيه بأزرار وعرى، وصاحب بغداد المسمى بالخليفة يرسلها في كل سنة اليها فتكسى بها، وتزال الأخرى عنها، وهذا مهم، ولا يقدر أحد أن يكسوها غيره !

ومن خلال هذا النقل الذي كان معاصراً تقريباً لهذه المعلومة، نستفيد أن ما قاله التقي الفاسي: (وفي سنة خمسمئة واثنتين وثلاثين كسا الشيخ أبو القاسم بن رامشت الكعبة)، كان يعني أن أبا القاسم المذكور كان يعمل لحسابه الخاص بتواطؤ مع هاشم بن فُلَيتة .

وقد حدث أن جرؤ الهاشمي هذا سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٥م، على نهب ركب الحاج العراقي بالحرم الشريف وهم يطوفون بسبب حدث وقع بين هاشم وأمير الحاج العراقي، فكان هذا سبباً لرد فعل من المقتفي الخليفة العباسي في بغداد (٥٣٠ ــ ٥٥٥هـ/ ١١٣٥ ــ ١١٦٠م) تجلى في إنفاذ الخليفة المذكور ميزاباً جديداً عوض ميزاب ابن رامشت. وفي السنة نفسها عمّر سقف الكعبة، والدرجة التي يصعد منها الى سطحها([١٧٠]).

ويتحدث الإدريسي عما يذكره أهل الخبر من أن الكعبة كانت خيمة لآدم عليه السلام، قبل أن يهدمها الطوفان، وتأتي مدة إبراهيم وإسماعيل التي شهدت إعادة البنيان.

---

170 – السنجاري، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٤٧.

ذكر الإدريسى عن مصادر المياه :

كل ما ذكره عن المياه أنها لم تستتم إلا في أيام المقتدر من بني العباس (٢٩٥ ـ ٣٢٠هـ/ ٩٠٧ ـ ٩٣٢م) وأن مياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب، وأطيبها ماء بئر زمزم، وماؤها شروب غير أنه لا يمكن إدمان شربه، وأن ليس بجميع مكة شجر ثمر إلا شجر البادية .

ذكر الإدريسى عن الأمن :

ويتحدث عن الناحية الأمنية في البلاد، حينذاك فيقول: وليس للهاشمي شريف مكة عسكر خيل، وإنما معسكره رحالة لا خيل لهم، وتسمى رجّالته (الحرابة). ثم يصف شريف مكة، فيقول: ولباسه البياض والعمائم البيض، وهو يركب الخيل، وسياسته حسنة، وحكمه عدل، وإنصافه ظاهر، وإحسانه غدق على قدر إمكانه . والرجل في حديثه عن المسالك التي تصل مكة بالمدينة لا يقتصر على المسلك الواحد، ولكنه يعدد الدروب لتختار منها ما تشاء. وهو في هذه الأثناء يشير الى ما تأكد عندنا من أنه شاهد عيان، يشير الى نمط من الناس سمة الشقاء عليهم بادية .

وقال: ولمكة موسمان، ينفق فيهما كل ما جلب اليها: أحدهما أول رجب، والآخر موسم الحجيج. ولأهل مكة أموال صامتة وأحوال فاشية، ودواب وجمال، كما أن لمكة مخاليف وهي الحصون. ولا زرع بها ولا حنطة إلا ما جلب إليها من سائر البلاد. والتمر يأتي إليها كثيراً مما حولها، والعنب يجلب إليها من الطائف (التي ينعتها بالمدينة المتحضرة) التي تأتي منها أكثر فواكه مكة، ويضرب المثل بجودة بغالها. والغالب على

ضعفاء أهل مكة الجوع وسوء الحال. وإذا خرج أحد عن مكة في كل جهة تلقاه أودية هنا جارية وعيون مطردة، وآبار غدقة، وحوائط كثيرة، ومزارع متصلة .

موارد مكة عند الإدريسى :

وفي معرض حديثه عن المدينة المنورة قال: إنها تقع في مستوى من الأرض، وإنها حارة سبخة، كان عليها سور قديم، وبخارجها خندق محفور، وهي الآنفي [في حين تأليف الكتاب في شوال ٥٤٨هـ/ يناير ١١٥٤م] عليها سور حصين منيع من التراب بناه قسيم الدولة الغازي، ونقل إليها جملة من الناس، ورتب المسير إليها. وحولها نخل كثير وثمرها حسن .وشرب أهلها من نهر صغير، يأتي إليها من جهة المشرق، جلبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجاء به اليها من عين كبيرة الى شمال المدينة، وأجراه بالخندق المحتفر بها .ومقدار مدينة يثرب على قدر نصف مكة، وفُرضتها هي (الجار) وهي قرية آهلة عامرة .

تميز الإدريسى بإقران مكة بما يصف من أماكن :

ووصف الإدريسي مكة على نحو ما وصف به مدينة سبتة مسقط رأسه، وعلى نحو هذا وجدناه يصف المسجد الأقصى بأنه ليس في الأرض كلها مسجد على قدره إلا المسجد الجامع بقرطبة في ديار الأندلس .

ظلت مكة محور حديث الإدريسي، حتى عندما تحدث عن مدينة أودغشت في إفريقية الغربية عندما قال: إنها مدينة بين جبلين على نحو

مكة. وعندما قارن في آسيا بين مكة ومدينة الجُرزوان التي تقع هي كذلك بين جبلين .

وهكذا فإن الباحث يرى أنه على مثل اليقين، إن لم يكن اليقين كله، من أن الإدريسي ـ بهذه المعلومات ـ سجل رحلته الى مكة، وأنه إذا لم يذكر طوافه وسعيه ووقوفه بعرفات، وإذا لم يذكر من لقيه من الرجال، ومن زودوه بالمعلومات، فلأنه يحترم موضوع التأليف الذي كان مخصصاً بالدرجة الأولى للشأن الجغرافي الصرف، على الرغم من أنه ـ مع ذلك ـ لم يستطع أن يحمي نفسه من ذكر حركة العمران بمكة المكرمة، وذكر رجال النفوذ بها، وذكر الحالة الإقتصادية والإجتماعية .

فإذا أضيف الى كل هذا أنه كان يتحدث الى الملك روجار الثاني الذي لم يكن يشاطره في المعتقد ولا في الهوية، حينئذ تتضح طريقة الإدريسي في أدائه لهذه الرحلة التي رأى الباحث أن من واجبه أن يذكرها في صدر الرحلات التي أسهمت، وبصفة واضحة، في التعريف بأم القرى، وما كان حديثاً يفترى([١٧١]) .

رابعاً : رحلة ابن جبير إلى مكة ووصفه لها:

---

171 – محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي ،نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م ، تم دمج المجلدين للتسلسل ، تاريخ إضافته: ٢١ / ١١ / ٢٠١٢

يعد ابن جبير([172]) من النماذج المميزة والخاصة للرحالة والجغـرافيين الذين رحلوا إلى مكة وزاروها وكتبوا عنها لأسباب منها :

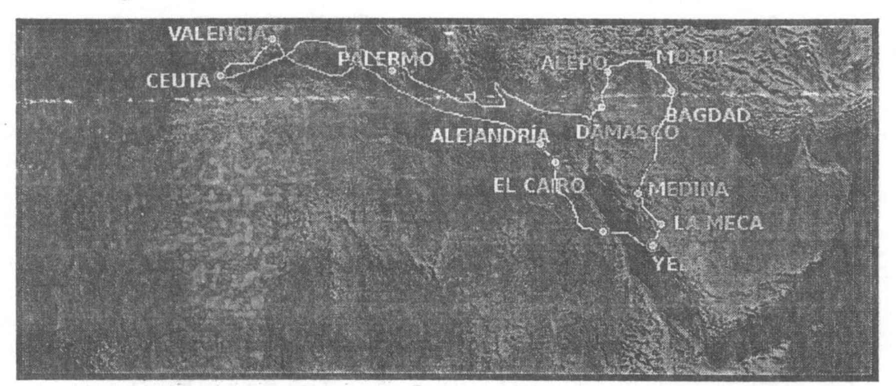
* الشغف العارم لزيارة مكة من قبل ابن جبير ([173]) . فيذكر أن حاكم غرناطة اضطره إلى شرب الخمر وكافأه على ذلك بـسبعة كـؤوس مملوءة بالدنانير ، ومن ثم عزم ابن جبير على أن يحج إلى بيـت الله الحرام تكفيراً على خطيئته ، ولذلك نبتت عنده فكرة الرحلـة شـكل (١٧) ، وبدأت رحلته من غرناطة بالأندلس فى يوم الخميس الثـامن من شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ أو الثالث من فبرايـر (شباط) سـنة

---

172 – هو: محمد بن أحمد بن جبير بن سعيد بن جبير بن محمد بن سعيد بن جبير بن محمد بن مروان بن عبد السلام بن مروان بن عبد السلام بن جبير من بني ضمرة من قبيلة كنانة المضرية العدنانية. المعروف باسم ابن جبير الأندلسي ولد في فالنسيا سنة ٥٤٠ هـ، ١١٤٥م، هو جغرافي، رحالة، كاتب وشاعر أندلسي عربي. وكان من أسرة عريقة سكنت الأندلس عام ١٢٣ هـ، أتم حفظ القران الكريم، ودرس علوم الدين وشغف بها وبرزت ميوله أيضا في علم الحساب والعلوم اللغوية والادبية واظهر مواهب شعرية ونثرية رشحته للعمل كاتبا. تعلم على يد ابيه وغيره من العلماء في عصره ثم استخدمه أمير غرناطة أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك الموحدين في وظيفة كاتم السر فاستوطن غرناطة. وكان الأمير أبا سعيد استدعاه يوما ليكتب عنه كتابا وهو يشرب الخمر، فأرغم ابن جبير على شرب سبعة كئوس من الخمر وأعطاه سبيعة اقداح دنانير، لذلك صمم ابن جبير على القيام برحلة الحج بتلك الدنانير تكفيرا عن خطيئته واق امن في سفره سنتين ودون مشاهداته وملاحظاته في يوميات عرفت برحلة ابن جبير، وسميت باسم "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار" والذي كتبه حوالي سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م وتداوله الشرق والغرب حتى قام المؤرخ والمترجم الانجليزى ويليام رايت بنشره وطبعه في كتاب جمع عدد كبير من الرحلات لرحالة وحجاج عرب وأجانب مسلمين ومسيحيين ويهود عرف باسم " Early travelers in Palestine

173 – أبو الحسن محمد بن جبير الكنانى البنسى ، ويعد من أبرز الرحالة المسلمين العرب الذين سجلوا أخبار رحلاتهم بدقة ، وقد اشتهر بتنوقه فى كتابة النثر والشعر ، وكان موطنه الأندلس .

١٠٨٢م قاصداً برحلته آداء فريضة الحج المفروضة عليه ، جاء إلى الإسكندرية بحراً من الشاطئ الغربى للبحر المتوسط ، وأقام بها ووصف معالمها وتحدث عنها كثيراً ، ثم اجتازها إلى القاهرة وأقام بها ، ومنها انتقل على بحر النيل إلى مدينة قوص ، فبراً إلى ميناء عيذاب الذى امتطى منه سفينة بحرية صوب مدينة جدة ، ودخل مدينة جدة فى عهد الأمير مكثر بن عيسى أمير مكة ، ووصفها وصفاً شاملاً أصاب فى أكثره [١٧٤] . وأقام بعد ذلك بمكة عدة أشهر ورحل للعراق والشام ، ووصل عائداً إلى وطنه فى ٥٨١هـ ، وخلف ما يسمى (رحلة ابن جبير) واصفاً الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمناطق التى قام بزيارتها وصفاً دقيقاً [١٧٥] .



شكل (١٧) رحلة ابن جبير ٥٧٨هـ/١٠٨٢م – ٥٨١هـ/١٠٨٥٤م.

---

174 – عبد القدوس الأنصارى ، الجزيرة العربية فى رحلتى ابن جبير والعبدرى ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، جامعة الرياض ، ١٣٧٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٣٢٧.

175 – انظر ، ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٩٧ وما بعدها .

* أقام ابن جبير ثمانية اشهر وبضعة أيام بمكة المكرمة ، وتعد هذه المدة التى قضاها ابن جبير بمكة هى أطول إقامة قضاها فى بلد رحل إليها طيلة رحلته ، ولذلك كان ابن جبير على درجة من التمكن فى وصف أشياء وأمور بلد الله الحرام ، ورحل عنها بعد ان أشبع عاطفته الدينية الحارة والمشبوبة من طول المقام بمكة ، واتجه صوب الشمال قاصداً المدينة المنورة ، وكما كان دخول ابن جبير مكة المكرمة يوم الخميس ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ كان خروجه منها أيضاً إلى المدينة المنورة يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة سنة ٥٧٩هـ [١٧٦].

أهم معالم مكة الجغرافية فى رحلة ابن جبير :

وصف ابن جبير معالم مكة المختلفة فى العمران والعمارة والأودية والاستهلاك والتجارة وغيرها من المجالات وذلك كما يلى :

* ففى مجال العمارة والعمران : كان أول المشاهد التى وصفها ابن جبير من مشاهد مكة المكرمة هى الكعبة المشرفة والمسجد الحرام ، فوصف مبانيه وأرضه وأبوابه ومآذنه وماء زمزم وعن المسجد الحرام فقد نقد ابن جبير الخرافة المتداولة إلى عهد قريب ، وهى أن عتبات باب السلام من أبواب المسجد الحرام بمكة هى من أصنام قريش التى كانت تعبدها فى الجاهلية وبينها كبيرها هبل ، فقد نقد ابن جبير هذه الخرافة بقوة وإصرار ، ومن دلائله أن النبى – صلى الله عليه وسلم – يوم فتح مكة كان قد أمر بتكسير الأصنام وبإحراقها ، وجزم بأن هذه الحجارة المستطيلة الملص الزيتونية اللون التى هى من عتبات باب السلام هى منقولة إليه من جبال مكة وإنما شبهها القوم بالأصنام لعظمتها [١٧٧] .

---

176 – رحلة ابن جبير ، ص ١٦٠ .

177 – رحلة ابن جبير ، ص ٨٥ – ٨٦ .

* وصف جبال وأودية مكة : وصف ابن جبير جبال مكــة وأوديتهــا ، وعدد جبال مكة المأثورة ، ومما عنى بوصفه من جبال مكة المــأثورة ، جبلا أبى قبيس وحراء ، وعن حراء قال : أن الرسول – صلى الله عليه وسلم قال : وهو على ظهره : اسكن فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ، وذكر ابن جبير من آثار مكة دار الخيزران(١٧٨) ، والتى كانت تعرف فى صدر الإسلام بدار الأرقم بن أبى الأرقم والتى تقع قرب سفح جبــل الصفا بمكة (١٧٩) .

---

178 – دار الجيزران هى دار الأرقم وهي الدار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس فيها ليعلم أصحابه تعاليم الدين في بداية الدعوة، وكانت عند الصفا، وكانت للصحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم بن أسد بن عبد الله بن عمر المخزومي وأمه أميمة بنت الحارث. ودُعيَت دارُ الأرقم بعد ذلك بدار الإسلام، ولهذه الدار قصة طويلة ذكرتها كتب التاريخ ملخصها: أن الأرقم رضي الله عنه تصدق بها قبل وفاته على ولده، وجاء في نسخة الصدقة. بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما قضى الأرقم في ربعه ما حاز الصفا، إنها محرمة بمكانها من الحرم، لا تباع ولا تورث، شهد هشام بن العاص، وفلان مولى هشام بن العاص. فلم تزل هذه الدار صدقة قائمة فيها ولده يسكنون فيها ويؤاجرون حتى كان زمن أبي جعفر المنصور فإنه حج في إحدى السنوات، وبينما هو يسعى رأى تلك الدار فوقعت في نفسه، ثم بعد زمن ساوم أحد أحفاد الأرقم على بيعها وهو عبد الله بن عثمان بن الأرقم وكان مسجوناً عنده في قصة يطول ذكرها، فساومه على بيعها مقابل أن يخلي سبيله، فتنازل له عن حقه وكتب عليه كتاب شِرىً على حساب سبعة عشر ألف دينار وتتبع إخوته -وكانوا له شركاء في الدار- ففتنتهم كثرة المال فباعوها له، فصارت لأبي جعفر ولمن أقطعها. ثم صَيَّرَهَا المهدي للخيزران أم موسى وهارون فبنتها وَعُرِفَتِ الدار بها فصارت تسمى دار الخيزران، ثم صارت لجعفر بن موسى أمير المؤمنين، ثم سكنها أصحاب الشَّطْوِي والعَدَني، ثم اشتراها غسان بن عباد من ولد موسى بن جعفر وهكذا. وهي الآن خبر بعد عين دخلت في حدود المسعى.

179 – رحلة ابن جبير ، ص ٩٢ .

وقد أمعن ابن جبير النظر والصف لأودية مكة ، مثل وادى بطن مـر ، فقال عنه أنه يقع إلى الشمال من مكة بمسافة ستة عشرة ميلاً ، وهو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة الماء ، تسقى منها الأراضـى الزراعية الواقعة فى تلك المنطقة ، وتقع على هذا الوادى قـرى كثيـرة وعيون غزيرة ، من أشهرها عين البرقة ، التى عرفت المنطقة باسـمها وهى مقر الأمير شكر بن ابى الفتوح ، أمير مكة مع جيش خاص به . وتجاور بطن مرعدة أودية ومناطق زراعية كعـسفان والبـرزة وكليـة وخليص ، وجميعها تشتهر بزراعة الخضار والحبوب والنخيل ، وكـان لبعض المكيين مزارع بالقرب من مكة المكرمة تروى بماء العيون كعين سليمان وغيرها ، وكانت هذه المزارع تنتج مختلف الحاصلات الزراعية وقد عمل المكيون على استقدام عمال من المغاربة مـن ذوى البـصارة بالفلاحة والزراعة ، فاستطاعوا أن ينهضوا بالزراعة فيها وان يحـدثوا بها كثيراً من البساتين والمزارع "فكانوا أحد الأسباب فى خـصب هـذه الجهات" (١٨٠) .

* ووصف ابن جبير صفات الناس وطبائعهم : فقد شاهد ابن جبير طائفة من أهل جبال السراة يقدمون إلى مكة فى موسم الحـج ومعهـم قوافـل الأرزاق والفواكه والشمل (نوع من العبى منسوج من الصوف الثقيـل) فأبدى سروره وإعجابه بذلك . ووصف هؤلاء القوم البسطاء كما شاهدهم ، كما وصفهم بالشجاعة والنجدة والمروءة . وكان فقيه من فقهاء الـيمن قد حدث ابن جبير عن هؤلاء القوم السرويين المـائرين لمكـة ، بـأنهم ينسبون إلى سراة الرجال ، وهو قول يجانبه الصواب فإن هؤلاء القـوم إنما ينسبون إلى "السراة" وهى سلسلة الجبال الممتدة من جنوب المملكـة

180 – رحلة ابن جبير ، ص ٩٨ وما بعدها .

العربية السعودية إلى الشمال والمعروفة من قديم باللغة العربية بهذا الاسم التاريخى الشهير (١٨١) .

* وصف ابن جبير للأسواق بمكة : فكان السوق حول الحرم يمتد فى معظمه على جانبى المسعى من الصفا إلى المروة ، وما يسمى السعى بين الصفا والمروة هو السعى فى هذه السوق من أولها لآخرها .

وفى أيام المواسم ، فيغدو المسجد الحرام كله سوقاً يباع فيه من الدقيق إلى العقيق ومن البر إلى الدر إلى غير ذلك من السلع ، فكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة بنى شيبة ، وتباع بقية الأشياء حول الحرم فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشرق ، وفى البلاط الآخذ من الشمال إلى الجنوب .

كما كان سوق آخر يعمر فى أيام الموسم بالأخص فى أيام التشريق ، وهو سوق منى ، وتقع منى على فرسخ من مكة ، وهى جزء من الحرم ، طولها ميلان ، وهى تعمر فى الموسم وتخلو بقية السنة ، وهى عبارة عن أزقة ضيقة والمسجد فى الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة وبها آبار ومصانع وقياسير بينهما ، وكان بمنى حوانيت حسنة البناء قد بنيت بالحجر وخشب الساج ، ومنى فى تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق يباع فيها من الجوهر النفيس إلى أدنى الخرز إلى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا لأنها مجتمع أهل الآفاق (١٨٢) .

وتجدر الإشارة فى هذا الأمر إلى أنه حينما شاهد ابن جبير الناس يجعلون من المسجد الحرام بمكة سوقاً تجارية للبيع والشراء ، غضب وصب جام غضبه على هذا الصنيع الذى لا يتفق مع الشرع الحنيف ،

---

181 – عبد القدوس الأنصارى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٩ .

182 – رحلة ابن جبير ، ص ١٢٣ وما بعدها .

فالمساجد تبنى لعبادة الله وحده ، وأما البيع والشراء فمحلهما الأسواق خارج محيط المساجد المقدسة [١٨٣] .

* رأى ابن جبير فى خبر المكوس : كانت تطلق على ضريبة المكس على الجباية أو ما يأخذه العشار ، ويقال له الماكس وفكرة فرض المكوس قديمة وقد أبطل الإسلام المكس بأنواعه ، فقد جاء فى الحديث (لا يدخل الجنة صاحب مكس) [١٨٤] . ثم فرضت الزكاة عوضاً عنه ، إلا أن المكوس عرفت بمكة منذ مطلع القرن الرابع الهجرى ، على أن أقدم إشارة صريحة عن جباية المكوس من الحجاج كانت فى سنة ٣٢٧هـ [١٨٥] . كما أن هذا المكس لم يلبس أن تضاعف فى عهد الأمير محمد بن ابى هاشم أمير مكة ، فقد كان يؤخذ على كل حمل جمل يجتاز القرين مبلغ دينار علوية وفى ظل هذه الظروف قد صب ابن جبير جام غضبه على أمير مكة وطالب بإيقاف ما كان يأخذه من الحجاج بالقوة بل وإبعاده عن إمارة مكة قائلاً : "فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل هذه البلاد الحجازية لما هم عليه من حل عرى الإسلام واستحلال أموال الحجاج ودمائهم"

* قول ابن جبير فى خيرات وموارد مكة : جاء فى رحلة ابن جبير تحت عنوان "ما اختص الله تعالى به مكة" لتبيان ما تضمنه هذا البلد من خيرات فقال عن مكة : إنها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة ، والثمرات تجبى إليها من كل مكان ، فهى أكثر البلاد

---

183 – عبد القدوس الأنصارى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٩ .

184 – أبو داوود ، السنن ، الجزء الثالث ، ص ٣٤٩ .

185 – احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر . وبمقارنة ما وجده ابن جبير فـي مكة بما ظن أن الأندلس اختصت به من الوان الفاكهة وأنواع الأطعمة . ذكر يقول : وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبـات ، فكنـا نظـن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتـى حللنا بهذه البلاد المباركة فألقيناها تغص بالنعم والفواكه كالتين والعنـب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطـيخ والقثـاء والخيار ، إلى جميع البقول كلها : كالبازنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب ، إلى سائرها ، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة ، وأكثر هذه البقول كالبازنجان والقثاء والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره ، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة فى حاسة الذوق يفضل بها نوعهـا فى سائر البلاد ، فالعجب من ذلك يطول فقد ربط ابن جبيـر الانتعـاش الاقتصادى ووجود الخيرات الكثيرة فى مدينة مكة بالتجارة وما يرد إليها من أماكن قريبة كالطائف ، وهى على مسيرة ثلاثة أيام منها ، أو مـن بقاع بعيدة كاليمن والشام ، ويقول ابن جبير : وبركة البلد الأمـين قـد تكفلت بطيبة لا شك فيه والخبر عنه يضيق عن الخبر له ، والله يجعـل فيه رزقاً لمن تشوق بلدته الحرام ، وتمنـى هـذه المـشاهد العظـام ، والمناسك الركام بعزته وقدرته ، وذكر ابن جبير أوصاف الحياة الرغدة فى مكة المكرمة فى سنة زيارته لها "وتميزها عما سلف من السنين حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل بصادقها" وقال ابن جبير : ومن صنع الله الجميل وفضله العميم علينا أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهـده فيها ، وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنهـا مـن الحرابـة

المتلصصين فيها على الحجاج ، المختلسين ما بأيديهم ، والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه ، أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة ، فما منهم إلا أخذ يد القميص ، فكفا الله هذا العام شرهم إلا القليل ، وأظهر أمير البلد التشديد عليهم فتوقف شرهم ، وبطيب هوائها فى هذا العام ، وفتور حمارة قيظها المعهود فيها ، وانكسار حدة سمومها ، وكنا نبيت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه . وذلك أمر مستغرب بمكة .

ومن بين الأشياء الأخرى التى استدعت الانتباه فيما ورد من قول ابن جبير فى هذا المقام مسألة العمالة الوافدة إلى مكة وغيرها من البلاد الحجازية نتاج الزرع والمأكل والمشرب . كتب ابن جبير يقول : وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب ، وكل ما يصنع منها من السمن ، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة ، ويجلب إليها قوماً من اليمن يعرفون بالسرو نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر فى نهاية الطيب ، ويجلبون معه من اللوز كثيراً [١٨٦].

186 – رحلة ابن جبير ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٩٧ : ١٠٠ .

خامساً : ذكر ابن بطوطة عن مكة :

تناول ابن بطوطة"[187]" وصف مكة بتفصيلات دقيقة وشيقة بداية من ذكر مدينة مكة المعظمة والمسجد الحرام شرفه الله وكرمه و ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما ، و ذكر الميزاب المبارك و ذكر الحجر الأسود و ذكر المقام الكريم و ذكر الحجر والمطاف و ذكر زمزم و ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة و ذكر الصفا والمروة و ذكر بعض المشاهد خارج مكة ، و ذكر الجبال المطيفة بمكة و ذكر أميري مكة و ذكر أهل مكة وفضائلهم و ذكر قاضي مكة وخطيبها وإمام الموسم وعلمائها وصلحائها و ذكر المجاورين بمكة و ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم و ذكر عاداتهم في الخطبة وصلاة الجمعة و ذكر عاداتهم في استهلال الشهور و ذكر

---

187 – محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بَـطُوطَة (ولد في ٢٤ فبراير ١٣٠٤ – ١٣٧٧م بطنجة) (٧٠٣ – ٧٧٩هـ) هو رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه مغربي لقب بـأمير الرحالين المسلمين. خرج من طنجة سنة ٧٢٥ هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة والعراق وفارس واليمن وعمان والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين الجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا. وإتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم – وكان ينظم الشعر – واستعان بهباتهم على أسفاره. عاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان (من ملوك بني مرين) فأقام في بلاده. وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزي الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ وسماها تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. ترجمت إلى اللغات البرتغالية والفرنسية والإنجليزية، ونشرت بها، وترجم فصول منها إلى الألمانية نشرت أيضا. كان يحسن التركية والفارسية. واستغرقت رحلته ٢٧ سنة (١٣٢٥-١٣٥٢م) ومات في مراكش سنة ٧٧٩ هـ/١٣٧٧م حيث يوجد ضريحه بالمدينة القديمة. تلقبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بـأمير الرحالة المسلمين الوطنيين. في أول رحلة له مر ابن بطوطة في الجزائر وتونس ومصر والسودان وفلسطين وسوريا ومنها إلى مكة.

عادتهم في شهر رجب و ذكر عمرة رجب و ذكر عادتهم في ليلة النصف من شعبان و ذكر عادتهم في شهر رمضان المعظم و ذكر عادتهم في شوال و ذكر إحرام الكعبة و ذكر شعائر الحج وأعماله و ذكر كسوة الكعبة و ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى ، وقد حرصنا على عرض جزء منها كما هو دون تغيير على النحو التالى :

ذكره مدينة مكة المعظمة:

يقول ابن بطوطة : وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة، في بطن واد تحف به الجبال، فلا يراها قاصدها حتى يصل إليها. وتلك الجبال الملطة عليها ليست بمفرطة الشموخ. والأخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس، وهو في جهة الجنوب والشرق منها، وجبل قعيقعان، وهو في جهة الغرب منها، وفي الشمال منها الجبل الأحمر. ومن جهة أبي قبيس أجياد الأكبر، وأجياد الأصغر، وهما شعبان والخندمة، وهي جبل، وستذكر. والمناسك كلها: منى وعرفة والمزدلفة بشرقي مكة شرفها الله. ولمكة من الأبواب ثلاثة: باب المعلى بأعلاها، وباب الشبيكة من أسفلها، ويعرف أيضا بباب العمرة، وهو إلى جهة المغرب، وعليه طريق المدينة الشريفة، ومصر والشام وجدة. ومنه يتوجه إلى التنعيم، وباب المسفل، وهو من جهة الجنوب، ومنه دخل خالد بن الوليد رضي الله عنه يوم فتح مكة شرفها الله، كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بواد غير ذي زرع. ولكن سبقت لها الدعوة المباركة، فكل طرفة تجلب إليها، وثمرات كل شيء تجبى لها. ولقد أكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب ما لا نظير له في الدنيا، وكذلك البطيخ المجلوب إليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة، واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم. وكل ما

يفترق في البلاد من السلع، فيها اجتماعه. وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادي نخلة وبطن مر، لطفا من الله بسكان حرمه الأمين ومجاوري بيته العتيق.

ذكره المسجد الحرام شرفه الله وكرمه:

يقول ابن بطوطة : والمسجد الحرام في وسط البلد. وهو متسع الساحة. طوله من شرق إلى غرب أزيد من أربعمائة ذراع، حكى ذلك الأزرقي، وعرضه يقرب من ذلك. والكعبة العظمى في وسطه. ومنظره بديع. ومرآه جميل. لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه، ولا يحيط الواصف بحسن كماله. وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا؛ وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف، بأتقن صناعة وأجملها. وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة وإحدى وتسعون سارية ما عدا الجصية التي في دار الندرة المزيدة في الحرم، وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال. ويقابلها المقام مع الركن العراقي. وفضاؤها متصل، يدخل من هذا البلاط إليه، ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرئون والنساخون والخياطون. وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها. وسائر البلاطات تحت جدرانها مساطب بدون حنايا. وعند باب إبراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سواري جصية. وللخليفة المهدي ابن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه. وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين أصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة.

ذكره الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما:

يقول ابن بطوطة : والكعبة مائلة في وسط المسجد، وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا، ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الأسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني إلى الركن الشامي، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي، وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبرا والطواف إنما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجر الصم السمر، وقد ألصقت بأبدع الإلصاق وأحكمه وأشده، فلا تغيرها الأيام، ولا تؤثر فيها الأزمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار، وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم، حيث يستجاب الدعاء.

وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار، وهو مصفح بصفائح الفضة، بديع الصنعة وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة، وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل، ويستطرد قائلاً : وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع، وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها وبين ألاخر أربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين

العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود، مكتوب فيها بالأبيض، وهي تلألأ عليها نورا وإشراقا، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض. ومن عجائب الآيات في الكعبة الشريفة أن بابها يفتح، والحرم غاص بأمم لا يحصيها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم، ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا، ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف. ومن عجائبها أن حمام مكة وسواه من الطير، لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها ويقال لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض فإما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذي خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم.

ذكره كسوة الكعبة :

قال ابن بطوطة : وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري إلى البيت الكريم، فوضعت في سطحه، فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في إسبالها على الكعبة الشريفة. وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية. وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن، وعليها نور لائح مشرق من سوادها. ولما كيست شمرت أذيالها صونا من أيدي الناس. والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة. وفي هذه الأيام تفتح الكعبة

الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي، وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام، فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم. ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا، فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين أعطوه الفضة والثياب، وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة، وربما وجدوا إنسانا نائما فجعلوا في فيه الذهب والفضة حتى يفيق. ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا، وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة، وانتهى صرف المثقال إلى ثمانية عشر درهما نقرة، لكثرة ما تصدقوا به من الذهب. وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي السعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم.

ذكره الحجر الأسود :

يقول ابن بطوطة : وأما الحجر الأسود فارتفاعه عن الأرض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطامن لتقبيله، والصغير يتطاول إليه وهو ملصق في الركن الذي إلى جهة المشرق، وسعته ثلثا شبر، وطوله شبر وعقد، ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال: إن القرمطي لعنه الله كسره وقيل: إن الذي كسره سواه، ضربه بدبوس فكسره، وتبادر الناس إلى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة. وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة، يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم، فتتجلي منه العيون حسنا باهرا، ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم، ويود لاثمه أن لا يفارق لثمه، خاصية مودعة فيه، وعناية ربانية به وكفى قول النبي صلى الله عليه وسلم إنه يمين الله في أرضه ، نفعنا الله باستلامه ومصافحته، وأوفد عليه كل شيق إليه. وفي القطعة الصحيحة من الحجر

الأسود، مما يلي جانبه الموالي ليمين مستلمه، نقطة بيضاء صغيرة مشرقة، كأنها خال في تلك الصحيفة البهية .

ذكره الحجر والمطاف:

قال ابن بطوطة : ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة، وهي أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة، وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الإلصاق، وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر، وسعته أربعة أشبار ونصف شبر. وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المنظم المعجز الصنعة البديع الإتقان. وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين ما يقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا، وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي، وسعته ستة أذرع، وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته، كما جاءت الآثار الصحاح، والمدخل الآخر عند الركن الشامي، وسعته أيضا ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأبعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الإلصاق، وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا إلا في الجهة التي تقابل المقام الشريف، فإنها امتدت إليه حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل أبيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة"[١٨٨].

---

[188] – ابن بطوطه ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار/الجزء الأول/ ، مرجع سبق ذكره ، صفحة: ٦٢

ذكره زمزم:

قال ابن بطوطة : وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الأسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الشريف عن يمين القبة. ومن ركنها إليه عشر خطا. وداخل القبة مفروش بالرخام الأبيض، وتنور البئر المباركة في وسط القبة، مائلا إلى الجدار المقابل للكعبة الشريفة. وهو من الرخام البديع الإلصاق مفروغ بالرصاص. ودوره أربعون شبرا، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف شبر، وعمق البئر إحدى عشرة قامة وهم يذكرون أن ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة إلى جهة الشرق وقد استدارات بداخل سقاية سعتها شبر، وعمقها مثل لك، وارتفاعها عن الأرض نحو خمسة أشبار، تملأ ماء للوضوء، وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه، وبابها إلى جهة الشمال. وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق، وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء، فيشربه الناس وبها اختزان المصاحف الشريفة، والكتب التي للحرم الشريف وبها خزان تحتوي على تابوت مبسوط متسع، فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما. وأهل مكة إذا أصابهم قحط أو شدة أخرجوا هذا المصحف الشريف، وفتحوا باب الكعبة، ووضعوه على العتبة الشريفة، ووضعوه في مقام إبراهيم عليه وسلم، واجتمع الناس كاشفين رؤوسهم، داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الشريف، فلا ينفصلون إلا وقد تداركهم الله برحمته، وتغمدهم بلطفه.

ويلي قبة العباس رضي الله تعالى عنه على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية.

ذكره الصفا والمروة :

قال ابن بطوطة : ومن باب الصفا الذي هو من أبواب المسجد الحرام إلى الصفا ست وسبعون خطوة، وسعة الصفا سبع عشرة خطوة، وله اربع عشرة درجة علياهن كأنها مسطبة، وبين الصفا والمروة أربعمائة وثلاث وتسعون خطوة، منها من الصفا إلى الميل الأخضر ثلاث وتسعون خطوة، ومن الميل الأخضر إلى الميلين الأخضرين خمس وسبعون خطوة، ومن الميلين الأخضرين إلى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة. وللمروة خمس درجات، وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة. والميل الأخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي إلى المروة، والميلان الأخضران هما ساريتان خضراوان إزاء باب علي من أبواب الحرم، أحدهما في جدار الحرم عن يسار الخارج من الباب، والأخرى تقابلها، وبين الميل الأخضر والميلين الأخضرين يكون الرمل ذاهبا وعائدا، وبين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة، يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه.

ذكره بعض المشاهد خارج مكة :

قال ابن بطوطة : فمنها الحجون وقد ذكرناه، ويقال أيضا: إن الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب، وهو أيضا الأبطح، وهو يلي الجبانة المذكورة، وفيه خيف بني كنانة الذي نزل به رسول الله صلى

الله عليه وسلم، ومنها ذو الطوى وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص دون ثنية كداء، ويخرج منه إلى الأعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرام. وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنه إذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذي طوى ثم يعتسل منه ويغدو إلى مكة، ويذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل ذلك. ومنها ثنية كدي بضم الكاف، وهي بأعلى مكة، ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع إلى مكة. ومنها ثنية كداء بفتح الكاف، ويقال لها الثنية البيضاء، وهي بأسفل مكة، ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الوداع، وهي بين جبيلين. وفي مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق، وكل من يمر به يرجمه بحجر. ويقال: إنه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب.

وبين هذه الثنية وبين مكة بسيط سهل ينزله الركب إذا صدروا عن منى، وبمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بإزائه حجر موضوع على الطريق كأنه مصطبة يعلوه حجر آخر، كان فيه نقش فدثر رسمه. يقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته. فيتبرك الناس بتقبيله ويستندون إليه. ومنها التنعيم، وهو على فرسخ من مكة، ومنه يعتمر أهل مكة، وهو أدنى الحل إلى الحرام، ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه، وأمره أن يعمرها من التنعيم.

وبنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها إلى عائشة رضي الله عنها. وطريق التنعيم طريق فسيح، والناس يتحرون كنسه في كل يوم

رغبة في الأجر والثواب. لأن من المعتمرين من يمشي فيه حافيا. وفي هذا الطريق الآبار العذبة التي تسمى الشبيكة، ومنها الزاهر، وهو على نحو ميلين من مكة، على طريق التنعيم، وهو موضع على جانبي الطريق فيه أثر دور وبساتين وأسواق. وعلى جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأواني الوضوء، يملأها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر، وهي بعيدة القعر جدا. والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء، وذو طوى يتصل بالزاهر.

ذكره الجبال المطيفة بمكة :

قال ابن بطوطة : فمنها جبل أبي قبيس وهو في جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله، وهو أحد الأخشبين، وأدنى الجبال من مكة شرفها الله، ويقابل ركن الحجر الأسود. وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة. وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره. وهو مطل على الحرم الشريف، وعلى جميع البلد. ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة. ويذكر أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله، وفيه استودع الحجر زمان الطوفان. وكانت قريش تسمية الأمين لأنه أدى الحجر الذي استودع فيه إلى الخليل إبراهيم عليه السلام. ويقال: إن قبر آدم عليه السلام به. وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر.

ومنها قعيقان، وهو أحد الأخشبين، ومنها الجبل الأحمر، وهو في جهة الشمال من مكة شرفها الله، ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين

المعروفين بأجياد الأكبر وأجياد الأصغر، ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم، يقال إنها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله في كتابه العزيز، عليه أعلام من حجارة، ومنها جبل حراء، وهو في الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها، وهو مشرف على منى، ذاهب في الهواء عالي القنة. ومنها جبل ثور، وهو على قدر فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن، وفيه الغار الذي أوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله، ومعه الصديق رضي الله عنه .

ذكره أهل مكة وفضائلهم :

قال ابن بطوطة : ولأهل مكة الأفعال الجميلة والمكارم التامة والأخلاق الحسنة والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء. ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق، ثم يطعمهم. وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالأفران، حيث يطبخ الناس أخبازهم. فإذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله إلى منزله فيتبعه المساكين فيعطي لكل واحد منهم ما قسم له، ولا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزة واحدة فإنه يعطي ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر. ومن أفعالهم الحسنة أن الأيتام الصغار يقعدون بالسوق، ومع كل واحد منهم قفتان: كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتي الرجل من أهل مكة إلى السوق، فيشتري الحبوب واللحم والخضر، ويعطي ذلك الصبي فيجعل الحبوب في إحدى قفتيه، واللحم والخضر في الأخرى، ويوصل ذلك إلى دار

الرجل ليهيأ له طعامه منها، ويذهب الرجل إلى طوافه وحاجته، فلا يذكر أن أحدا من الصبيان خان الأمانة في ذلك قط، بل يؤدي ما حمل على ما أتم الوجوه. ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس.

وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فترى ثيابهم أبدا ناصعة ساطعة. ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الأراك الأخضر. ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف. وهن يكثرن التطيب، حتى إن إحداهن لتبيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا. وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعة، فيأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا. ولأهل مكة عوائد حسنة وغيره سنذكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها.

ذكره عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم :

قال ابن بطوطة : فمن عاداتهم أن يصلي أول الأئمة إمام الشافعية، وهو المقدم من قبل أولي الأمر. وصلاته خلف المقام الكريم، مقام إبراهيم الخليل عليه السلام في حطيم له هنالك بديع. وجمهور الناس بمكة على مذهبه. والحطيم خشبتان موصول ما بينها بأذرع شبه السلم، تقابلهما خشبتان على صفتهما، وقد عقدت على أرجل مجصصة، وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق فيها قناديل زجاج. فإذا صلى الإمام الشافعي صلى بعده إمام المالكية في محراب قبالة الركن اليماني، ويصلي إمام الحنبلية معه في وقت واحد مقابلا ما بين الحجر

الأسود والركن اليماني، ثم يصلي إمام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك، ويوضع بين يدي الأئمة في محاربيهم الشمع. وترتيبهم هكذا في الصلوات الأربع، وأما صلاة المغرب فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته، ويدخل على الناس من ذلك سهو تخليط، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي وسجد الحنفي بسجود الحنبلي. وتراهم مصيخين كل واحد إلى صوت المؤذن الذي يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو"[١٨٩].

سادساً : مكة المكرمة كما ذكرها الرحالة الفرنسي المسلم " جيل - جرفيه كورتلمون ":

لكثير من علماء الغرب من مستشرقين وغيرهم، يدٌ طُولى في إبراز معالم جزيرة العرب، وفي كشف ما خفي من آثارها، فضلًا عن ما لهم من فضلٍ في إحياء التراث الإسلامي، والشرقي، بوجه عام . وهناك فئة من هؤلاء الغربيين هي فئة الروّاد من العلماء والمغامرين الغربيين، الذين كشفوا كثيرًا من معالم جزيرة العرب وآثارها، وعرفوا المجهول من مختلف أخبارها وأحوالها، بعد أن جاسوا صحاريها، واخترقوا فيافيها وقفارها، ووصلوا إلى أصقاعها النائية، وتوغلوا في مجاهلها، مدفوعين بدوافع مختلفة، مستهينين في سبيل ذلك بجميع الأخطار والصعوبات، مهما بلغت من شدة وعنف، ضاربين أروع الأمثال بصبرهم وجلدهم، وتحملهم لنمط من حياة الشظف والقسوة، قلّ أن يستطيع ابن الصحراء

---

189 - ابن بطوطة ، مرجع سبق ذكره ، ص ص ٦٩-٧٥ .

نفسه أن يجاريهم في تحمّله في هذا العصر" ([190]). أحد هؤلاء الرحالة الغربيين هو الفرنسي "جيل – جرفيه كورتلمون" ([191]) ؛ الذي أسلم وسافر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وكذلك إلى المدينة المنورة

190– قدرى قلعجي ، اكتشاف جزيرة العرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، (٢٠٠٦)، ص ص٥-٦.

191– ولد الرحالة الفرنسي كورتلمون في "أفون" في ١٥ من محرم عام ١٢٨٠هـ الموافق الأول من يوليو عام ١٨٦٣م، وهو الولد الوحيد لأبيه لويس فكتور جرفيه، كان أبوه ميسور الحال وكانت أمه ربة بيت، لما مات والد جيل سنة ١٢٨٤هـ الموافق ١٨٦٨م تزوج ابن صديق الأسرة أرملة جرفيه، والدة جيل. غادرت الأسرة كلها للعيش في الجزائر سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٨٧٤م، عنده حب الاستطلاع، فشرع في الاهتمام بالإسلام، هذه الديانة التي كانت تحيط به من كل جهة في حياته منذ وصوله إلى الجزائر. في هذه الفترة كانت توجد في الجزائر جمعية كبيرة يطلق عليها اسم: جمعية كونكورديا، تضم الأدباء والمثقفين، وأغلب أعضائها من علية القوم في الجزائر، ويصبح كثير من أعضائها من كبار الصحافيين في الجزائر وباريس، ومن المختصين في المعاملات التجارية الكبرى وغير ذلك. عقد "جيل" صداقات مع عدد من أعضاء هذه الجمعية، وعرف كيف يستغل هذه الصداقات. وكان جيل قد ارتبط قبل ذلك مع زوج أمه بعلاقة قوية لدرجة أنه قرر أن يحتفظ باسمه، وأصبح يوقع باسم جرفيه – كورتلمون. وأحيانًا كثيرة يوقع بكورتلمون فقط. كما أن زوجته "هيلين" أصبحت تعرف باسم السيدة كورتلمون. وكان كورتلمون محبًا للترحال، فسافر إلى مناطق مختلفة من الجزائر والقاهرة والقدس ودمشق، وعاد بزاد من الصور التي نشرها في مجلته، أو عرضها للبيع في معرضه في شارع الألوان الثلاثة بمدينة الجزائر العاصمة. تزوج من ابنة أحد أصدقائه (هيلين) قبيل رحلته إلى مكة المكرمة وأنجب منها بعد عودته ولدًا سمَّاه عبدالله، ثم قام برحلة إلى إقليم التبت (يونان) في الصين عام (١٣١٩هـ/١٩٠٢م) ونشر مسترد رحلته إليها في كتاب تحت عنوان «رحلة اليونان» عام (١٣٢١هـ/١٩٠٤م) واستغرقت تلك الرحلة أكثر من سنة. وبعد عودته من يونان ذهب إلى باريس، وفتح معرضًا لبيع الصور الملونة التي كانت تعد من أحدث التقنيات في ذلك العصر. وكان يلقي محاضرات عن رحلته وخاصة رحلته إلى مكة المكرمة ويعرض صور تلك الرحلات. سافر إلى تركيا مرةً بمفرده والأخرى مع زوجته عام (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) ثم ذهبا معًا إلى تركيا مرةً أخرى عام (١٣٢٨هـ/١٩١٠م).

للصلاة في المسجد النبوي الشريف والتشرف بالسلام على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وكتب عن رحلة حجه كتابًا بعنوان "رحلتي إلى مكة المكرمة".

وكان انتشار الوباء خلال رحلة كورتلمون إلى مكة المكرمة قد منعه من زيارة المدينة المنورة للصلاة في مسجد الرسول صلّى الله عليه وسلّم والتشرف بالسلام عليه، لذا فقد عمل المستحيل للتوجه على متن القطار إلى المدينة المنورة من أجل التقاط الصور الملونة للمسجد النبوي الشريف على وجه الخصوص، والمدينة المنورة على وجه العموم ([١٩٢]).

خط سير رحلة كورتلمون إلى مكة المكرمة:

تقدم كورتلمون بطلب بعثة علمية إلى وزارة التربية العامة، ولكن وزارة الخارجية التي استشيرت في الموضوع رفضت ذلك الطلب ونصحته بالتراجع عن مشروعه للسفر إلى مكة المكرمة فتقدم كورتلمون بطلبه إلى الحاكم الفرنسي العام في الجزائر، الذي وافق على ذلك ولكن على مسؤولية صاحب الطلب الخاصة. وتم إعطاؤه جواز سفر باسم عربي هو

---

192 – **عايش كورتلمون إنشاء سكة حديد دمشق – المدينة المنورة. وقد اشتغل في هذه السكة خمسة وخمسون مهندسًا تركيًا، بالإضافة إلى مهندسين غربيين: أحدهما فرنسي والآخر ألماني، كما تمت الاستعانة بنحو سبعة آلاف جندي من الجيش التركي، وقد كلف ذلك المشروع ٩٣ مليون فرنك فرنسي، ويبلغ طول السكة ١٣٠٠ كلم، وقد دشنت مع نهاية فصل صيف سنة (١٣٢٨هـ-١٩١٠م). وفي أوائل سبتمبر عام (١٩١٠م) استقل كورتلمون القطار مع أعضاء لجنة تنظيمية كان قد تقرر إرسالها لحضور حفل تدشين محطة سكة الحديد بالمدينة المنورة. وقد قام كورتلمون بالتقاط صور كثيرة منها صور للمسجد النبوي الشريف، وهي من أقدم الصور الملونة لهذا المسجد، وتوجد هذه الوثيقة التاريخية في المتحف السينمائي روبير لينين في مدينة باريس . وفي عام (١٣٣٠هـ - ١٩١٢م) سافر كور تلمون إلى الهند والتقط كثيرًا من الصور الملونة لما كان يظن أنه مفيد فني .**

(عبدالله بن البشير) . سافر كورتلمون بعد ذلك إلى فرنسا لإجراء بعض الترتيبات، ومن هناك توجه إلى السويس لمرافقة قافلة المحمل المصري مع بعض أصدقائه. إلا أن ظروفًا أجبرته على التأخر عن ذلك الموعد والعودة إلى الجزائر التي غادرها بعد ذلك هو وصاحبه على متن باخرة تدعى (كلوكوز-Glaucus) كانت تتبع شركة (هولتز-Holtz) وكانت هذه السفينة تقوم برحلة أسبوعية بين الجزائر العاصمة وبورسعيد، إلا أنها كانت ستقوم بالسفر إلى جدة مباشرة في تلك الرحلة بعد الوقوف في بورسعيد والسويس وقد استغرقت رحلتهم إلى جدة عشرة أيام.

وصفه لميناء جدة :

يقول كورتلمون أنه عندما وصلت السفينة إلى جدة: «انتظرنا طويلا وصول أحد المرشدين، إذ يصعب على السفينة «كلوكوز» أن تزحف إلى مسافة أكثر نحو الساحل، وأخيرًا جاء المرشد فصعد إلى جسر السفينة. إنه رجل يرتدي بدلة طويلة، وعلى رأسه عمامة متواضعة، لون عينيه أسود أدكن، كما لو أنهما محترقتان، يحدق في الأفق دون أن يرمش، ويعطي أوامره المتعلقة بإجراءات الوصول باللغة الانجليزية». ثم يستطرد الرحالة قائلًا: «رسونا على مسافة عدة أميال من البر، أكثر من المسافة المعتادة لأن ربان سفينتنا شديد الاحتياط، فهو لا يريد الزيادة في عدد السفن التي غرقت على الساحل الممتلئ بحطامها، إذ نرى هنا سفينة تجارية مشطورة إلى نصفين وهناك يظهر لنا على سطح الماء، شراع وبجانبه قمة مدخنة، وبموازاة ضفة البحر تنتشر علامات صخور متموجة تبرز في مستوى سطح المياه تدل على وجود أرصفة مرجانية

مما يشكل تهديدًا دائما للسفن ([193]). وبعد أن قضى كورتلمون فترة من الزمن في جدة قرر السفر إلى مكة المكرمة وبدأ استعداداته للرحلة.

وصفه الطريق من جدة إلى مكة المكرمة:

عندما سافر رحالتنا من جدة إلى مكة المكرمة وصف مسار رحلته من جدة إلى مكة المكرمة، ووسيلة النقل التي استخدمها لذلك، والمدة التي استغرقتها الرحلة في كتابه ما ننقل منه هنا بتصرف: أصبح كُل شيء جاهزًا للانطلاق، توضأت الوضوء الأكبر، ولبست ثوب الإحرام. ها أنا ذا على الطريق امتطي حماري، عاري الجذع، حليق الرأس، في الساعة الثانية ظهرًا، تحت وهج شمس محرقة. سرنا في منبسط مرمل نحو ١٦ كلم، ثم ارتفع الطريق بشكل غير ملحوظ، منزلقًا بين جبال الحجاز الجرداء، التي تتتابع خلجانها، الشبيهة بالبراكين الخامدة، كحبات سبحة طويلة. لقد سوت حوافر القوافل، بمرورها على مر السنين، الصخور التي كانت تشكل عوائق على الطريق، فأصبحت الطريق مستوية تشبه تمامًا مجرى وادٍ رملي جاف. ينزل الظلام في هذه المنطقة بشكل مفاجئ تقريبًا، وفترة الغروب لا تستغرق وقتًا طويلًا، كما أن نور القمر الخافت لا يظهر إلا نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل» . ثم يصف هذا الرحالة وقوفهم للراحة في «حدة» التي تقع في منتصف الطريق بين جدة ومكة المكرمة فيقول: نحن الآن في قرية «حدة»، في منتصف الطريق أنزلنا أغراضنا عن ظهور الحمير، صلينا جماعة، ثم قُدم لنا الأكل» . وبعد مغادرتهم «حدة» يقول كورتلمون عن بقية الطريق: «ومرة أخرى

193– كورتلمون، جيل: رحلتي إلى مكة، ترجمة / محمد أحمد الحناشي، التراث، الرياض، (١٤٢٣هـ – ٢٠٠٢م)، ص ص٩-١٥.

وجدنا أنفسنا من جديد في المنخفضات الدائرية، وهي حفر سوداء بعيدة القرار، فأخذتني سنه من النوم، وبدأت في الحلم»([١٩٤]).

وصفه الوصول إلى مكة المكرمة:

يقول كورتلمون إنه عند حدود مكة المكرمة رأى عامودين من الأسمنت تشير إلى بداية حدود الحرم يشبهان باب المزرعة يبتعد بعضها عن بعض عدة أمتار. استمر رحالتنا في السير مع رفاقه باتجاه المدينة المقدسة ووصل إليها بعد تجاوز أحد منعطفات الطريق. ويصف هذا الرحالة الفرنسي المسلم مدخل مدينة مكة المكرمة فيقول: تختفي مكة بين جبلين يقتربان بعضهما عن بعض، ولا نعلم بدخول المدينة إلا بعد دخول شوارعها الأولى. لا توجد نظرة شاملة تمكننا من مشاهدتها كاملة، فالشوارع تتابع، وكلها متشابهة، تستمر هكذا إلى الحرم الشريف الذي يمكن القول بأنه يتوارى في مكان ما أسفل المدينة، وتختفي عن النظر بشكل غامض، كما تختفي البيضة في قاع العش.

وصفه المسجد الحرام:

يصف كورتلمون الحرم الشريف قائلًا: دخلنا فناء الحرم الشريف بعد ترحيب مطوفنا عبدالرحمن بوشناق بقدومنا وهو المسجد الكبير والوحيد في مكة المكرمة، ها هي ذي الكعبة المشرفة. (كان في مكة المكرمة آنذاك مساجد أخرى - كاتب المقال). ثم يستطرد رحالتنا قائلًا: كانت الساعة تقترب من السادسة، وهناك بصيص نور وردي يضفي على جميع الأشياء مسحة الصباح الندية، فجلسنا في ساحة الحرم الشريف ينتابنا شعور من الإجلال والحب، وبعد برهة من التأمل شرعنا في أداء

---

194 - نفس المصدر السابق، ص ص٦٧-٧٠.

سكان مكة خلال زيارته لها نحو ١٠٠,٠٠٠نسمة ([195]) ، ويبدومن وصفه أن مكة كانت غاصة بالوافدين والعمار فى ذلك الوقت.

وصفه لأسواق مكة المكرمة:

ويتحدث رحالتنا عن أسواق مكة وبعض ما كان فيها من بضائع فيقول: تنتظم المهن في أحياء، كما هو الحال في جميع المدن العربية، وكان كل يوم يمثل بالنسبة إلى استكشافًا جديدًا. ذهبنا في أحد الأيام إلى أحد باعة القماش، فتمكنا بعد أخذ ورد، وبعد مفاوضات طويلة، ونقاش أطول، من شراء حزام وعمامة وقفطان وقطعة من القماش، وذهبنا في اليوم التالي، إلى سوق العطور، لشراء قليل من البخور لصديقنا الحميم في الجزائر عبدالرحمن، وشيئا من زيت خشب الصندل والمسك لأصدقاء آخرين، وذهبنا في يوم آخر إلى الحي الذي تباع فيه صفائح الماء من أجل التزود بماء زمزم. يوجد بهذا الحي عدد كبير من الحرفيين يصنعون من دون توقف أوعية من القصدير، من جميع الأشكال والأحجام، معدة خصيصًا لتُعبأ بماء زمزم، وتراهم يُفْصِلون ويلحمون ثم يملؤون، ويبيعون بأنفسهم، في محلاتهم التجارية الصغيرة، وهذه الأشياء الصغيرة الغالية التي يأخذها كل واحد منا عند عودته إلى بلده.. إذا عدنا إليه بصحة جيدة، بعون الله.

أما شراء الأشياء المصوغة، مثل خواتم الذهب أو الفضة، فتتطلب التحلي بالصبر. وتمثل الصياغات المكية مؤسسة حقيقية، يسيرها ويديرها، كما تسير المؤسسات الحكومية، أحد الشيوخ (شيخ الصاغة) وهو من حرفي المهنة نفسها. فهم صناع مهرة، يصنعون تحفًا جميلة بطريقة متقنة

---

195 – نفس المصدر السابق، ص ص٧٧– ٨٠.

ومتأنية، مثل سلاسل من الذهب والفضة، كما يصنعون عددًا كبيرًا من الخناجر التي يطلق عليها هناك اسم «الجنبية» ويتمنطق بها جميع عرب الصحراء، وتوضع أغلب هذه الخناجر في أغمدة فضية مذهبة على شكل (كم). ويصف كورتلمون طريقة تسعير الذهب عن طريق تحديد سعر الدرهم والذي يقول إنه يعادل نحو (ثلاثة جرامات) والتي تعد الوحدة الأساسية في ميزان صفقات الصاغه وزبائنهم .

ويقول كورتلمون: إنه لاحظ خلال تجوله في مدينة مكة المكرمة وجود عدة ماركات من البضائع المستوردة من أوروبا، كالأقمشة والمواد الغذائية، والخردوات، وبعض البضائع الإنجليزية والهولندية، وبعض الماركات الألمانية والإيطالية وأيضًا ولكن بشكل نادر بعض الماركات الفرنسية (وخاصة السكر المكرر في مصفاة مارسيليا).

ويخاطب كورتلمون عبر كتابه تجار فرنسا فيقول لهم: «لا يدخل في اختصاصي أن أعرف هل في إمكان التجار الفرنسيين المنافسة التجارية في هذه البضائع (مع التجار الإنجليز)، إلا أنني أؤكد أن هناك الشيء الكثير الذي يجب القيام به في هذا المجال، ولا أرغب في إثارة انتباه الفرنسيين إلى القماش فقط، بل هناك أيضًا المواد الغذائية، كالسكر والقهوة والأرز، والمعجنات، والبهارات، والفواكه، والأسماك المعلبة، بالإضافة إلى الألبسة وأدوات المطبخ والغسيل والأرفف والأدوات الأخرى . ما أن انتهى كورتلمون من زيارته إلى مكة المكرمة حتى بدأ يفكر في رحلة العودة إلى جدة والتي سيسافر منها عائدًا بعد ذلك إلى بلاده عن طريق ينبع.

بعد أن غادر جدة وصل كورتلمون إلى (ينبع) وقام بجولة فيها وتحدث عن أسواقها وبعض محتويات هذه الاسواق، كما تحدث عن سفينة

إنجليزية كانت راسية بجانبهم وكانت محملة بالقمح الذي كانت الحكومة العثمانية قد أرسلته. ومن ينبع توجهت السفينة التي أقلت كورتلمون إلى السويس ورست في حوضه بعد يومين. ومن السويس سافر كورتلمون إلى فرنسا على متن سفينة النقل البحري السريع (ملبورن MELBOURNE) في جو بارد وممطر ([١٩٦]).

196– نفس المصدر السابق، ص/١٢٧ - ١٤٦

منذ أن انتقل الثقل السياسي من الحجاز بعامة، ومن المدينة بخاصة، بانتقال عاصمة الخلافة إلى دمشق وبغداد، ثم القاهرة؛ اتسمت مكة والمدينة بالهدوء والاستقرار، وغلب عليها الطابع الروحي والعلمي، فانصرف أهلها للعلم والعبادة، ورغم ذلك لم تنقطع الصلات بين الحجاز والعواصم والناس، بل استمر محط الرحال، ومهوى الأفئدة، إليه يفد طالبو العلم، والمحبون، والتجار، والحجاج، والمعتمرون، فاجتذاب الرحالة المسلمين، حتى لقد أغرت المدينتان المقدستان غير المسلمين – كذلك – بالوفادة إليها.

وتنفرد مكة من بين مدن العالم جميعًا – نظرًا لأهميتهما الدينية في قلوب المسلمين – باجتذابها هجرات من آفاق العالم الإسلامي، وكان لذلك أثر كبير في تركيبتها السكانية، حتى صار السكان الأصليون قلة، وسط جموع تتدفق سنويًا في موسم الحج والعمرة، فيستقرون فيها عائلات وأفرادًا؛ يتَّاجرون أو يجاورون، ويتعلمون أو يُعَلِّمُون.

مقومات الرحلة المكية المؤثرة فى الحياة العلمية والاجتماعية :

من المعروف أن العنصر السكاني من حيث الجنس والدين، وطبقات المجتمع، ثم العادات والتقاليد والأعياد والاحتفالات والألبسة والأطعمة والمنشآت الاجتماعية، فضلاً عن الأحوال السياسية، والأوضاع الاقتصادية، كل ذلك عوامل مؤثرة في الحياة الاجتماعية في أي بلد من البلاد. ومكة والمدينة هاتان المدينتان المقدستان لهما من الأهمية ما جعلهما تنفردان في بعض العوامل المؤثرة في حياتهما الاجتماعية، أهمها: الحج وأوقاف الحرمين والمجاورون.

أولاً : بالنسبة للحج :

لقد أتاح الحج للمجتمع المكي والمدني الاختلاط بأبناء الشعوب الإسلامية الوافدين إلى المدينتين المقدستين للحج والزيارة، فيحتكون بهم ويتفاعلون معهم، ويرون ملبسهم ومأكلهم ولهجاتهم التي يتحدثون بها، ويطلعون على جانب من عاداتهم وتقاليدهم، خصوصًا وأنهم يقيمون مدة لا تقل عن شهر في مكة، ومثلها أو أقل منها في المدينة، فيتعايشون مع هؤلاء الحجاج، ويشهدون عن كثب ما يمارسون من نشاطات، وليس بوسع أفراد المجتمعين إلا أن يتأثروا فيما يرون.

وقد يتطور هذا التعايش بين المجتمعين: المكي والمدني والحجاج، وتحصل بعض المصاهرات التي تؤدي إلى امتزاج هذه الأجناس القادمة إلى الحج، فيختلطون ببعضهم، ولا يزال المجتمع المكي والمدني في عصرنا الحاضر يعكس آثار ذلك بشكل ملحوظ؛ فنجد هذا الامتزاج ظاهرًا في كثير من الأمور. ولذا فإنه من المؤكد أن الحج قد أثر تأثيرًا قويًا في المجتمع المكي والمدني.

ومن ثم فقد تعوّد المسلمون منذ العهد النبوي الأوّل أن يكون الحرم المكّي في موسم الحجّ موطناً للقاء بين العالِم والمتعلّم ومكان التلقّي للمعرفة والتفقّه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلال حجّة الوداع قائماً على التعليم والتثقيف، يُسأل فيجيب، ويتجمع حوله الناس فيبلّغ المعرفة والهداية. إلاّ أنّ تفقيهه ذلك لم يكن ليصل إلى جميع المسلمين، فدعا الناس وهو في الخيف من منى إلى إبلاغ المعرفة وتداولها والعمل على وصولها إلى كافّة الناس، وإنّ المعرفة أمانة عندهم عليهم إبلاغها لأيّ مسلم كان وتلقيها من أيّ مسلم كان بشرط الصدق والإخلاص. فقد روى الترمذي في

سننه حديثاً نصّه: "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيف من منى فقال: نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها ثمّ أسلمها إلى مَن لم يسمعها. فرُبَّ حامل فقه لا فقه له، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه" (١٩٧).

ودأب المسلمون على ذلك منذ فجر الدعوة إلى يوم الناس هذا، فإذا مكّة المكرّمة تصبح عاصمة للثقافة الإسلاميّة وتتعاضد مع المدينة المنوّرة لاحتضان وإيواء أولى المدارس العلميّة الإسلاميّة التي شرّعت الطريق ونهجت المناهج وغرست البذرات التي انتجت ثمار المعرفة الإسلاميّة فيها وفي الأمصار الأخرى.

يَقدُم الوافدون إلى مكّة فيهدون إليها ثقافاتهم وعلومهم، وتهديهم مكّة بدورها علماً واسعاً ومعارف نافعة، ويجدها الناس قد هيّأت لهم جماعات من العلماء وجحافل من المثقفين يستجيبون لتطلعاتهم ويجيبون عن أسئلة الحجيج وتوقفاتهم، وينشرون معارفهم التي وصلوا إليها ببحثهم ونظرهم، كما ينقلون لهم ما بلغهم من فقه وثقافات الأقطار الأخرى. وهكذا كان علماء مكّة صلة الوصل ونقطة الالتقاء بين علماء المسلمين على اختلاف بلادهم وأمصارهم.

وقد انتشر الوعي الثقافي والتطلّع العلمي في المجتمع المكّي فمسّ كلّ طبقات سكّانها، وبدت فيه ظاهرة دالّة على عمق المدينة المقدّسة بالثقافة والعلوم، ذلك أنّ مكّة عرفت منذ القرن الخامس الهجري عدداً كبيراً من العوائل العلميّة التي أخذت على عاتقها إبراز المكانة العلميّة لمدينتهم. وظلّت كلّ عائلة يتداول أبناؤها بنود المعرفة ويرفعون أعلام الثقافة أباً عن

---

197 – الترمذي: السنن، ١٠، ١١٤.

جد، فتعيش كلّ عائلة علميّة ما يُكتب لها من حياة، وقد يبقى بعضها منتجاً يزود المجتمع المكّي بالعلماء والمثقفين لسبعة قرون أو تزيد.

فمن العوائل العلميّة المكّية التي نذكرها للدلالة لا للإحاطة:

ـ بنو الطبري (الطبور): قرشيون وردوا من طبرة بفلسطين، وظهرت مكانتهم في العلم من القرن الخامس الهجري إلى الثالث عشر"[١٩٨].

ـ بنو فهد (الفهود) هاشميّون وردوا من آصفون بمصر، ظهروا في القرن الثامن واستمرّوا إلى ما بعد القرن العاشر.

ـ بنو الفاسي: وهم حسنيّون وردوا من فاس، وامتاز منهم التقي بتآليفه في القرن التاسع.

ـ بنو القسطلاني: وردوا من توزر بالجريد جنوب البلاد التونسيّة في القرن السابع.

---

[198] آل الطبري المشهورين بمكة فان كونهم سادات من نسل سيدنا الحسين السبط كاد أن يبلغ درجة القطع بما اختف به من القرائن وتداول مؤرخي مكة نسبهم مع كونهم بيت علم وشرف مشهورين في مشارق الأرض ومغاربها في الفضل . وهم اقدم ذوي البيوت بمكة . قال ابن فهد (٣) : اول من قدم مكة الشيخ رضي الدين أبو بكر محمد بن ابي بكر بن فارس الحسيني الطبري سنة ٥٧٠ هـ (1175 - 1174)م وكان دخول القضاء وامامة المقام الابراهييمي بينهم سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٤- ١٢٧٥م) ولم تزل الإمامة بالمقام مخصوصة بهم وكل من كمل منهم باشرها ولايحتاج الى إذن جديد لوقوع الإذن المطلق لهم. ومازالت المناصب العالية عندهم يتلقونها كابرا عن كابر من القضاء والفتيا والتدريس والإمامة والخطابة . وكانت الخطابة من القديم تنتقل فى ثلاثة بيوت أقدمهم بيت الطبرى ثم الظهيريون ثم النويريون. وكانت لهم الألفة مع أشراف مكة وأتصلت بالصهارة . فقد كان الشريف عجلان صاحب مكة تزوج منهم سنة ٧٧٠ ه (١٣٦٨ - ١٣٦٩ م) زينب بنت الشهاب أحمد ابن الجمال محمد الطبرى.

ـ بنو الحطاب: وردوا من طرابلس الغرب خلال القرن العاشر.

ـ بنو علان: عُرف منهم علماء ومؤرخون خلال القرنين التاسع والعاشر"[١٩٩]".

ـ بنو النهروالي: أصلهم من عدن، ووردوا من نهروالة بالهند في نهاية القرن التاسع، وأنتجوا علماً إلى القرن الحادي عشر.

لقد ساهم أبناء هذه البيوتات العلميّة من المكّيين في إرساء قواعد مجد علمي تليد وشرف ثقافي فاخر بما ألّفوا من الكتب والمجاميع والرسائل، وبما ألقوا من الدروس وأداروا من الحوارات العلميّة والمناظرات، وبما جمعوا من شهادات وإجازات علميّة تقاطرت عليهم من كلّ مراكز المعرفة التي حوتها البلاد الإسلاميّة.

وإنّ من خير ما عرفناه من رحلات علميّة تستجيب لما نريد وتقدّم لنا عينة عمّا كان يحدث في الحرم المكّي خلال موسم الحجّ من حركة علميّة رحلة المحدّث الأندلسي محمّد بن رُشَيْد الفهري (ت٧٢١هـ / ١٣٢١م)، التي سجّل فيها صاحبها وقائع اللقاءات العلميّة التي حظي بها، وما جمعه

---

199 - بيت ابن علان : ونسبتهم إلى الصديق احتفت بقرائن كثيرة. وقد نظمها أحد أجدادهم وهو الشيخ أحمد شهاب الدين بن إبراهيم الذى كان من أئمة التصوف بمكة فى القرن الحادى عشر وإبن أخيه الشيخ محمد بن علان كان من أفراد وقته علما وفضلا وهو الذى اختاره لتدريس البخارى فى جوف الكعبة أيام عمارتها الأخيرة بعد أن هدم السيل جوانب منها سنة ١٠٤٠هـ (١٦٣٠ - ١٦٣١م) .

من الكتب والأحاديث والمسائل المتفرقات ممّا قلّ أن اجتمع في غيرها من كتب الرحلات.

كانت رحلة ابن رشيد للحجّ سنة ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م، لم يُقِم بمكّة إلاّ أقلّ من عشرين يوماً، حيث دخلها في السادس والعشرين من ذي القعدة وغادرها قاصداً للمدينة المنوّرة في الخامس عشر من ذي الحجّة. ورغم ذلك، فقد لقي الرجل من العلماء الكثير، وجمع من مرويّاتهم وكتبهم وإجازاتهم الكثير.

والعادة في المجتمع المكّي من حركة علميّة مباركة في موسم الحجّ. إنّه لا يكتفي القادمون بالأخذ عن شيوخ مكّة وعلمائها، بل يكون التلاحم والأخذ والعطاء بينهم وبين المكّيين وبين الوافدين من مختلف بلادهم واتّجاهاتهم. فيأخذ المغربي عن الهندي ويأخذ الأندلسي عن العراقي، ويأخذ الطرابلسي عن اليمني، ويأخذ المصري عن الشامي وهلمّ جرّاً ممّا يمثّل شبكة من الاتصال توصل الأطراف بالأطراف وتقرّب المتباعدين، ويلتقي بهذا الحرم الأمين العلماء المسلمون من مختلف أقطار الأرض.

فهذا ابن رشيد الفهري السبتي يلتقي في المركب البحري بالفقيه أبي عبدالله المرجاني التونسي (٦٣٣ ــ ٦٩٩هـ) وتنعقد المودّة بينهما بعد اتّفاقهما حول قضيّة فقهيّة عرضت في طريقهما إلى عرفات، فتوجّها إليها وقد تماسكت أيديهما. وناظر المرجاني فقيه مكّة المكرّمة رضي الدين العسقلاني في مسائل فقهيّة. كما يشاركهما في المركب البحري عالم فاضل وأديب زاهد من مدينة بسكرة هو أبومحمّد عبدالله البسكري الذي روى عنه ابن رُشيد أشعاراً وأحوالا وأخباراً.

ويلتقي ابن رشيد بالعالمين الأخوين رضي الدين العسقلاني وعلم الدين العسقلاني في منزلهما في الحرم الشريف، فكان منهما الأنس والضيافة والاحتفال بابن رُشيد، وكانا معه في طريقهم إلى دارهما فسمع عليهما أولا حديثاً مسلسلا هو: "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء"[200]". كما قرأ ابن رُشيد على رضي الدين العسقلاني المكّي كتاب الأربعين من رواية المحمّدين تخريج الحافظ الجيّاني. وقُرئ عليه وابن رُشيد يسمع بالحرم الشريف أبيات شوق قالها أحد المغادرين لمكّة بعد حجّهم. كما سمع منه مسلسل الدعاء.

ولقي ابن رُشيد الأندلسي شيخاً من دمشق هو أبو اليمن عبدالصمد بن عساكر"[201]" عند وروده على مكّة، فسمع عليه جملة من الكتب بعضها بمنزله بمنى يوم النحر، وبعضها بباب منزله بالحرم، وسمع منه أشعاراً

---

200 – رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ الْمُؤَدِّبُ ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ ، وَمُسَدَّدٍ ، عَنْ سُفْيَانَ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، فِي الْبِرِّ ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ أَبِي عُمَرَ ، عَنْ سُفْيَانَ ، وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيحٌ .

201 – عبد الصمد بن عبد الوهاب بن أبي الحسن محمد بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين أمين الدين أبو اليمن بن عساكر الدمشقي نزيل مكة. حدث بالإجازة عن المؤيد الطوسي بـ «صحيح مسلم» وعن زينب السعدية بالرسالة لأبي القاسم القشيري. ومن شيوخه بالإجازة أبو روح عبد المعز الهروي وعبد الصمد الحرستاني وعبد الرحمن بن السمعاني ومحي الدين ابن العربي. وسمع شرح السنة للبغوي على أبي المجد محمد بن الحسن القزويني وعلى جده السن بالسيرة الهشامية بإجازته من ابن رفاعة. وسمع على الحسين بن الزبيدي «صحيح البخاري» وحدث به عن هذا سماعا وعن فضل الله بن عبد الرحمن المنهبي وجده أبي البركات الحسن سماعا عليه والحسن الزبيدي إجازة منه ومن المنهبي بسماعهم من أبي الوقت إلا جده فاجازة. وكان ذا خير وزهد وفضل وشعر حسن جاور بمكة نحو أربعين سنة. وتوفي في جمادى الأولى سنة ست وثمانين وستمائة بالمدينة النبوية ومولده سنة أربع عشرة وستمائة. وأخذ عن الموفق بن قدامة وأجاز له عبد الرحيم بن السمعاني والشيخ محي الدين ابن العربي

وإذا كان الحجّ في بعض جوانبه لقاءات ثقافيّة ومجتمع علوم، فإن تلك العلوم بأنواعها والمعارف بإشراقاتها لا تصيب محلّها ولا تظهر فائدتها إلاّ إذا توفّرت لها مجتمعات سليمة المسالك طيّبة المقاصد، معتمدة على قواعد من العدل وحسن التعامل، منطلقة من مبادئ الأخوّة بين المسلمين والمساواة بينهم، مؤسسة على أنّهم كالجسد الواحد إذا أصيب منه عضو تداعت له بقيّة الأعضاء.

ولقد حرص التشريع الإسلامي على أن يجعل الحجّ موعد لقاء المسلمين لتكريس قواعد اجتماعيّة تكون ذات أثر مفيد في مجتمعاتهم على اختلاف أنواعها. ففي الحجّ تربية إيمانيّة للإنسان، إذ هو يدفعه إلى ربط الصلة بينه وبين ربّه، ويقوده إلى حسن الاعتقاد وحسن العبادة وتذوّق حلاوة الإيمان مع عمق مشاعره الجيّاشة وارتفاع أصوات الاستجارة والدعاء والاستغفار. وفي الحجّ، تجرّد عن زخرف الدنيا وزينتها ليوجه الحاج إلى الخشوع الكامل لله فيعبده العبادة الكاملة. وفي الحجّ، ابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، وفي ذلك ابتعاد عن كلّ ضلال مضلّ، وكلّ طغيان أعمى، وكلّ نزوات حمقاء. وفي الحجّ وحدة تجمع مختلف أجناس المسلمين والوافدين من عديد أقطارهم، ففيه وحدة مساواة بين مختلف ألوان المسلمين ودرجاتهم الاجتماعيّة والمادّية، فلا فرق بين غني وفقير، ولا بين قائد وأجير، ولا بين خامل وأمير فكانوا جميعاً عباد الله وإخواناً. يكون لباسهم واحداً، ونداؤهم بالتلبية واحداً، وقيامهم بشعائرهم واحداً، وتنسى كلّ طبقة ما كانت فيه قبل قدومها خيراً كان أو شرّاً"[٢٠٣].

203– للاستزادة فى ذلك راجع : ابن رشيد السبتى ، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة و طيبة المعروفة ب : رحلة ابن رشيد السبتي (ت ٧٢١

ثانياً : بالنسبة لأوقاف الحرمين :

وكانت أوقاف الحرمين تشكل مورداً اقتصادياً له أكبر الأثر في إنعـــاش الحياة العلمية والاجتماعية في المـــدينتين المقدســتين، وبــدأ الإهتمـــام بالحرمين الشريفين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (ت 23هـ/ ٦٤٣) الذي وقف الكثير من الأراضي التـــي فتحـــت بـــالقوة، وأصبحت تعامل معاملة الوقف تماماً، وخصص ريعها لعمـــوم منفعـــة المسلمين، ووفق ما يجتهد حاكم الدولة الإسلامية.

وقد استمر خلفاء بني أمية بالوقف على الحرمين الشريفين، وتوفير المياه الصالحة للشرب والإستعمالات البشرية، ابتداءً من عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هــ679 /م) وطوال العصر الأموي؛ إذ إن عامة المقتدرين من الصحابة قد باشروا وقف أموالهم، أو جزء منها على الحرمين الشريفين. كما أبدى خلفاء بني العباس اهتماماً كبيراً بالأوقاف وتنميتها وتنوعها. فأبو العباس السفاح (ت ١٣٦هــ/ ٧٥٣م)، افتتح أعماله في نطاق البر والأوقاف، بأن أمر بضرب المنار على طريق الحج الذي يربط الكوفة بمكة المكرمة والمدينة المنورة. كما يُذكر أن أبا جعفر المنصور (ت ١٥٨هــ/ ٧٧٤) كان قد وقف الأوقاف على أهل المدينة المنورة؛ وسار على نهجه بقية الخلفاء العباسيين. وكانت هناك منافسة حادّة بينهم وبين الأمراء من الأسرة العباسية في أعمال البر وإشاعة الأوقاف على الحرمين الشريفين، حيث لم يقتصر أثرها على

هــ)، الجزء الخامس ، تحقيق / محمد الحبيب بن الخوجة ، نشر دار الغرب الاسلامي ــ رابط مباشر ، ص ص ١٢٩-٢٦٢ .

الحج والحجاج وسكان الحرمين الشريفين، بل شمل التعليم، في مراحله المختلفة، وأهدافه المتعددة، والصحة العامة، وما الى ذلك .

في العصرين الأيوبي والمملوكي، تجلى هذا الإهتمام فيما يرسل مع قافلة الحج المصرية لصيانة وتجميل الحرمين وإدارتها، وما كان يرسل اليهما في صورة مخصصات للأهالي والمجاورين، وغير ذلك من النفقات، مثل كسوة الكعبة، وكسوة الحجرة النبوية المشرفة، وخدمة الحرمين، وما إلى ذلك . من أبرز تلك الأوقاف وقف السلطان برسباي (ت ٨٤١هـ/ ١٤٢٧م)، ووقف الدشيشة الكبرى"[٢٠٤]"، الذي يعد من أكبر الأوقاف المخصصة لأهالي الحرمين الشريفين في مصر.

بعض الأمراء والأعيان، في العصر العثماني، أضافوا للدشيشة الكبرى أيعاناً موقوفة. ومن أمثلة ذلك أن الأمير فرحان آغا وزوجته السيدة زليخا، وقفاً بالقاهرة عقاراً يبلغ ريعه مائتين وسبعين نصف فضة سنوياً. كذلك خصصت السيدة خاتون بنت عبدالله وقفاً آخر بلغ ريعه مثل ذلك. وهناك الكثير من الوثائق التي تشير الى اتساع وقف الدشيشة الكبرى في العصر العثماني .

لم يقتصر الأمر على السلاطين في اهتمامهم بالحرمين الشريفين، بل سار الأمراء على سيرة سلاطينهم وحرصهم على ذلك. ومن أمثلة ذلك وقف الأمير صارم الدين إبراهيم ابن الأمير شمس الدين علي الخزعلي، الذي وقف عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م، بعض الأوقاف وجعل ريعها وقفاً على فقراء الحرمين الشريفين والمسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف

---

204 – ويقصد بالدشيشة، القمح الذي يرسل سنوياً الى الحرمين فيعمل طعاماً للفقراء، يجرش ويدش ويطبخ ويفرق عليهم .

بالسوية بينهما. وكذلك الأمير يشبك بن مهدي الدوادار"٢٠٥" الذي وقف عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م وقفاً خصصه لفقراء ومساكين المدينة المنورة .

ونتيجة لازدهار الأوقاف في العصر المملوكي تنوعت الأعيان الموقوفة، وكذلك الفئات الموقوفة عليهم. وكان من أهم ما وقف في هذا العصر الأراضي الزراعية، والعقارات، التي شملت: المدارس، والقصور، والدور، والفنادق، والعقارات، والربط، والخانات، والسبل، وأحواض الدواب، ومعاصر الزيت، والحمامات، والطواحين، والأفران، ومخازن الغلال، وغيرها مما ورد في وثائق الواقفين في ذلك العصر. فلم تنته حقبة المماليك، إلا كان ما يقارب نصف أراضي مصر أوقافاً، بحيث كان نسبتها عند دخول العثمانيين اليها، حوالي عشرة قراريط من ٢٤ قيراطاً، الى جانب مباني القاهرة والفسطاط التي كان أكثرها أوقافاً .

---

205 – أصبح الأمير يشبك بن مهدي الدودار مملوكا وهو في الثالثة عشرة من عمره، وأعطي لذلك نعت الصغير. وكان مجهول الأصل فأعطي اسم النخاس أي تاجر الرقيق الذي اشتراه، مهدي. وكان أولا مملوكا لدى السلطان الظاهر جقمق، وتولى عدة مناصب في عهده؛ وكذلك في عهد السلطان الأشرف إينال. وفي عام ٨٧١هـ / ١٤٦٦م، أثناء حكم السلطان خشقدم، عين كاشفا للصعيد وأميرا لعشرة. وفي عهد السلطان قايتباي عين في منصب دوادار كبير أو المستشار؛ ويكون الأمير يشبك بشغله ذلك المنصب الرفيع قد قفز عدة مراتب في السلم الوظيفي المملوكي. ثم عين بعد ذلك وزيرا، وأصبح مسئولا عن الشئون المالية وقاد هذه الأمور بحكمة وخبرة. وكان الأمير يشبك مختصا بالتصرف مع أولئك الذين يحاولون الاستيلاء على أراضي الدولة المملوكية. وقد نجح في إخماد الاضطرابات الداخلية. واضطلع بإدخال تحسينات ملموسة؛ فأعطى اهتماما خاصا للطرق والأسواق وإصلاح المباني وقد عرف بشجاعته. وقد كان الأمير يشبك كريما مع العلماء، وخاصة الفقراء منهم؛ كما أعتق عددا كبيرا من مماليكه، ومنحهم سبل العيش الرغد الحر. والأمير يشبك مات مقتولا في عام ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م.

اتسع نطاق الوقف في عصر الدولة العثمانية، وذلك لإقبال السلاطين والأمراء والأعيان عليه، وأصبحت له تنظيمات خاصة به، وصدرت تعليمات متعددة لتنظيم شؤونه، وبيان أنواعه، وكيفية إدراته . بالإضافة الى ذلك فإن الأمراء والأعيان اتبعوا سلاطينهم، فوقفوا الكثير من الأراضي الزراعية والعقارات المبنية، وخصصوا ريعها لأهالي الحرمين الشريفين. من أبرزها وقف علي باشا السبكي (ت ٩٦٧هـ/ ١٥٥٩م)، الذي خصص في ريع وقفه ٧٥٠٠ نصف فضة لأهل مكة المكرمة، و١٢٥٠٠ على أهل المدينة المنورة. الأمير عبدالرحمن كتخذا (ت 1190هـ/ ١٧٧٦م) الذي يعد من أهم الأمراء الذين اهتموا بالمقدسات الإسلامية، كان يرسل سنويا الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ٢٠٦٩٨ نصف فضة، مع أمير الحاج المصري .

من خلال وثائق الوقف، فإن أغلب الأقاليم التي اشتهرت بأوقاف حكام الدولة الإسلامية، على مر العصور، هي مصر والشام وتركيا والحجاز؛ بالإضافة الى أوقاف دول اخرى في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، منها اوقاف الحرمين الشريفين في اليمن، حيث لا توجد منطقة من مناطق اليمن إلا وفيها أوقاف للحرمين. وأكثر هذه الأوقاف في لواء تهامة ولواء إب. وكان لها إدارة مستقلة عن سائر الأوقاف في ألوية اليمن وأقضيته ونواحيه، يجمعون أثمان حاصلات تلك الأوقاف، ثم يرسلونها الى ناظر أوقاف الحرمين في صنعاء، وترسل سنوياً الى الحرمين. وقيل: إن الوالي العثماني، حسين باشا اعتنى بتلك الأوقاف، وأصبحت ترسل مع قافلة الحاج اليمني .

إسهامات الوقف : أسهمت الأوقاف إسهاماً فعالاً في تدعيم الحرمين إصلاحاً وتعميراً، كما أسهمت تعليماً، حيث ساعدت في إيجاد جيل من العلماء والأئمة والخطباء والمحدثين والمؤذنين .وقد وفرت الأوقاف جل احتياجاتهم بما خصص من ريعها. وتوافر وسائل المعيشة في المدينتين المقدستين كان سبباً رئيسياً في أن تزدهر الحركة العلمية فيهما، تؤكد ذلك الكثير من الوثائق .

من الأغراض التي شملها الوقف، الصرف على الخدمات العامة في الحرمين الشريفين .فقد أحاط سلاطين وحكام الدول الاسلامية الخدمات العامة بالحرمين الشريفين بعظيم العناية وتعددت الأوقاف التي تعود بالخير على النواحي العامة للمقيمين والوافدين الى الحرمين. من ذلك، الوقف على البيمارستانات، والرعاية الصحية، والرباطات، والمدارس، والمدرسين، وطلاب العلم، والمنقطعين، في اجرة حملهم وإطعامهم وكسوتهم، وعلى تكفين الموتى. ولم يغفلوا توفير المياه، فوقفوا على اصلاح العيون، وعلى اجرائها، وعلى الأسبلة، وغيرها من الخدمات العامة .

وبعد وقف السلطان الأشرف شعبان، الذي وقفه عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، خير مثال على وقف الخدمات العامة، إذ أنه تناول الصرف على الخدمات العامة بالمدينتين المقدستين، وشمل الكثير من المناشط العلمية والصحية وغيرها .

بالإضافة الى ذلك، كان هناك ما ينفق منها على الأشراف، أمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة، حيث شكلت الأوقاف مورداً مهماً في الإنفاق عليهم ولتصريف شؤون امارتهم. يضاف الى هذا ما نالوه من الهبات

والأموال في صورة إعانات مالية، أو عينية، فالأموال التي كانت تصل اليهم من السلاطين والملوك والأمراء وكبار رجال الدولة من مصر ومن سائر البلاد الإسلامية كانت كبيرة .

أدت الأوقاف رسالتها، وحققت الهدف منها، في كل نواحي الحياة، إذ عملت على رفع مستوى المعيشة في المدينتين المقدستين، ووفرت وظائف كثيرة، وأنعشت الأسواق، وخفضت الأسعار، وعم الخير أهالي الحرمين والمجاورين بهما والوافدين إليهما، وخاصة الفقراء، والعاجزين، والمنقطعين، والأرامل واليتامى والمساكين .

إضافة الى ذلك، ساهمت الأوقاف في إثراء الحياة العلمية في المدينتين المقدستين، حيث أن العلماء والطلاب كانوا يجدون في الأموال والمؤن وصدقات أهل الخير والأوقاف الدائمة والمرصودة التي كانت محبوسة عليهم، ما يلبي مطالب حياتهم ويساعدهم على التفرغ العلمي. وقد اجتذب الحرمان الشريفان الكثير من العلماء، لا سيما من عصفت بهم الفتن في بلادهم، ولم يجدوا ملاذاً يؤويهم سوى مكة المكرمة، او المدينة المنورة، ينشدون فيهما الأمن والإطمئنان، بعيداً عن الفتن والإضطرابات. وبهؤلاء العلماء حدثت نهضة علمية واسعة، ما كان لها أن تتم إلا بالأوقاف والأموال التي كان الإنفاق فيها على التعليم مطلباً رئيسياً"[٢٠٦].

206– *مها اليزيدي ، أوقاف الحرمين الشريفين: أهميتها ودورها ، مجلة الحجاز ، العدد ٨٩ .*

ثالثاً : المجاورون :

دائماً كانت لمكة المكرمة المكانة الخاصة التي كانت تتمتع بها لدى المسلمين فهي محجهم ومهوى افئدتهم ولذلك اتجهت اليها اعداد كبيرة من المسلمين حجاجا وطلاب علم وغير قليل منهم فضل الاقامة بها لقضاء فترة صفاء روحي في جوار بيت الله وعلى ارضها المقدسة ومن هنا نشأ ما عرف في التاريخ الاسلامي باسم المجاورة ومنهم من قصدها لاداء الفريضة والمكث فيها مدة قصيرة ولكنها حافلة بلقاء العلماء. ولا شك ان المجاورين ليسوا من بلد واحد وانما من اقطار مختلفة من العالم الاسلامي مثل المغرب ومصر والشام والعراق واليمن وغيرها ، وقد كان المجاورون من اجل طلب العلم كثيرين وقد الف في المجاوريين مؤلفات عديدة منها ما جمعه ، احمد بن عبدالله بن محمد بن ابي بكر الطبري المكي الشافعي (ت٦٩٤هـ) وسماه "معجم المجاورن من الصحابة" واستمرار المجاورة لبيت الله الحرام ولمكة المكرمة الى عهد قريب من طلاب علم وعلماء ، وكان المجاورون اكثر تواجدهم في بيت الله الحرام ملازمين لحلقات العلم ينهلون من معينها الذي لا ينضب ومستمتعين بالصلاة والطواف وطلب العلم ، وكان كل شيخ يعطف على طلابة من المجاورين الذين لايسألون الناس الحافاً فيجدون الرعاية والعناية من العلماء والميسرين من اهل البلد الحرام فكانوا منعمين مكرمين ، وقد ادرك الكثير من المجاورين من طلاب العلم من الاخوة اليمنيين والصوماليين والاحباش ممن يطلبون العلم في الحرم المكي ويعملون في نظافة المسجد الحرام مستعينين على ما يحصلوه من مال على معيشتهم بجانب طلبهم للعلم الشرعي بالمسجد الحرام وبالمدرسة

الصولتية وبدار الحديث وبدار العلوم وبمعهد الحرم المكي وغيرها من المدارس التي تعنى بالعلوم الشرعية واللغة العربية"[٢٠٧].

وقد صنف ابن بطوطة المجاورين عندما قصد مكة المكرمة كما قال :

فمنهم الإمام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي"[٢٠٨]، كثير الطـواف آنـاء الليـل

---

[207]– وقد تغيرت الامور في وقتنا الحاضر فاصبح امر المجاورة يخضع لانظمة يجب التقيد بها ومراعاتها ، اقتباس من كتاب "مكة المكرمة خلال قرن من الزمان " .

[208] – عفيف الدين أبي السّعادات، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني الشافعي، المؤرخ المسلم، صاحب كتاب مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان. ولد في عدن باليمن حوالي سنة ٦٩٨هـ، ونشأ فيها، فحفظ القرآن الكريم وبعض المتون، وأخذ عن عدد من العلماء، منهم: الذهبي بن النضال، والشرف الحرازي، وغيرهم. حج سنة ٧١٢هـ، ثم عاد إلى اليمن، وصحب الإمام علياً المعروف بالطواشي، وانتفع به، ثم رجع إلى مكة سنة ٧١٨هـ، وأقام بها وتزوج، وسمع علي الرضى الطبري، والنجم الطبري، وغيرهما. رحل إلى الشام سنة ٧٣٤هـ، وزار القدس والخليل وأقام بها عدة شهور، ثم زار مصر وتنقّل في مدنها، واجتمع بعدد من العلماء وأخذ عنهم، وكان يحج سنوياً طول فترة غيابه، ثم عاد إلى مكة وأقام بها. وقد جاور بالمدينة المنورة مراراً، وطالت إقامته في إحداها، وتزوج بها. تصدى للتصنيف والإقراء والاسماع، وأخذ عنه عدد من العلماء منهم: الزين العراقي، والجمال بن ظهيرة. وكان كثير العبادة والورع، منقطع القرين في الزهد، وافر الصلاح والعزلة، شديد الإيثار للفقراء، وكان عارفاً بالفقه والأصول وعلوم العربية، والفرائض والحساب، وغيرها من فنون العلم، وقد أثنى عليه كثير من العلماء والأدباء، منهم: الإمام بدر الدين حسن بن حبيب أديب حلب، وجمال الدين الإسنوي في "طبقاته" وغيرهما. وكانت وفاته بمكة المكرمة سنة ٧٦٨هـ، ودفن بمقبرة المعلاة، بجوار قبر الفضيل بن عياض.

وأطراف النهار وكان إذا طاف من الليل يصعد إلى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهدا للكعبة الشريفة، إلى أن يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا، أو ينام يسيرا، ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح. وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن برهان، وكانت صغيرة السن. فلا تزال تشكو إلى أبيها حالها فيأمرها بالصبر، فأقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته.

ومنهم الصالح العابد نجم الدين الأصفوني. كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع إلى الله تعالى، وجاور بالحرم الشريف. وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم، ويعتمر في رمضان: مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: عمرة في رمضان تعدل حجة معي. ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي، كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين، توفي بمكة. ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت، كثير الطواف، أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها. ومنهم الصالح خضر العجمي، كثير الصوم والتلاوة والطواف. والشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ، كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب. والصالح المجود برهان الدين إبراهيم المصري مقرىء مجيد ساكن رباط السدرة، ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى، ويقوم بمؤنهم ويكسوهم. والصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة، يحمل

إليه من بلده المال الكثير في كل سنة، فيبتاع الحبوب والتمر، ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها إلى بيوتهم بنفسه، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن توفي.

أثر الرحلة المكية على الحياة العلمية بمكة :

"الحركة العلمية والتعليم في مكة" بصورة عامة وجذورها تتمثل فى دور المسجد الحرام مقصد كل الرحالين ، إذ كان عامرًا بحلقات التدريس التي كان أكابر الشيوخ فى العالم الإسلامى يعقدونها في جنباتـــه، ومــزدحم برجال الحديث والقراء وأصحاب الفتوى، من أمثال برهان الدين العجمى الواعظ (٢٠٩)، كان ينصب له كرسى تجاه الكعبة المشرفة فيعظ النـــاس

---

[209] – هو الإمام إبراهيم بن محمد بن خليل برهان الدين،أبو الوفاء الطرابلسي المعروف بسبط ابن العجمي، ولد بالجلوم حارة من حارات حلب في الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، مات والده وهو صغير وكفلته أمه،كان حريصاً على طلب العلم وشغوفاً به، فقرأ القراءات والتجويد وفنون الحديث والفقه والنحو واللغة عن عدد من العلماء في دمشق ومصر وحلب، كان رحمه الله رحالة في طلب الحديث وسماع الأسانيد فرحل وسمع في عدة بلدان منها بيت المقدس وحماة وحمص وبعلبك ودمشق والخليل ونابلس والرمله ومصر، وشيوخه بالسماع قريب من المائتين غير مشائخه بالإجازة، قال عنه ابن حجر "بأنه أحق الناس بالرحلة إليه لعلو سنده حساً ومعني، ومعرفته بالعلو فناً فناً" توفي في سادس عشر شوال سنة إحدى وأربعينن وثمانمائة بحلب، وصلي عليه بين صلاتي الظهر والعصر في الجامع الكبير،له العديد من المؤلفات منها مخطوط أو مطبوع. يقال له: البرهان الحلبي، وسبط ابن العجمي. وهو والد المؤرخ أحمد بن إبراهيم (٨٨٤) الآتية ترجمته. رحل إلى دمشق وفلسطين ومصر والحجاز، وأخذ عن علمائها. من كتبه (نور النبراس على سيرة ابن سيد الناس – خ) مجلدان، و (نقد النقصان في معيار الميزان) و (التبيين لأسماء المدلسين – ط) رسالة، و (تذكرة الطالب المعلم بمن يقال إنه مخضرم – ط) كراس، و (الاغتباط بمن رمي بالاختلاط – خ) [ثم طُبع] و (المقتفى في ضبط ألفاظ الشفا – خ) و (بل الهميان في معيار الميزان) ذيل لميزان الذهبي، و (نهاية السول في رواة الستة الأصول) و (تعليق على

ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع يأخذ بمجامع القلوب ، ولهذا فقد كان للمسجد الحرام دور بارز في رقي الأمة الإسلامية وتطورها في مختلف المجالات الدينية والفكرية والحضارية منذ فجر الإسلام، الأمر الذي جعل مكة المكرمة تحتل مكانة تبوئها لأن تصبح مركز علمي بارز في الحياة العلمية الإسلامية.

ونشطت "المؤسسات التعليمية والعلمية"، فأكدت على أن المسجد الحرام لم يكن وحده ملتقى العلم والعلماء والأساتذة والطلاب، بل كانت هناك أماكن أخرى يمكن اعتبارها مؤسسات تعليمية أدت دورها في الحركة التعليمية في مكة المكرمة، ومنها المساجد والكتاتيب والأربطـة[٢١٠] التـي بـدأ

سنن ابن ماجه) و (التلقيح) في شرح صحيح البخاري، أربع مجلدات و (مختصر الغوامض والمبهمات – خ) بخطه. اختصر به كتاب (الغوامض) في الأسماء الواقعة في الأحاديث، لابن بشكوال : نقلا عن : الأعلام للزركلي .

[210] – الاربطة، فالرباط في الأصل بيت المجاهدين ، ولكن السادة الصوفية ، استعملوا الكلمة فيما بعد بمعنى الخانقاه ، على أساس أنهم كانوا يخوضون جهادا روحيا . كانت الاربطة تغذي الوافدين إليها بالتعليم الديني ، وتوفر لهم غذاء روحيا ، وفي العصر العثماني أصبحت كثير من الاربطة ملاجىء للفقراء من نساء ورجال يقدم لهم فيها الطعام وتصرف المساعدات المختلفة . وكانت الاربطة مراكز للتعليم الصوفي ، بالإضافة إلى مهامها الاجتماعية والسياسية ، وكان في بعضها مكتبات وفي حين كان السادة الصوفية يقيمون في الخوانق بصورة دائمة أو شبه دائمة ، كان زوار الاربطة يقيمون فيها لمدد قصيرة نسبيا ، غير أن التمييز بين الخوانق والربط لم يكن متيسرا في كثير من الأحيان،وقبل ظهور الأربطة بمكة المكرمة كانت هناك مايسمى بالدور والرباع وتقوم بدور الرباط الى حدما ،ومن اشهر الدور والرباع:١-ربع آل أبي العاص بن أمية ٢-رباع بني نوفل بن عبدمناف عند العلم الاخضر بالمسعى ٣-ربع آل دواد بن الحضرمي ٤-رباع بني عامر بن لؤي ٥-دار سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه٦-دار العباس رضي الله عنه ٧-دار الأرقم بن ابي الأرقم ٨-دار العجلة ،وفي عام ٣١٢هـ ظهر في مكة المكرمة ولأول مرة أسم جديد يعرف بالرباط (رباط السدرة ويقع بين باب السلام وباب النبي صلى الله عليه وسلم

إنشاؤها عام ٤٠٠هـ بمكة قبل المناطق الأخرى والذى كان على هيئة فناء مكشوف فى وسطه وتدور حوله مشتملات الرباط ، ثم ظهرت فى هيئة طوابق سكنية فى أواخر العهد العثمانى([211]) ، والمدارس قد عرفت بمكة المكرمة منذ القرن الخامس الهجرى ، وأقدمها مدرسة الأرسوفى ، ثم اتسعت حركة العلم فشملت مؤسسات كثيرة أخرى، ثم أوضحت نظام الدراسة في تلك المؤسسات، فهناك دراسة نظامية في المدارس كما فى المدرسة الصولتية([212])، ودراسة وسط بين الانتظام وعدمه وتتم في

---

211 – حيين عبد العزيز حسين الشافعى ، الرباط فى مكة المكرمة منذ البدايات وحتى نهاية العصر المملوكى : دراسة تاريخية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ١٢ وما بعدها .

212 – المدرسة الصولتية في مكة المكرمة هي واحدة من أقدم مدارس التعليم النظامي بالمملكة العربية السعودية. أسس هذه المدرسة الشيخ محمد رحمت الله الذي جاء إلى مكة المكرمة عام ١٢٧٤هـ من الهند، وأذن له بالتدريس في الحرم المكي، ولم تكن هناك مدرسة منهجية في مكة فأسس أول مدرسة على نفقته الخاصة وبمفرده في المسجد الحرام، إلا أن وجود مدرسة في محيط الحرم لايؤدي الغرض المنشود من حيث تنظيم الدراسة كما كان يتطلع الشيخ محمد رحمت الله وذلك على غرار مدارس الهند الإسلامية العريقة وغيرها من المدارس الإسلامية المنتشرة في ذلك العهد في بعض البلدان العربية، وقام أحد أمراء الهنود المهاجرين والمقيمين في مكة المكرمة وتبرع ببعض الأماكن من داره وانتقلت مدرسة الشيخ رحمت الله إلى هذه الدار مشكلة نواة مدرسة مستقلة على نهج جديد، والتحق عدد كبير من الطلبة من أهل مكة المكرمة حتى ضاقت أماكن الدار بالطلاب فعاد الشيخ ونقل نصف طلابه إلى المسجد الحرام، وترامت أخبار هذه المدرسة الجديدة وعلمت بالأمر امرأة ثرية من الهند تسمى صولت النساء كانت قد قدمت في موسم الحج عام ١٢٨٩هـ وأرادت إقامة رباط فاستشارت الشيخ رحمت الله في ذلك فعرض عليها بأن مكة مليئة بالأربطة ولكن ليس بها مدرسة يتعلم فيها أبناء المسلمين، فحبذت الفكرة، وتبرعت بقسط وافر من مالها الخاص وشيدت المدرسة في حي الخندريسة بحارة الباب جوار المسجد الحرام في عام ١٢٩٠هـ، وانتقل الطلاب ودرسوا

الأربطة والزوايا، ودراسة في مقامات المذاهب الأربعة، ثم المساجد والكتاتيب والأربطة التى يقصدها المجاورون كرباط السدرة ورباط ربيع الذى عاش فيه الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن على بن رزق الله الأنجرى ، وقال عنه ابن بطوطه : إنه من أهل قطر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة سنين وبها وفاته. كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة. ومتى أتى إلى بلدنا طنجة نزل عندنا. وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل إلى مسكنه برباط ربيع، وهو من أحسن الرباطات بمكة، بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة، وسكانها الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور، وأهل الطائف يأتونه بالفواكه. ومن عاداتهم أن كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهو يسمونه الخمط يخرج منه العشر لهذا الرباط. ويوصلون ذلك إليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان. ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوائح.. ويستطرد ابن بطوطة حاكياً : أتي يوما غلمان الأمير أبي نمي صاحب مكة إلى هذا الرباط ودخلوا بخيل الأمير وسقوها من تلك البئر، فلما عادوا بالخيل إلى مرابطها أصابتها الأوجاع وضربت بأنفسها الأرض برؤوسها وأرجلها. واتصل الخبر بالأمير أبي نمي، فأتى باب الرباط بنفسه، واعتذر إلى المساكين الساكنين به، واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده

مدرسة الشيخ رحمت الله إلى هذه البناية الجديدة، وتخليداً لذكرى هذه المرأة واعترافاً لجميلها أطلق المؤسس اسم الصولتية على هذه المدرسة.

فأراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها، ولم يتعرضوا بعدها للرباط إلا بالخير"[٢١٣].

وإلى جانب هذه المؤسسات التعليمية وجدت الدروس الخاصة التي دأب عليها بعض الأمراء المسلمين وبعض التجار الموسرين، إذ كانوا يدفعون لمن يقوم بتدريسها أجرًا معلومًا، مما ساعد على نشر العلم بين المسلمين من أبناء مكة والوافدين إليها.

أما "رجال الحركة العلمية" أو الأساتذة الذين تصدوا للتدريس، والطلاب، وهم من طبقتين: طبقة تدرس في المسجد الحرام، وطبقة في المدارس المستقلة، وأن هؤلاء المدرسون لم يكونوا من بلد واحد وإنما جاءوا من مختلف البلدان، والمكانة الاجتماعية التي احتلها العلماء في المجتمع المكي والاحترام والتبجيل كبيرة ، نظرًا لأنهم ورثة الأنبياء، والأعمال التي مارسوها (خلاف التدريس) خلال فترة الدراسة، ومن أهمها: الإفتاء، التجارة، العطارة، عقد الأنكحة وتوثيق العقود، الفراشة والحجابة، الأذان في المساجد، مع التطرق إلى مدرسي المسجد الحرام.

ومن الأساليب التي أتبعت في التعليم الرحلة في طلب العلم، والإجازات العلمية([٢١٤]) التي تحتل مكانة خاصة في عملية التعليم عند المسلمين، إذ

---

213 – ابن بطوطة ، مرجع سبق ذكرله ، ص ٦٩ .

214 ـ هي النظام الأساسي للرحلة في البحث عن المعرفة التي وضعت في وقت مبكر عن طريق طلاب علم الحديث، بما فيها السفر إلى شخصيات محددة (الشيوخ)، وعلى وجه الخصوص من أقدم وأشهر المحدثين، ولكي يسمعون من أفواههم الأحاديث الخاصة بهم والحصول على "الإذن" أو "الإجازة" لنقل هذه الأحاديث وذكر أسمائهم في الإسناد. وعندما يستخدم "نظام الإجازة" هذا اسم الشخصية بدلا من المؤسسات كالشهادات الحالية من المعاهد والجامعات فإنه لا يخدم فقط علم الحديث، ولكن أيضا يساعد على نقل النصوص ومن أي نوع، كالتاريخ، والقانون، والفقه واللغة، والأدب والتصوف وغيرها من العلوم. إن الإسناد من مخطوطة طويلة وإن كان الحديث قصيراً يجب أن يظهر بشكل مثالي التواصل عن طريق الفم، ووجها لوجه، ونقل النص من المدرس إلى الطالب الذي يجعل

كان المتعلمون منهم يحرصون على الفوز بها تتويجًا لجهودهم في طلب العلم، لتكون دليلاً على بلوغهم مرتبة علمية سامية تؤهلهم للتدريس، بل كان يحرص على كسبها الكبير والصغير كشهادة يفخر بها الإنسان بين أقرانه وأترابه، وراجت في مكة العلوم ، وأقبل عليها الناس خلال حقبة الدراسة على اختلاف أنواعها، كالعلوم الدينية (التفسير، القراءات، الحديث، الفقه)، والعلوم اللغوية (النحو، الأدب، اللغة) والتاريخ وعلوم أخرى كالهندسة والحساب والطب والفلك.

أثر الرحلة المكية على الحياة الاجتماعية والتركيبة السكانية :

وعلى مرِّ القرون ازداد الوافدون والمجاورون زيادة كبيرة، بينما قل عدد الأهالي الأصليين، لكن المحور الذي تدور حوله حياة أهل مكة والواردين إليها هو (موسم الحج)، فلولا المقدسات ما أمكن تصور ازدهار مدينة مثل مكة في تلك الفيافي القاحلة عبر القرون الطوال، بِوَادٍ غِيرِ ذِي زَرْعٍ، فتحققت دعوة نبي الله إبراهيم عليه السلام لهذه المدينة المباركة "فَاجْعَلْ أَفْئِدَةَ مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ"([٢١٥]).

وسكان مكة الأصليون من قبيلة قريش، بالإضافة إلى بعض القبائل والعشائر التي استقرت في جوار قريش، وقد زحف معظم القرشيين مع الفتح الإسلامي إلى الشام والعراق ومصر والمغرب وغيرها واستقروا فيها، ولم يبق من القرشيين الأصليين في مكة إلا قلة منهم، مع بعض

النص المكتوب أكثر وثوقا. في "الإجازة" الرسمية والمكتوبة يمنح المعلم الشهادة تماماً كما هي اليوم بالإضافة إلى الإسناد وما يحتويه عادة من نسب العلماء بالإسناد له أو لها وهكذا لعدد كبير من العلماء إلى النبي عن طريق الصحابة والتابعين، أو ربما إلى مؤلف لكتاب معين.

215 – سورة إبراهيم : ٣٧ .

الأول من الوافدين يعانون من صعوبة في التفاهم مع السكان الأصـليين الذين لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم، إلا أن الجيل الثاني ما لبث أن امتزج في المجتمع المكي بالمصاهرة والمعاشرة، إلى أن صار أكثر أهل مكة خليطًا في خَلْقِهِم وخُلُقِهِم، وأدى هذا الامتزاج إلـى تنـوع الملـبس والمأكل، كما أدى إلى ركاكة في لغة المكيين بعد أن كانت لغة قـريش هي العربية الفصحى، ثم دخلت فيها بعض الألفاظ التركيـة والهنديـة والفارسية. وظهر تنوع الملبس؛ في العمامة الهندية إلى جانب القفطـان المصري، والجبة الشامية، فكأنك تعيش في وسـط يكـتظ بمجموعـات متباينة من الأمم المختلفة، ولكن يجمع هؤلاء جميعًا رباط ديني متين؛ هو انتماؤهم إلى الإسلام.

ومن مظاهر الحياة الاجتماعية في المدينة المقدسة الاحتفال بمطلـع أول كل شهر هجري (الأشهر القمرية) ويقول فى ذلك ابن بطوطه : وعادتهم في شوال، وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات، أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله، ويسرجون المصابيح والشمع، على نحو فعلهم في ليلة سـبع وعشرين من رمضان. وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتهـا، ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي بأعلى أبي قبيس، ويقـيم المؤذنون ليلتهم تلك في تهليل وتكبير وتسبيح، والناس ما بين طـواف وصلاة وذكر ودعاء فإذا صلوا صلاة الصبح أخذوا في أهبـة العيـد، ولبسوا أحسن ثيابهم، وبادروا لأخذ مجالسهم بـالحرم الـشريف، بـه يصلون صلاة العيد، لأنه لا موضع أفضل منه. ويكون أول من يبكـر إلى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة، ويقعد كبيرهم فـي عتبتها، وسائرهم بين يديه، إلى أن يأتي أمير مكة فيتلقونه، ويطـوف

بالبيت أسبوعا، والمؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة، رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له ولأخيه كما ذكر، ثم يأتي الخطيب بين الرايتين السوداوين، والفرقعة أمامه، وهو لابس السواد، فيصلي خلف المقام الكريم، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة. ثم إذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام والمصافحة والاستغفار، ويقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا، ثم يخرجون إلى مقبرة باب المعلى، تبركا بمن فيها من الصحابة وصدور السلف ثم ينصرفون([٢١٦]).

وفيما يتعلق باستقبال أهالي مكة للمحمل كانت عادة أمراء مكة الخروج لاستقبال المحمل وتقديم كل ما يحتاجه من خدمة، كما أن قدومه كان مناسبة تحمل تباشير الخير والرفاه لأهل مكة والمدينة وحكامهما، حيث ترسل الهبات والصدقات بصحبة المحمل، بالإضافة إلى أن إمرة المحمل تسند إلى كبار الأمراء المماليك، الذين على أمراء مكة والمدينة استرضاؤهم، ولذا استحق منهم الاهتمام وحسن الاستقبال.

وكان أهل مكة والمدينة يتأهبون طوال شهر شوال لاستقبال الحجاج، ومحمل الكسوة في ذي القعدة وأوائل ذي الحجة، فبعد أن يمر محمل الكسوة بينبع وبالمدينة المنورة، فيحتفل أمراء المدينتين به احتفالاً كبيرًا، ثم يتوجه إلى مكة، فيخرج أمير مكة لتلقيه على مسافة منها، فيترجل عن جواده ويقبل خف جمل الكسوة، ثم يسير في صحبة أمير الحج ورجال الركب حتى يدخل مكة، وكانت العادة أن يُكلف أمراء الحرمين وينبع

---

[216] – ابن بطوطة ، مرجع سبق ذكره ، ص ٧٧ .

بالإضافة إلى تقبيل خف الجمل، تقديم الحيوانات والأمــوال للأعــراب، الذين يحرسون الطريق لتأمين المحمل.

المصادر :

١ – إبراهيم بن إسحاق الحربى ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ، تحقيق / حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة ، ١٩٦٩م .

٢ – إبراهيم شوكه ، ديار العرب من أنس المهج بلادريسى ، مجلة المجمع العراقى ، المجلد الحادى والعشرين ، ١٩٧١م .

٣ – إبراهيم مصطفى وآخرون ، تجارب الأمم ، مصر ، ١٩١٤م ، الجزء الثانى .

٤ – ابن بطوطة (أبو عبد الله) : رحلة ابن بطوطة ، تقديم / كرم البستانى ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٠.

٥ - ابن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار/الجزء الأول.

٦ - ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ .

٧ – ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبى ، صورة الأرض ، تحقيق / ج . هـ . كرامرز ، لايدن ، الجزء الأول .

٨ – ابن رشيد السبتي ، محمد بن عمر بن محمد، أبو عبد الله، محب الدين ابن رشيد الفهري، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة الى الحرمين مكة و طيبة المعروفة ب : رحلة ابن رشيد السبتيَ ،ت ٧٢١ هـ ، الجزء الخامس ، تحقيق / محمد الحبيب بن الخوجة ، نشر دارا لغرب الاسلامي .

٩ - ابن فضل الله العمرى ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، قسم اليمن ، تحقيق / أيمن فؤاد السيد ، طبع القاهرة .

١٠ - ابن فضل الله ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، قسم مصر ، تحقيق / أيمن فؤاد السيد ، طبع القاهرة .

١١ - ابن منظور ، لسان العرب أجزاء مختلفة .

١٢ – أبو الحسن على بن أبى الكرم بن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثامن ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

١٣ - أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة (المتوفى: نحو ٢٨٠هـ) ، المسالك والممالك ، دار صادر أفست ليدن، بيروت ، ١٨٨٩ م .
١٤ - أبو بكر ابن يعقوب بن عبدالله شهاب الدين البغدادي الحموي الرومي: معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م .
١٥ - أبو داوود ، السنن ، الجزء الثالث ، طبعات متعددة .
١٦ - أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٢٨٧هـ ، الجزء الثانى .
١٧ - أحمد الجاسر ، كتب في الرحلات: "رحلات حمد الجاسر للبحث عن التراث"، "في الوطن العربي"، "إطلالة على العالم الفسيح"، "في سراة غامد وزهران"، "في شمال غرب الجزيرة" .شبكة المعلومات الدولية .
١٨ - احمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، كتاب البلدان ، تحقيق / ميخائيل يانوس دي خويه ، ليدن ، ١٨٦٠ .
١٩ - أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (المتوفى : ٨٤٥هـ) ، الخطط المقريزية: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الكتاب من النصوص الحرة. book=554&http://www.shamela.ws/open.php?cat=27
٢٠- أحمد بن على بن أحمد الفزارى القلقشندى " ٧٥٦-٨٢١هـ/ ١٣٥٥-١٤١٨م"، صبح الأعشى فى قوانين الإنشاء ، ج٤ ، طبعة مصر ١٩١٤م .
٢١ - أحمد سوسه، الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية، جـ ٢، بغداد: نقابة المهندسين العراقيين، ١٩٧٤م .
٢٢- احمد عمر الزيلعى ، مكة وعلاقاتها الخارجية ٣٠١ - ٤٨٧هـ ، الرياض ، عمارة شئون المكتبات – جامعة الرياض ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
٢٣ - الإدريسى(محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي) ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، سنة النشر: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م ، م ٢ ، تاريخ إضافته: ٢١ / ١١ / ٢٠١٢ .

٢٤ - الاصفهاني: حمزة بن الحسن الاصفهاني- تاريخ سني ملوك الارض والانبياء ، شبكة النبأ المعلوماتية ، مكّة قبل الاسلام.. رؤية تاريخية عامة ، تحقيق: حسين كاظم العرادي .
٢٥ - الترمذي: السنن، ١٠، ١١٤.
٢٦ - الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق/ محمد بن علي الأكوع الحوالي ، مكتبة الإرشاد - الطبعة الأولى ، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
٢٧- الزرقى ، الحج عند العرب قبل الإسلام ، أخبار مكة ، الجزء الأول.
٢٨ - السيد مصطفى سالم ، الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥، جامعة القاهرة - معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٤ .
٢٩ - الطبرى ، تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، الجزء السابع .
٣٠ - القاضى وكيع " أبو بكر محمد بن خلف بن حيان البغدادى " ت ٣٠٦هـ"، أخبار القضاة ، صححه وخرجه / عبد العزيز مصطفى المراغى ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ج٢.
٣١- القرطبى ، تفسير القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء ١٩ - ٢٠.
٣٢ - المقدسى المعروف بالبشارى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، مطبعة مدبولى ، القاهرة ، ١٩٨٨ .
٣٣ - المقريزى ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، الجزء الأول .
٣٤ - النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد (ت:٨٨٥ هـ) ، اتحاف الورى بأخبار أم القرى ، تحقيق ونسخ/ فهيم بن محمد شلتوت ، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ، ج ٣ .
٣٥ - اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ليدن ١٣٠٢هـ .

٣٦ - جان- كلود جارسيان ، ازدهار وانهيار حاضرة مصرية (قوص) ، ١٩٦٥م ، ترجمة / بشير السباعى ، المركز القومى للترجمة ، القاهرة.

٣٧ - جلال الدين السيوطى ، حسن المحاضرة ، القاهرة ، ١٢٩٩هـ ، الجزء الثانى.

٣٨ - حاطوم ، يقظة القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨ .

٣٩ - حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ .

٤٠ - سين كمال الدين ، إسقاط الكرة ألرضية بالنسبة لمكة المكرمة ، مجلة البحوث الإسلامية

٤١ - حيين عبد العزيز حسين الشافعى ، الرباط فى مكة المكرمة منذ البدايات وحتى نهاية العصر المملوكى : دراسة تاريخية حضارية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، مكة المكرمة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .

٤٢ - خالد السعدون، مختصر التاريخ سياسي للخليج العربي من أقدم حضاراته حتى سنة ١٩٧١. جداول للنشر والتوزيع. ٢٠١٢.

٤٣ - خاتم الطحاوى ، جوزيف بيتس "١٠٩١هـ" ١٦٨٠م"الحاج يوسف" ، أرشيف التاريخ العالمى الإسلامى، http://www.startimes.com/f.aspx?t=8549841

٤٤ - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي "المتوفى: ١٣٩٦هـ" ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢ م .

٤٥ - راشد البراوى ، الرحلة الحجازية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٩.

٤٦ - شمس الدين ابو عبد الله المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بيروت ، مكتبة خياط ، تحقيق / دى خويه ، الطبعة الثانية ، ، ١٩٠٦ .

٤٧ - شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، عدة طبعات .

٤٨ - صلاح الدين الشامى ، الرحلة العربية فى المحيط الهندى ودورها فى خدمة المعرفة الجغرافية ، الكويت ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث عشر ، العدد الرابع ، ١٩٨٣ .

٤٩ - صلاح الدين الشامى ، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة ، فى الدراسة الميدانية ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٢.

٥٠ - صلاح الدين الشامى ، الإسلام والفكر الجغرافى ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٩ .

٥١ - صلاح الدين الشامى ، الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٩٩ .

٥٢ - عبد الأمير مؤمن ، قاموس دار العلم الفلكي ، بيروت، لبنان: دار العلم للملايين ، ٢٠٠٦.

٥٣ - عبد العزيز العظمة ، مرآة الشام تاريخ دمشق وأهلها ، تحقيق / نجدة فتحى صفوة، رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٨٧م .

٥٤ - عبد العزيز بن راشد السنيدى ، مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ط١، الرياض ، ١٤٢٧هـ .

٥٥ - عبد العزبز صالح ، تاريخ شبه الجزيرة العربية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

٥٦ - عبد العزيز محمد عوض ، الإدارة العثمانية فى إدارة سورية ١٨٦٤/١٩١٤م ، دار الكتب والوثائق العراقية .

٥٧ - عبد الرحمن بن على بن محمد ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الجزء السابع .

٥٨ - عبد القادر بن محمد الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحجاج وطرق مكة المعظمة ، المطبعة السلفية بالقاهرة .

٥٩ - عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيرى الحنبلى ، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، تحقيق / محمد حسن محمد حسن إسماعيل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١، ج١ ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢م.
٦٠ - عبد القدوس الأنصارى ، الجزيرة العربية فى رحلتى ابن جبير والعبدرى ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، جامعة الرياض ، ١٣٧٩هـ / ١٩٧٩م .
٦١ - عبد القدوس الأنصارى ، تاريخ مدينة جدة ، القاهرة ، ١٩٨٢.
٦٢ - عطية القوصى ، تجارة مصر فى البحر الأحمر حتى سقوط الدولة العباسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب القاهرة ، رقم ١١٤٩.
٦٣ - على باشا بارك ، الخطط التوفيقية ، الطبعة الأولى، القاهرة ،١٨٩٣ ، الجزء السادس.
٦٤ - على باشا مبارك ، الخطط التوفيقين ، الجزء التاسع .
٦٥ - علي بن تاج الدين السنجاري، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق: جميل عبدالله المصري، وآخرون، جـ ٢، مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ١٩٩٨ .
٦٦ - على بن حسين السليمان ، النشاط التجارى فى الجزيرة العربية فى العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، رقم ١٣٣٥.
٦٧ - على محسن مال الله ، أدب الرحلات عند العرب فى المشرق : نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٧٨.
٦٨ - قدرى قلعجي ، اكتشاف جزيرة العرب، مكتبة مدبولي، القاهرة، (٢٠٠٦) .
٦٩ - كورتلمون، جيل: رحلتي إلى مكة، ترجمة / محمد أحمد الحناشي، التراث، الرياض، (١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م) .
٧٠ - محمد الخضر حسين ، الرحلات (جمعه وحققه / على الرضا التونسى) ، بيروت ، المطبعة التعاونية ، ١٩٦٧.
٧١ - محمد السنوسى ، الرحلة الحجازية ، تحقيق /على الشنوفى ، الشرة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦.

٧٢ – محمد بن احمد العقيلى ، قبيلة بن شعبة ، مجلة العرب ، جماديان سنة ١٣٩٤هـ ، جـ ١١ ، ١٢ .

٧٣ – محمد بن عبدالله الأزرقي، أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدي ملحس، ط٨، جـ١، مكة المكرمة: ١٩٩٦ .

٧٤ – محمد بن عبدالمنعم : الروض العطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، مكتبة لبنان، بيروت

٧٥ – محمد بن محمد الإدريسي، كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نابولي: المعهد الجامعي الشرقي ، تسعة أجزاء.

٧٦ – محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني الشريف الإدريسي ،نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م ، تم دمج المجلدين للتسلسل ، تاريخ إضافته: ٢١ / ١١ / ٢٠١٢

٧٧ – محمد زكى مبارك ، ذكريات باريس ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣١ .

٧٨ – محمد سالم إبراهيم مقلد ، الوطن العربى دراسة فى الواقع والمشكلات ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٢.

٧٩ – محمد سعيد القاسمى ، قاموس الصناعات الشامية ، تحقبق / ظافر القاسمى ، دار طلاس ، دمشق ، ١٩٨٨م .

٨٠ – محمد على الصلابى ، دولة السلاجقة: وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، دار المعرفة ، بيروت ، ٢٠٠٦م .

٨١ – محمد على كرد ، خطط الشام ، م ٤ ، مكتبة النورى ، دمشق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م

٨٢ – محمد محمود الصياد ، رحلة ابن بطوطة ، مجلة تراث الإنسانية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، المجلد الثالث ، مقال ابن بطوطة .

٨٣ – محمد لبيب البتنونى ، الرحلة الحجازية ، مصر ، ١٩١١م .

٨٤ – محمد محمود محمدين ، التراث الجغرافى الإسلامى ، دار الطباعة للعلوم والنشر ، القاهرة ، ١٩٨٤.

٨٥ – محمد محمود محمدين ، التراث الجغرافى الإسلامى ، الرياض ، دال العلوم ، ١٩٩٣.

٨٦ – منير كيال ، معجم درر الكلام فى أمثال أهل الشام ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٨٤م .

٨٧ – منير كيال ، محمل الحج الشامى : دراسة توثيقية ، نشورات وزارة الثقلفة ، سورية ، ٢٠٠٦ .

٨٨ – موزل لويس ، طريق الحج العراقى القديم ، مجلة العرب ، السنة السابعة ، رمضان ، ١٣٩٢هـ ، الجزء الثالث .

٨٩ – مها اليزيدي ، أوقاف الحرمين الشريفين: أهميتها ودورها ، مجلة الحجاز ، العدد ٨٩ .

٩٠ – مهنا رباط المطيري ، الموسوعة العربية التاريخية– الجزء الرابع الجزء الرابع.

٩١ – ناصر خسرو قبادانى (١٠٠٤ – ١٠٨٨ م) ، سفر نامة ، مكتبة المصطفى الإلكترونية.

٩٢ – ناصر خسرو ، "سفر نامة" رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية فى القرن الخامس الهجرى ، ترجمة وتحقيق/ يحى الخشاب ، البنك العربى الدولى للمعلومات ، ١٩٩٣م .

٩٣ – ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، القاهرة ، طبعة الساسى ، الجزء الأول .

94 – Geyd . W . Histoive Du Commerce Lavent Au Moyen Age . Leipzig , 1925 ,

95 – Goitein , Jewsand Arabs , newyouk , 1955, Amed , soc . ! . 214 .